عذراء القلب

السخاوي؛ ياسمين
عذراء القلب: رواية/ ياسمين السخاوي. - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع / القاهرة: ٢٠١٦.
٢٥٦ص؛ ١٤×٢٠
تدمك: ٩-٤٩-٦٥٠٢-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٩٠٣٣

دار النشـــــر: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنوان الكتـــاب: عذراء القلب
الكاتـــــــب: ياسمين السخاوي
تاريخ الطبــــع: ٢٠١٦
تصحيح لغـــوي: رشا خليفة، سلمى الحبشي
تنسيق داخلـــي: سمر محمد
تصميم الغـــلاف: كريم آدم
إشراف عـــــام: محمد المصري

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر




elrasm.blkalemaat


elrsmblklemat@yahoo.com



01061419555

عذراء القلب

(رواية)

ياسمين السخاوي



الكتابة كانت من قبل غايتي المنشودة

والآن صارت الوسيلة لعبور خط النجاة

واللحاق بركب الحياة.

ياسمين ممدوح السخاوي

عذراء القلب

المقدمة

تلك الفتاة التي وكأنها خرجت لتوها من مدرستها، رغم حجابها الذي أحاط بوجهها إلا أن هيئتها حفزت خيالي ليراها بضفيرتين متوسطتي الطول ومريول مدرسي وحقيبة على ظهرها، فتاة يغلبها ارتباكها وانبهارها المتخفي بما يدور حولها، لم تسِر تقريبًا سوى خطوة واحدة بعد مغادرتها المصعد، تضغط على شفتها السفلى وتنتظر أن يجيب أحدهم على هاتفها، لا أدري أكان خجلًا أم مكابرةً امتناعها أن تستوقف أحدهم وتسأله عن وجهتها التي مؤكدٌ أنها فقدتها.

كونها ترتدي فستانًا طفوليًا لم أرَ هيئته منذ السبعينات على عكس تلك القمصان الحريرية الضيقة والتنانير القصيرة، بوجهٍ بريء مشع خال من المساحيق المتقنة المثيرة التي اعتدت رؤيتها صباح مساء؛ جعلتني أتأكد أن تلك الفتاة التي لا أدري من أي كوكب هبطت لم أرَها قبل الآن، رغم إدراكي أني لا أعلم سائر الفتيات اللواتي يعملن هنا ولكن الأمر يسير، فأن تعتاد رؤية الأزهار الاصطناعية ثم ترى على بُعد خطواتٍ منك زهرة حيّة حقيقية إن لم تكتشفها بنفسك سيشي بها عطرها لتتبعه دون أن تشعر، لتجد نفسك أمامها تُمعن النظر فيها وتسألها بثبات بستاني خبير "هل أستطيع أن أخدمك يا أنسة؟"

ღ ღ ღ

سارة

سارة فتاة في العشرين من العُمر، مزيج لا ينفصل من الطفولة والأنوثة، عينان خضراوان واسعتان تحيط بهما أهدابٌ كثيفة نسبيًا، ليس تأثيرهما في لونهما المميز بقدر لغتهما الخاصة، فعيناها وهاجة ببريق صاخب لافت للنظر عندما تتأمل أو تغضب، وربما عندما تغلبها عواطفها .

الجميع يلقبها بالطفلة المجنونة أو العاقلة الباردة، ورغم التناقض الذي لا يفهمه ولا يتقبله سوى القليل إلا أن تطرفها لا يزيدها إلا تميزًا وتفردًا، بشعرها البني القاتم وجسدها الذي رغم نحوله إلا أنه ملائم تمامًا لطولها .

كانت أشبه بالدمية أو العرائس الخاصة بالأطفال، فراشة عند انطلاق ضحكاتها عاليًا وسرعة تنقلها من مكان لآخر، وعصفور لنحولها ووداعتها وانكماشها في لحظات الغضبٍ والخوف، وربما الحب، وهِرة صغيرة بأظافر متحفزة للخدش برفقة عيناها الشرستان أحيانًا عندما يلزم الأمر؛ فكل شيء فيها يختبئ بداخلها عكسه، فمن يدري أن تلك الشفاه الناعمة المكتنزة الملائمة تمامًا لوجهها تحوي لسانًا مدمرًا يفتك بمن أرادت!

هكذا هي سارة؛ الطفلة الأنثى التي تدرك جيدًا أن جمالها وإن لم يكن مبهرًا فهو هادئ ومميز، فبطبيعتها تنفر من كل ما هو صاخب وملفت بالقوة لما حوله، فسر ثقتها بنفسها أنها تعلم أن شخصيتها بكل ما تحويه من صفات قلما توجد كافية للإبهار؛ لأنها مؤمنة أن الروح لا تفنى وجمالها لا يزول، وقد خلقها الله هكذا لم يبخل عليها بجمال الخُلق أو الخِلقة، ولكنها مهما فعلت يظل عقلها اللامع المسيطر ينظر بعمق ويحلل كافة الأمور ولا يهدأ .

ღ ღ ღ

هاتفها يدق بداخل حقيبتها الصغيرة التي تعلو كتفها النحيل، ولم تستطع الرد فيداها عالقتان بين كومة الأكياس التي تحملها إلى المنزل، تضرب باب منزلها بإحدى أقدامها الصغيرة.

الأم: تأخرتِ!

سارة: زحمة السير كالعادة.

سألتها وهي تضع الأكياس أرضًا:

-هل تناولتِ دواءك؟

-أنا بصحة جيدة كما ترين، ولا حاجة لهذا الدواء.

أجابتها سارة بنبرة عالية نسبيًا:

-أووه يا الله! أمي أرجوكِ لا تزيدي تعبي.

بحثت عن دواء أمها وكوب المياه:

-هيا تناوليه الآن.

ضحكت أمها برقة:

-أرى أننا تبادلنا الأدوار.

أجابتها سارة بجزم:

-هذا لأنك لا تطيعين الطبيب في أوامره.

قبّلت جبينها وذهبت إلى غرفتها وهي تُحدث أمها قائلة:

-سأبدل ملابسي وأصلي وأحضر الغداء، لا مهرب سوف تأكلين.

قالت الأم بحنق:

-أتمنى أن تتحدثي إلى نفسك بتلك الأوامر!

تبتسم سارة وهي تتذكر تذمر والدتها الدائم من قلة الطعام الذي تتناوله وتخبرها أن طعامها كغذاء العصفور.

هاتفها يدق ثانيةً، لا بل خامسًا، تجيب بصوتٍ مبحوحٍ وتتنحنح قليلاً:

-حبيبتي، كيف حالك؟ اشتقت إليكِ.

تصيح هي على الجانب الآخر:

-اصمتي سارة! لن أصفح عنكِ تلك المرة ولن تؤثر بي عباراتك تلك، إنها المرة السابعة التي أهاتفك فيها ولا تجيبين!

بنبرة معتذرة وهادئة قالت سارة:

-أعتذر عن هذا، لقد نسيت أمر هاتفي عند عودتي إلى المنزل.

أجابتها مريم بضيق:

-لن تتبدلي يومًا!

ضحكت سارة:

-أجل هكذا أنا.

ظهر قلق مريم جليًا وهي تقول:

-حقًا تضحكين! كدت أموت قلقًا عليكِ، هل وجدتِ ما تبحثين عنه أخيرًا أم لا؟

أجابتها سارة بنبرة خافته:

-لا ولكن لن أيأس حتمًا سأجد عملاً ما يناسبني، أثق أن ربي سوف يدبر لي هذا الأمر.

ظهر صوت مريم المتعاطف وهي تجيبها قائلة:

-بالطبع عزيزتي، رغم أني لم أحبذ فكرة عملك ولكن مع إصرارك أدعو لكِ دومًا بالتوفيق.

أجابتها سارة بحماس:

- لا تنخدعي بمظهري الطفولي، أنا فتاة قوية جدًا كما تعلمين.

ضحكت مريم وهي تفكر في روح صديقتها الفتيّة التي تحول بسهولة ويسر أصعب أوقاتها إلى مزاح ولهو طفولي وقالت:

-أجل أعلم! لهذا تركتكِ تنفذين رغبتكِ منذ حصلتي على إجازة نهاية هذا العام، كل الأمور ستصبح بخير يومًا ما.

تنهدت سارة قائلة:

-أجل أعلم، إن شاء الله.

-أنتظر زيارتكِ لي منذ الآن.

-ربما في الغد إن شاء الله.

أنهت سارة حديثها برفقة صديقتها مريم وأرخت جسدها المنهك على سريرها، أغمضت عينيها المرهقتين عساها تلمس بعض الراحة.

ღ ღ ღ

مريم & محمود

أنهت حديثها مع صديقتها سارة التي تصغرها بخمسة أعوام، إلا أنها تراها جبلاً صغيرًا لما تتحمله وتعانيه، وتتعجب من مواجهتها لكل ما تراه في حياتها بمرح، وهي متخففة من أعبائها كفراشة ومتوكلة على الله كعابدة زاهدة.

أفاقت من شرودها على رائحة الطعام الشهي يعلن عن نضوجه، أطفأت شعلة الموقد، تنبهت إلى أن هناك من يفتح باب المنزل فذهبت مهرولة تستقبل زوجها بالأحضان، ضمها إلى صدره بينما يضع حقيبته أرضًا، حدثها هامسًا:

-اشتقت إليكِ.

رفعت وجهها إليه بابتسامة تنير وجهها وطوقت عنقه، نظر إليها بحنان وكأنه على وشك مغازلتها، ثم قال:

-رائحة هذا الطعام الشهي من مطبخنا نحن أليس كذلك؟

نظرت إليه بدهشة ولكزته في صدره بخفة قائلة:

-نعم كذلك، ويبدو أنك لا تطيق صبرًا لتناوله.

خفت نبرة صوتها وهي تحدثه هامسة:

-أحيانًا أتمنى لو تفكر بي وتشتهيني كما تفعل مع الطعام.

جذبها إليه لتقترب أكثر إلى حضنه وحدثها هامسًا:

-بالطبع أفكر فيكِ على الدوام، تارةً لأنك زوجتي الحبيبة...

أرخت رأسها على صدره العريض لتحثه على استمرار مغازلتها قائلة:

-ها ، وتارةً من أجل ماذا أيضاً ؟

-وتارةً لأنكِ أنتِ من يحضر لي الطعام الشهي اللذيذ .

انتفضت من حضنه صارخة بحنق قائلة:

-أيها المخادع! لن تتناول غداءك اليوم، سوف أتركك تموت جوعًا .

ضحك عاليًا وهو يقول:

-أي امرأة بلهاء أنتِ يا حبيبتي! تودين أن أغازلك وأنا بملابس عملي منهك ومتعب وجائع وقدماي تكاد تنهار!

رقت لحاله:

-حسنًا، سأحضر لك الطعام سريعًا .

قبّل وجنتيها :

-أحبك وأنتِ مطيعة .

أجابته بتحفز:

-وأنا مطيعة فقط؟

تنهد وقال:

-لن أجادلك الآن، وهيا حضري الطعام وأفسحي لي الطريق .

ღ ღ ღ

مريم امرأة في الخامسة والعشرين من العمر، طويلة نسبيًا، رشيقة القوام عيناها بنيتان واسعتان، ويزين وجهها شعرها الأسود الحريري القصير الملامس لكتفيها، كانت شبيهة بزوجها

محمود فهو يملك حضورًا قويًا بجسده الرجولي المتناسقٍ وطول قامته وشعره الأسود الكثيف وعيناه العميقة شديدة السواد ذات البريق الخاص، كانا مثالًا متناغمًا.

في عصر اليوم التالي كانت مريم برفقة سارة تحكي لها ما حدث بالأمس وكيف أثار غضبها:

-أترين! هذه عادته، يهملني ويمازحني بطريقة تدفعني لخنقه.

ضحكت سارة بشدة من غضب صديقتها المزعوم، فهي تعلم مدى حبها لمحمود، أجابتها بحنو قائلة:

-حبيبتي هكذا هم الرجال مثيرون للأعصاب، ولكنها طبيعتهم التي نتحملها بحب، ثم في الواقع هو مُحقٌ تلك المرة.

أجابتها مريم بحنق:

-حقًا!

أجابتها سارة:

-أجل! ثم أنتِ تدركين مدى حب محمود لكِ، فقط تخيري الوقت المناسب لما تريدين، ولا تنزعجي بشدة عندما تجدين رد الفعل ليس كما توقعتِ، باختصار تفهمي مزاجيته.

ابتسمت مريم برقة؛ فهي على الدوام تحكي لسارة ما تمر به لأنها تود أن تسمع منها تمامًا ما تسمعه الأن.

-أتعلمين! كثيرًا ما أتعجب كيف لفتاةٍ مثلك رغم بُعدها عن عالم الرجال وما يدور فيه تملكين عقلًا راجحًا ورؤية خاصة في معاملتهم، هذا إذا نحينا جنونك الطفولي جانبًا.

أجابتها سارة ضاحكة:

-الرجال ما هم إلا كائنات نحيا لهم وبهم، لكل كائن كتالوجه الخاص ولكنهم غالبًا تجمعهم صفات مشتركة.

ضحكت مريم عاليًا:

-ألا زلتِ تطلقين عليهم هذا اللقب -كائنات-، أتمنى أن تتزوجي فقط لأرى كيف لرجل أن يتحمل شخصية مثلك تحيا بهذا التطرف.

ظهرت على سارة علامات الدهشة وعقدت ما بين حاجبيها قائلة:

-أنا متطرفة يا مريم؟

-بالطبع! بالله عليكِ كيف لرجل أن يتحمل عقلك المفكر وطفولتك الفوضوية ولسانك المجادل؟ سوف تثيرين جنونه!

أجابتها سارة باسمة متفهمة لمقصدها:

-وهو المطلوب.

ضحكت مريم قائلة:

-ينقصك شيء واحد تعلمين جيدًا ما هو.

نظرت لها سارة محذرة، وبنبرة حازمة قالت:

-لا تبدأي الحديث في هذا الأمر، لن أتغير يا مريم، أبدًا.

تركت سارة مريم وهي مبتهجة وأفضل حالًا من السابق، فبالرغم من أنها لم تُفضي بمكنون روحها إلى صديقتها إلا أنه أحيانًا الانغماس في شؤون الآخرين يحرر عقلك من تفكيره، وتجد لروحك متنفسًا بعيدًا عن همومك الخاصة.

ღ ღ ღ

في المساء كانت مريم جالسة على الأريكة تتابع إحدى البرامج على شاشة التلفاز، ومحمود منهمك يطالع بعض الأخبار على حاسوبه النقال، ومضت في رأس مريم فكرة ما، فحدثت نفسها قائلة:

-كيف لم يخطر لي هذا الأمر من قبل!

نظر لها محمود نظرة خاطفه وقال وهو يعاود النظر لحاسوبه:

-مبارك حبيبتي! هل أصابك الجنون مؤخرًا؟

نظرت له بحنق وقذفته بالوسادة ثم ذهبت وجلست إلى جواره قائلة بجدية:

-اسمعني قليلًا.

نظر لها محمود محولًا انتباهه إليها وقال بجدية:

-ما بكِ؟ أتودين استشارة طبيب نفسي؟

أجابته صارخة:

-محمود! اسمعني بجدية، هل لك أن تتدبر عملًا لسارة في الشركة التي تعمل بها؟

نظر لها محمود بتعجب وقال:

-أتقصدين سارة صديقتك؟ أعني سارة محمد؟

أومأت رأسها بإيجاب، قال بتردد:

-ولكن سارة لا زالت طالبة.

قالت مريم بنبرة يغلفها الاهتمام:

-ولكنها بحاجة لعمل، ثم إنها تبحث منذ أسبوعين تقريبًا.

تفكر محمود قليلًا وقال:

-لا أعلم حقًا يا مريم، أنتِ تعلمين أن سارة بمثابة أختي الصغرى، ولكن أعتقد أنها حاليًا لا تحمل مؤهلات كافية للعمل بمجموعة شركات ضخمة كمجموعة نور الدين.

صمت لبرهة ثم زفر قائلًا:

-اطمئني، بمشيئة الله سوف أتدبر لها أمر هذا العمل.

ابتسمت له بحنان وتلألأت عيناها بوميض الحب، وطبعت قُبلة على وجنته وتركته، ناداها قائلاً:

-إلى أين؟

أجابته بحماس:

-سأحضر لك بعض الحلوى، فزوجي الرائع هذا يستحقها.

أجابها ضاحكاً:

-تكافئينني بالطعام؟ أنتِ من تبدأين ذكر هذا.

أجابته بنبرة حانية:

-أكافئك به لأنك تحبه.

نظر لها مطولاً وقال:

-ولكنه ليس المكافأة التي أُرغبها في تلك اللحظة.

بادلته نظرته وابتسمت قائلة:

-إذن ماذا تريد الآن؟

بادلها بابتسامة ذات مغزً وهو يقترب منها:

-ماذا تقترحين أنتِ؟

قبل أن تجيبه وجدت نفسها بين ذراعيه توسدت صدره، حينها تذكرت مريم حديثها مع سارة وابتسمت وهي ترى محمود يغازلها ويُقبل عليها بشوق، أدركت أن للرجل حسابات أخرى وأوقات خاصة ومزاجية تتحكم به، وما عليها إلا أن تتفهم كي تسعد.

ღ ღ ღ

لقاء بلا موعد

حجرة مكتب واسعة ذات طراز حديث، وأثاث راقٍ يتوسط منضدة المكتب الخشبية، لافته مطلية بلون الذهب منقوش عليها بخط أسود أنيق: المدير التنفيذي –محمود قاسم–.

دلف محمود إلى غرفة مكتبه بعد أن طلب قهوته الصباحية وهو مشغول البال، فهو لا يدري ما العمل الذي يمكن أن يلائم فتاة كسارة في تلك الامبراطورية المُهلكة والمتطلبة. شعوره نحو سارة أنها أخته الصغرى، وتقديره لها حال بينه وبين فكرة أن يقدم اعتذرًا بشكل لائق، كما أن مريم تنتظر من زوجها رجل المهام الصعبة أن يتدبر هذا الأمر؛ لهذا كان أمر عملها محسوم، ولكن ما هو هذا العمل؟

تنهد بقوة ثم هاتف سكرتيرته الخاصة رانيا لتأتي إلى مكتبه، بارك لها على زواجها الحديث بعبارات رسمية ودودة ثم قال:

–اجلسي يا رانيا .

توترت قليلًا وقالت:

–ما الأمر سيد محمود ؟

أجابها باسمًا :

–أرى أن عروس القِسم عادت إلى عملها باكرًا !

تنهدت قائلة:

–ليس بيدي حيلة .

أجابها بجدية:

-أستطيع أن أمنحك إجازة مفتوحة لبعض الوقت إن أردتِ يا رانيا .

ذهلت وخرجت عباراتها بنبرة مرتعشة:

-هل! هل أخطأت بشيء سيد محمود ؟

فاجأه رد فعلها وقال:

-لِمّ تتحدثين هكذا ؟ !

-أخشى أن يكون هذا سببًا لدفعي بترك العمل بشكل لائق .

قال محمود بجواب قاطع:

-بالطبع لا .

صمت قليلًا يفكر فيما يقوله، تحدث قائلًا :

-في الواقع إحدى قريباتي تود أن تتمرن ک سكرتيره، وأنا لا أأتمن أن تعمل تحت رعاية ربّ عمل غريب، ولثقتي في قدرتك وخبرتك في هذا المجال لسنوات أود أن تتعلم منكِ أصول المهنة، ومكافأة لكِ على مساعدتك لها تحصلين على إجازة لبعض الوقت، أعلم جيدًا أن زوجك سوف يُرحب بها بشدة خاصة وأن زواجكم منذ أيام .

صمتت رانيا لتستوعب هذا العرض، وبدل من أن تجيب تساءلت قائلة:

-وعندما أترك المكتب في إجازة من سيقوم بعملي؟

صمت محمود، فأجابت سريعًا :

-هي أليس كذلك؟

تفهم محمود مخاوفها وقال:

-بشكل مؤقت يا رانيا، ومتى ما رغبتِ بالعودة إلى عملك تأتين بدون مقدمات، اطمئني لن أُسيء إليكِ بهذا الشكل .

رأى علامات القلق على وجهها والتردد يلوح في عينيها، فقال بنبرة حازمة:

-رانيا محال أن أنزعك من وظيفتك بتلك الطريقة الجارحة.

اطمأنت ولمست الصدق في حديث مديرها، فهي تدرك دماثة خُلُقه، أجابته بالموافقة، وأخبرها أن سارة سوف تحضر في الغد.

غادرت رانيا مكتب محمود، أخذ نفسًا عميقًا وحمد الله أن وفقه لتدبر هذا الأمر بتلك السهولة، لم يطِق صبرًا حتى يعود للمنزل، هاتف مريم وأخبرها سريعًا بأنه تدبر عمل لسارة في الشركة وتستطيع استلامه من الغد، طلبت مريم منه التفاصيل فأخبرها أنه سوف يخبرها عند العودة، سمع صوت زوجته الحبيبة مفعم بالرضا والسعادة، وأخبرته أنه بطلها الخارق وقبّلته على الهاتف ووعدته بالمزيد وبطعام شهي عند العودة. استرخى على كرسي مكتبه براحة وابتسامة رضا تنير وجهه الأسمر.

ღ ღ ღ

أغلقت مريم الهاتف مع زوجها وفي نفس اللحظة هاتفت سارة بفرحة حقيقية، أخبرتها مريم بما حدَّثها به محمود، انفرجت أسارير سارة وكادت أن تقفز من الفرحة كعادتها وقالت بمرح:

-حقًا يا مريم؟ يا الله اللهم لك الحمد، كم أنا ممنونة لكما، الحمد لله الحمد لله.

ذهبت سارة إلى المطبخ حيث تقف والدتها تقطع بعض الخضراوات، قبَّلت وجنتيها بحب قائلة:

-أمي حبيبتي لقد وجدت عملاً، لا أعلم أي تفاصيل ولكني سعيدة، دعواتك يا أمي.

رغم الغصة التي تسكن روح والدة سارة لما تتحمله ابنتها من عناء إلا أن شعور الرضا والقناعة الذي تغمرها به سارة يجعلها تدعو لها من قلبها أن يرزقها الله السعادة ويكافئها على برها بها. ضمتها بحنان قائلة:

-إن لم أدعُ لكِ فلمن أدعو حبيبتي؟

وقبل أن تنعم سارة بحضن والدتها الدافئ كانت سالي أختها الصغرى تنظر لهم بضيق وقالت:

-طبعًا! فهي حبيبتك وأنا المشاغبة المُهملة، أليس كذلك؟

تركتهم في ذهول وخرجت من المطبخ غاضبة، أجفلت سارة عند سماع كلمات أختها وتركت حضن والدتها الذي لم تسكنه بالأصل وخرجت خلفها تنادي إياها:

-سالي ما بكِ؟

-لا شيء، اتركيني وحدي، لا أود التحدث معكِ أتفهمين؟

مسَّ الحزن قلب سارة وتمتمت بهدوء قائلة:

-حسنًا سالي كما تشائين.

ღ ღ ღ

في صباح اليوم التالي:

" هي إمرأة هزمتني منذ أول لحظات اللقاء

ولكن أنا رجل لا أعترف بالهزائم"

بشير الشمري

ღ ღ ღ

ترجلت سارة من سيارة الأجرة، وقفت على قدميها الصغيرتين أمام المقر الرئيسي لمجموعة شركات نور الدين، ازدادت ضربات قلبها حدّة من الاضطراب وهي تنظر بذهول نسبي لهذا الصرح الخيالي الذي تراه في وسائل الإعلام فقط، شعرت بالرهبة ولكنها دخلت بشجاعة وثبات

بعد اجتياز البوابة الرئيسية وطاقم الأمن، وإخبار موظف الاستقبال أن لديها موعد مع المدير التنفيذي السيد محمود قاسم، وبعد التأكد من سكرتيرته الخاصة رانيا وصف لها الموظف الطريق إلى مكتب محمود في عُجالة وتركها تدبر أمرها.

سارت في ممرات طويلة يكسوها السجاد الفاخر والديكور الذي يدل على الرقي والفخامة، كل شيء حولها كان مبهرًا أشبه بالخيال، وجدت نفسها بداخل مِصعد عملاق خرجت منه شاخصة النظر تتساءل ما الخطوة التالية؟!، شعرت بالتوهة لا تدري أين تذهب أو من تسأل، هل تسير يمينًا أم يسارًا؟ أخذت تدق على هاتف محمود ولا يجيب.

وقفت كالطفلة التائهة تقبض على حقيبتها بقوة وكأنها تستمد منها الثبات، تمتمت بخفوت "يا الله! أين أنت يا محمود؟"، يرمقها البعض بنظرات ريبة والبعض الآخر يبدو عليهم الانشغال التام بعملهم بحركة الذهاب والإياب التي لا تتوقف لحظة، أدركت حينها أن الأمر ليس بتلك السهولة، وأن العمل هنا قائم على قدم وساق بلا هوادة.

أفاقت من شرودها اللحظي على صوت رجولي قوي

–هل أستطيع أن أخدمك يا أنسة؟

أجفلت ورفعت عيناها بتلقائية لتصطدم بعينيه للحظات معدودة مرت ببطء غير مسبوق، وكأن شحناتٍ وذبذباتٍ ما تسير بينهما في خط متصل جاذبة أعين كل منهما للآخر كـ مغناطيس. خفضت نظرها أرضًا بسرعة وتمتمت بتلعثم، وبخت نفسها بقوة كي تخفيه قائلة:

–أجل أنا أبحث عن مكتب السيد محمود قاسم.

رمقها الشخص بنظرات متفحصة بهدوء وتساءل بصمت "محمود! لِمَ قد تأتي فتاة كـ هذه إلى محمود؟"، أشار لها بيده وأجابها:

–سيري إلى نهاية الممر ثم التفتي يسارًا، اجتازي مدخل المدراء التنفيذيين تجديه بالغرفة الرابعة.

تمتمت بخفوت:

-شكرًا .

واختفت سريعًا من أمام نظره قبل أن يجيبها عفوًا، كما ظهر هو من حيث لا تعلم .

ღ ღ ღ

دلفت سارة إلى مكتب محمود فاستقبلها بترحيب ودود، تنهدت قائلةً بهدوء يغلفه العتاب:

-يا الله يا محمود ! كدت أن أفقد أعصابي، المكان هنا يشبه الدوامة .

أجابها محمود بأسف:

-أعتذر سارة، أعلم أنه كان عليَّ استقبالك ولكن حدث اجتماع طارئ .

-لا بأس، ساعدني أحدهم في وصف الطريق لمكتبك بعد ما كنت على وشك العودة إلى المنزل .

أجابها محمود ضاحكًا:

-تعودين! هل يمكن أن تتركي عملك في يومك الأول؟ استريحي قليلًا واحتسي فنجان النسكافيه الصباحي ريثما أهاتف مريم أطمئنها على وصولك، ثم نبدأ بالعمل .

ღ ღ ღ

تعرفت سارة على رانيا التي تكبرها بثمانية أعوام بسهولة ويسر، كانت رانيا ودودة متفهمة رغم اندهاشها بدايةً من صِغر سن سارة، إلا أن سارة طمأنتها أنها تستطيع أن تعتمد عليها كليًا، ووجدت رانيا أنها مُحقة؛ فـ سارة ذكية سريعة التعلم تنصت باهتمام وتتحدث بفصاحة ومرح .

انتهى اليوم الأول وهي مسرورة رغم الإرهاق البادي على محياها، لاحظتها رانيا فقالت:

-يجب أن تعتادي سريعًا، الجميع يعتقد أن العمل بالسكرتارية أمر مُترف، ولكن إذا كان بمجموعة نور الدين فهو شاق.

أجابتها سارة بجدية: شكرًا جزيلًا لكِ رانيا، إن شاء الله سأتدبر أمري، يمكنك الاعتماد عليّ كما أخبرتك لا تقلقي.

ღ ღ ღ

في اليوم التالي

بدأت سارة تتعرف على المكان الذي تعمل به، أخذتها رانيا في ساعة الغداء إلى مطعم الشركة، جلستا وحدهما ثم لحقت بهما إيمان ومها، تعرَّفا على سارة، تحدثت إيمان سكرتيرة زياد أحد المدراء التنفيذيين بالشركة عن سفر آدم نور الدين ومديرها زياد إلى انجلترا لإتمام صفقة العمل التي تم توقيعها الأسبوع الماضي.

شردت مها وتبادلت رانيا وإيمان نظرات خاصة، فكلتاهما يعلم ماذا يعني آدم نور الدين لمها، كانت سارة هي الجديدة بينهن، أصغرهن سنًا وأرجحهن عقلًا، جلست تحتسي النسكافيه بهدوء وتتناول بضع لقيمات بصمت.

استمر عمل سارة لأسبوعين برفقة رانيا، تعلمت منها الكثير ونشأت بينهما صداقة طيّبة، كان محمود مطمئِن هادئ البال، استأذنته رانيا في إجازة لتذهب هي وزوجها في هذه الرحلة المسماة -شهر العسل-، وافق محمود على الفور.

تركت رانيا العمل بشكل مؤقت وانهمكت سارة في العمل كـ سكرتيرة لمحمود، كثيرًا ما تجلس بمكتبها في ساعة الغداء ولا تغادره إلا مساءًا وقت العودة، بدأ يظهر عليها الشحوب والإرهاق ولكنها لم تكن تأبه كعادتها. ورغم قلة ظهورها وسط زملائها في العمل إلا أنها كانت تنال نصيبًا كافيًا من ثرثرتهم حول السكرتيرة الجديدة الصغيرة؛ البعض يعتقد أنها انطوائية وآخرين مغرورة، ولم تهتم بآراء الناس كالعادة فلِتشَعُّب وتعقيد شخصيتها كانت تدرك جيدًا أن كل من يتعامل معها يتصور أنها شخصية من شخصيات عديدة يسكنون روحها دون قصد.

لم تنسَ أن رانيا أخبرتها يومًا قبل تركها العمل أن تنخرط في مجالها الجديد لتكوّن صداقات عديدة، حاولت ولم تطِق؛ فهي تتحمل أي شيء إلا البنات السطحية ذوات العقول الفارغة اللواتي أساس أحاديثهن الرجال أو الغيبة والنميمة والاهتمام بتوافه الأمور وأسخفها، فلِمَ تتكبد عناء رفقتهن في حين أنها تمضي وقت الغداء برفقة كتاب وفنجان من النسكافيه.

♡ ♡ ♡

مرَّ ما يقرب من الشهر على عمل سارة، كانت سعيدة تثبت لنفسها أولًا أنها بحق فتاة المهام الصعبة، فرغم انشغالها كان الجميع عندما يطلبونها أو تشعر هي بحاجتهم إليها يجدونها كما عهدوها مبتسمة، متفائلة، منصتة، ناصحة، كانت تلك الفتاة التي تشعر كل فرد من حولها أنها له وحده، عادت رانيا منذ أسبوع إلى العمل ورأت سارة أن عليها التحدث إلى مريم.

♡ ♡ ♡

بغرفة سارة

تنهدت مريم بمرح:

-امممم رائحة الفطائر رائعة.

أجابتها سارة من داخل المطبخ بمرح:

-ستتذوقين أشهى فطائر محشوة باللحم.

جهزت الأطباق وذهبت لتجلس بجوار مريم، قالت مريم:

-لذيذة امم، أين أنت يا محمود؟

أجابتها سارة ضاحكة:

-خذي حصته عند عودتك.

ثم ارتسمت علامات الضيق الطفولية على وجه سارة وقالت:

-لا لن تأكلي، ها أجيبيني لِمَ عندما هاتفتك أخبرتِني أنكِ عند الطبيبة ولَم تسأليني في الذهاب معك كما هي العادة؟

قالت مريم ضاحكة:

-بالطبع سأقضي على تلك الشطائر وآخذ أيضاً حصة محمود .

ثم تحدثت بجدية:

-أعلم مقدار انشغالك سارة؛ المنزل والعمل، لا تقلقي كنت في زيارة روتينية لطبيبتي النسائية .

أجابتها سارة مطمئنة:

-مريم لا تُحملي الأمر أكبر مما يحتمل، عامان ليس بالكثير حد الهلع .

-وليس بالقليل أيضاً ، ثم نحن قاربنا عامنا الثالث .

-لعلَّه خير حبيبتي، الصبر، هل هناك جديد ؟

-كالعادة؛ لا مشكلة ولا شيء يثير القلق .

تنهدت سارة بارتياح:

-الحمد لله، وإياكِ يا مريم أن تكرري ما فعلتِه، أتفهمين؟

قالت مريم ضاحكة:

-أجل بالطبع .

-مريم أنا سوف أترك العمل .

تجمدت ملامح مريم وقالت بقلق ولهفة:

-لِمَ يا سارة؟ ما الأمر؟

وقبل أن تستمر مريم في سيل تساؤلاتها قاطعتها سارة:

-لقد عادت رانيا إلى العمل وأصبح عملي هامشيًا، من البداية ولم يكن لي مكان في تلك الشركة، لقد تورط محمود بأمر عملي وهذا من شأني وحدي، ممنونة لكما كثيرًا ولكني حقًا لا أستطيع الاستمرار يا مريم.

أجابتها مريم بحنق:

-سارة كفّي عن حساسيتك الزائدة تجاه الأمور.

أجابتها سارة بحزم:

-هذا قرارٌ قاطع يا مريم ولن أتراجع فيه.

ღ ღ ღ

كانت مريم شاردة الذهن غاضبة من حساسية سارة ولكنها تعلم أنها لن تستطيع أن تثنيها عن قرارها، فهي تعلم أن سارة متى ما اتخذت قرارًا حاسمًا لا تتراجع فيه ولو على حساب نفسها، المهم أن كبرياءها لا يُمس.

وصلت منزلها وبدلت ملابسها وانتظرت انتهاء محمود من عمله العالق بين يديه، قالت مريم بتردد:

-محمود كنت بمنزل سارة وأخبرتني بأمرٍ ما.

وقصَّت له ما حدث معها، زفر قائلًا:

-ألن تتبدل سارة يومًا؟

قاطعهما رنين هاتف محمود:

-السلام عليكم، مُحال! وأخيرًا مهاتفةٌ منك بعد أسابيع من الغياب!

يصمت محمود قليلاً ليسمع الطرف الآخر، ثم أجاب قائلً:

-وهاتف أخيك أخبره ليحضر نصف ساعة ونجتمع بمطعمنا المفضل إن شاء الله.

أغلق محمود هاتفه، نظرت له مريم بتساؤل وقالت:

-هل ستخرج الآن؟

أجابها محمود وهو في طريقه لغرفة نومه لاستبدال ملابسه: كوني زوجة متفهمة ولا داعي للتذمر فأنا منذ اسابيع لم أقابل آدم وزياد.

ღ ღ ღ

تقابل الأصدقاء الثلاثة بمرح ولهفة، كانت صداقتهم قوية منذ سنوات رغم تفاوت أعمارهم الطفيف، أكبرهم آدم وأصغرهم زياد. تبادلوا الأحاديث وألقوا النِكات وتعالت ضحكاتهم أثناء تناول طعام العشاء، قاطعهم آدم بجدية وهو يمضغ طعامه:

-بالمناسبة على أحدكم تدبر أمر سكرتيرة قبل بداية الأسبوع المقبل.

حدق به محمود وأراد التأكد فتساءل:

-لِمن؟

أجابه آدم: لي.

أطلق زياد صفيرًا مرحًا وغمز قائلًا:

-لِمَ يا أخي العزيز؟ هل قررت أن تترك حياة الزهد وتعود إلى ساحة المعركة؟

ضحك آدم وأجابه بمرح:

-بالطبع لا أيها الأحمق، كل ما هنالك أن مدام ثريا مديرة مكتبي مُنشغلة الأيام القادمة بتحضير زفاف ابنتها الوحيدة.

قال زياد بسعادة ماكرة:

-ننشر إعلانًا بالصحف.

كان محمود صامتًا، لاحظه آدم فقال:

-ما بك؟

تنهد محمود بعد تفكر قائلًا:

-لسنا بحاجة إلى إعلان في الصحف، سوف أتدبر أمر سكرتيرتك الخاصة آدم.

تساءل آدم بهدوء:

-كيف؟

-رانيا سكرتيرتي تستطيع أن تقوم بخدمات مكتبك لحين عودة مدام ثريا، فرانيا كفء.

تفكر آدم وقال ببطء:

-اممم وأنت كيف سـ تعمل بدون سكرتيرتك الخاصة؟

قال محمود بسرعة ليوقف تفكير آدم:

-لا تقلق سأتدبر أمري.

قال زياد وهو ينظر لكليهما بمرح يكسوه الضيق:

-تبًا لك يا محمود، لقد أضعت عليّ فرصة مقابلة العشرات بل المئات من الفتيات الحسناوات الراغبات في العمل بمجموعة نور الدين.

تمتم بحسرة:

-يا إلهي كم كنت أتوق لرؤيتهن.

ضحك آدم ومحمود، وقال محمود بعتابٍ مرح:

-ألا يكفيك من حولك؟ ألن تتوب أبدًا!

أجابه زياد بحماس:

-بالطبع لا! يكفي أن الساحة خسرت الرائد الأول آدم نور الدين، قد تنتحر الفتيات إن تُبت أنا الآخر.

ღ ღ ღ

عاد محمود إلى المنزل في ساعة متأخرة، وجد مريم نائمة على الأريكة، نظر لها بحنان ومسح على شعرها وهمس بالقرب منها:

-مريم حبيبتي استيقظي.

أجابته بصوت يغلب عليه النعاس:

-محمود وأخيرًا عُدت.

جلس بجوارها على الأريكة وأخذ يدها بين كفيه في احتضان قائلاً:

-تلك هي جلسات الأصدقاء؛ لا نشعر بمرور الوقت فيها.

أجابته بعبوس:

-بالطبع لم أخطر على بالك ولربما نصحتهم بالتخلي عن فكرة الزواج كما تفعل عادةً.

حدق بها محمود قائلًا بتعب:

-مريم أرى أن تُكملي نومك أفضل، هذا جزائي لأني أيقظتك، على أية حال اطمئني لم نتحدث حول الفرق بين الرجل المتزوج والعازب، يوجد أمر أهم أيقظتك من أجله.

نظرت له باهتمام:

-ها أخبرني.

أجابها محمود بضيق طفولي:

-لا لن أُخبرك، لأنكِ تهمينني بأشياء بشعة، إنني غاضب ومنزعج.

نظرت له مريم بمرح وتقدمت نحوه باسمة قائلة:

-أوه حبيبي الرائع لا ينزعج مني، أليس كذلك؟

وطبعت قبلة خاطفة على وجنته وطوقت ذراعه قائلةً:

-والآن أخبرني.

ღ ღ ღ

جلست سارة على مكتبها الصغير في صباح اليوم التالي منتظرة قدوم محمود، وما إن جاء ألقى السلام باسمًا فردته باقتضاب وقالت:

-سيد محمود هل لي ببضع دقائق معك؟

نظر إليها متعجبًا وقال:

-بالطبع سارة تفضلي.

قالت بجزع تحاول إخفائه:

-ما الذي فعلته برانيا محمود؟

قضب محمود جبينه مُفكرًا:

-ماذا فعلت بها؟!

ثم قال بمرح:

-لا يا سارة إنني بريء .

نظرت بتعجب، فأردف بعد لحظات:

-أجل سارة، لا أنا ! أنا لم أقتلها !

حدقت به سارة فاغرة فاهها ثم تداركت الأمر، فهي تدرك شخصية محمود، وقالت بضيق:

-أتمزح؟ محمود كيف جرؤت!

قاطعها قائلًا :

-كيف جرؤتِ أنتِ لتفكري بي على هذا النحو؟ يبدو أنكِ تعرفين أخاكِ جيدًا .

أجابته بهدوء:

-عذرًا محمود ولكن مريم أخبرتني أن أعود للعمل لأن رانيا لم تعد سكرتيرة لديك، أخبرني أرجوك أين رانيا الآن؟

أجابها بهدوء متفهمًا :

-لقد تسلمت منصب سكرتيرة المدير العام، تلك مكافأة وتميز رائع لها سارة، وليس إقصاءً عن وظيفتها .

لم تدقق سارة كثيرًا، كل ما يهمها ألا تكون سبب في ظلم أحد خاصةً وإن كانت رانيا، تنهدت بارتياح فأردف محمود:

-ربما إن ذهبتِ إلى المطعم في ساعة الغداء تجدينها هناك .

أجابت سارة باسمة:

-الحمد لله، لم أتوقع أن يتم تدبر الأمر على هذا النحو، الحمد لله، أعتذر حقًا عن سوء ظني بك أخي العزيز.

أجل فـ محمود بمثابة أخ لسارة قبل أن يكون زوجًا لصديقتها المُقربة، أخٌ لطالما تمنت أن يرزقها الله بمثله يكون عونًا لها ودعمًا في ظل تلك المصاعب التي تواجها وحدها، تؤمن هي أن الرجُل هو الأمان ولهذا ظلت منذ نعومة أظافرها خائفة بدونهم، وعندما تحلت بقوتهم الظاهرية واكتسبت أخلاقهم أصبحت خائفة منهم.

أفاقت على مزاحه وهو يقول:

-عفونا عنكِ، والآن إلى مكتبك، ينتظرك الكثير من العمل.

أجابته بابتهاج:

-لا تقلق نحن في الخدمة على الدوام سيد محمود.

♡ ♡ ♡

مرَّ يومها الأول، عادت من الخارج تحمل معها طعامًا جاهزًا من أحد المطاعم بعد ما هاتفتها أختها الصغرى سالي وأخبرتها بانخفاض ضغط والدتها المفاجئ، عادت مسرعة قلِقة، فتحت باب منزلهم الصغير وجدت سالي أمام التلفاز، وضعت الأكياس أرضًا وقالت:

-سالي أخرجي الطعام من تلك الأكياس وقومي بتجهيزه.

لم تنتظر جوابًا دلفت إلى غرفة والدتها وجدتها ممددة في فِراشها، يبدو عليها الوهن والضعف، وجهها شاحب وجسدها بارد مُتعرق، كانت سارة على وشك البكاء ولكن لا لن تبكي، تلك المواقف تتطلب القوة لا الضعف، قالت هامسة:

-أمي هل أنتِ بخير؟

أجابتها أمها بضعف:

-أجل حبيبتي لا تقلقي.

تركتها سارة لتبدِّل ملابسها بسرعة في غرفتها، بعد دقائق عادت إلى أمها قائلة:

-هيا أمي لتتناولي الطعام.

هتفت بنبرة عالية:

-سالي، سالي.

خرجت إلى الصالة وجدت الأكياس كما هي وهي مستغرقة في اندماجها أمام التلفاز، صرخت بها قائلة:

-سالي ألم أطلب منكِ تحضير الطعام؟

قالت سالي بتأفف:

-حاضر.

تناولت سارة الأكياس من الأرض وهي تنظر إلى أختها بغضب، وجهزت الطعام وتشاركاه بصمت، وأعطت أمها دواءً وتركتها تنام بسلام بعد ما أصرت عليها لرؤية الطبيب في اليوم التالي.

توضأت لصلاة المغرب وقالت بآلية:

-سالي أغلقي هاتفك، لنصلي معًا.

أجابتها ريم بغضب:

-بعدما أنهي حديثي مع صديقتي.

-لم يتبقى سوى القليل، ستفوتك.

قالت سالي بكِبَر:

-ستفوتني أنا، ليس أنتِ!

انتزعت منها سارة الهاتف وأغلقته، فارتفع صياح سالي بغضب وقالت صارخة:

-لا تتدخلي فيما لا يعنيكِ، أنا حُرَّة لقد كبرت بما يكفي لأعلم ما هو الخطأ والصواب.

كانت سارة مُجهدة بما يكفي على وشك السقوط ولكنها لن تسقط، أجابتها بانفعال تحاول كبحه:

-اخفضي صوتك أمك مريضة.

ولكن رغمًا عنها كان صوتها عاليًا بما يكفي ليتناهى إلى مسامع الأم، سمعت سارة أمها تناديها فذهبت مسرعة إليها ثم خرجت من عندها إلى غرفتها بهدوء لتصلي فرضها بعد ما أوصتها أمها ألا تحتك بسالي في تلك الفترة؛ أختها في فترة المراهقة! أيٍ مراهقة! إنها لم تمر بتلك الفترة ولا تعيها، هل عليها أن تتبع أسلوب معين في التعامل مع سالي إذًا؟ ولا تتعامل بعفوية كونها نضجت بما يكفي!

إذًا لنحترس؛ في بيتنا مراهق!

ღ ღ ღ

وجه سارة متعلق بالحاسوب أمامها تقوم بطباعة بعض الرسائل الالكترونية الخاصة بالعمل، لم تشعر بوجود أحدهم أمام طاولة مكتبها إلا عندما تسربت رائحة عطر رجولي إلى أنفها، رفعت عيناها إلى الشخص الواقف أمامها بآلية، نظرت تدقق في ملامحه مليًا وتسأل نفسها بصمت "أين رأيت هذا الشخص من قبل؟"

رأت حينها ابتسامة ترتسم على شفتيه ببطء، وبَّخت نفسها "يا إلهي هل يظنني أنظر إليه وأتأمل فيه؟ تبًا لكِ سارة"

كعادتها توبخ نفسها بقسوة دون أن تُخطئ فقط خشية أن تقترف الخطأ، قالت بنبرة عملية حاولت تغليفها بالقوة:

-هل أستطيع خدمتك أيها السيد؟

ثم أردفت:

-هل لديك موعد مع السيد محمود؟

أخذت تلقي نظرة مهنية على جدول أعمال محمود لهذا اليوم كي تنشغل بعيدًا عن نظراته المتفحصة، ثم أجاب بهدوء:

-ألم تتذكريني بعد؟!

همست بذهول:

-ماذا؟!

أجابها ولم تفارق عيناه وجهها المتعجب بمظهره الطفولي:

-أعتقد أن لقاءنا لم يمر عليه وقت طويل.

تذكرته، يا الله! إنه هو أجل من صادفته أول يوم تخطو قدماها تلك الشركة، هو من دلها على مكتب محمود، ولكن إنه موقف عابر لا يعطيه الحق أن يتحدث بتلك الطريقة.

ربما لم تدرك سارة حينها بنظرتها الطفولية للحياة أن بعض المواقف التي نظنها بإدراكنا الإنساني عابرة تكون في واقع الأمر تدبيرًا إلاهيًا يحمل معانٍ خفيّة قد تترتب على إثرها حياتنا فيما بعد، ليظل هذا الموقف العابر هو الشرارة التي انبثق من باطنها البركان وقلبت حياتنا رأسًا على عقب.

أجابت باقتضاب: أجل، والآن ماذا تريد؟!

جلس ببرود على مقاعد الانتظار بغرفة مكتبها، فكرت بصمت "يبدو أنه شخص مثير للأعصاب، العون يا الله"

عندما لم يجِب حدثته بجدّة: أيها السيد ألم تسمعني؟

أجاب بهدوء: منذ متى وأنتِ تعملين هنا؟ ثم أردف بعد صمت: "سارة".

هل نطق اسمها بلهجة مختلفة؟! ربما، تعجبت من جرأته، لا بل وقاحته وأجابته بانفعال لم تقوَ على إخفائه: بأي حق تتساءل؟ يا الله!

أجابها بصوته الرخيم الهادئ: اهدئي أعلم أن محمود ليس بمكتبه لهذا لن تستنجدي به، ثم أردف سريعًا: ألا تعلمين حقًا من أكون سارة؟

فكرت سارة بالشخص المغرور المثير للأعصاب، من يخال نفسه! أجابت منهية النقاش بجزم: لا، ولا أريد أن أعلم من تكون، والآن.. أشارت بيدها نحو باب مكتبها المفتوح وقالت بغضب: تفضل خارج المكتب في الحال.

ضحك ضحكة خافتة وقال بثقة: أتطردينني؟ همهم: امممم ماذا إن عاقبك محمود على ذلك؟

أجابته بثقة مماثلة: لن يفعل فور ما أخبره بأسلوبك.

أجابها بهدوء بعدما غادر مقعده وهو يتقدم بخطوات ثابتة نحوها وهي منكمشة خلف مكتبها، أردف بنبرة أقرب للهمس: هل أثرت ضيقكِ سارة؟

أجابته بعصبية: لا تنادِني باسمي، أتفهم؟

دلف محمود إلى المكتب ثم توقف وعلامات التعجب تحتل وجهه، ثم هتف قائلًا: آدم ماذا تفعل هنا؟!

التفت آدم إليه وترك وجهه يفارق وجه سارة المشتعل بلهيب الغضب والخجل في آن واحد، وحرر عيناه من عِناق نظرتها الحادة المميزة، أجابه بهدوء: لا شيء محمود، كنت أرى كيف تدبر أمرك بدون رانيا.

ثم أردف: ألن تُخبر الآنسة من أكون؟

أجاب محمود بهدوء: إنه آدم نور الدين، سارة.

لم يبدُ على سارة أنها فهمت ما يرمي إليه فأجابت ببطء: ليكُن!

نظر لها آدم وقال بسخط مفتعل: يا إلهي! أهذا غرور أم ثقة بدعم محمود؟ أم أنكِ لا تدركين في الأصل من أكون؟

توترت ملامح سارة "يا الله ما هذا الموقف، من هذا الشخص، لِمَ محمود صامت؟" دار كل هذا برأسها ليقطع محمود تفكيرها قائلًا: اهدأ آدم الأمر أبسط، فقط هي لا تعلم.

ثم حول محمود بصره إلى سارة وقال: إنه آدم نور الدين، سارة؛ المدير العام لمجموعة شركات نور الدين التي نعمل بها الآن.

بهتت ملامح سارة، شعرت للحظة أنها لم تستوعب بعد، وكأن أحدهم قبض على روحها بين يديه وأخذ يسحبها من صدرها، قدماها على وشك الانهيار، أجاب آدم برفق ف ملامح سارة كفيلة ليدرك ما تعانيه بداخلها ولكن هذا لم يمنع تعليقه الساخر اللاذع: لا أدري كيف تعملين بمكان لا تعلمين من هو مديره!

خفضت نظرها أرضاً عندما واجهها بنظراته الثاقبة، زفر قائلًا: أنتظرك بمكتبي محمود فور انتهائك من عملك.

غادر المكتب مُسرعًا، لم يترك خلفه سوى بقايا أثر نظراته الحادة وعِطره المميز.

ღ ღ ღ

آدم نور الدين

شاب في أواخر العشرينات، رُغم صِغر سنه إلا أنه المدير العام لمجموعة شركات نور الدين! جسد رجولي متناسق، شعر حريري أسود كثيف، ملامح رجولية رغم وسامتها إلا أنها شِبه منحوتة لوجه صلب، ربما للوهلة الأولى وهو صامت دون حراك تظنه وجه تمثال أو قناع ليس وجه بشري حقيقي، عينان زرقاوان هذا الأزرق القاتم الذي تود التعمُّق فيه كـ بحر يجذبك دون إرادة.

بحر لا تدري وأنت تتلكأ على شاطئه كم هي عميقة مياهه وعنيفة أمواجه، بجانب تلك الصرامة التي تتميز بها كافة حركاته وإيماءاته لتزيد من طغيان رجولته، يعلم جيدًا متى يكون خطيرًا ومتى يكون ساحرًا! وهل هناك أكثر ذكاءً من رجل يدرك ما هي مواطن قوته ويتفنن في إظهارها وابتكار ما هو جديد ليظل على الدوام وأينما حلَّ مُحاطٌ بتلك الهالة التي تجعل آدم نور الدين الرجل المنشود كامل الأوصاف!

يجلس خلف مكتبه الضخم يملأ تمامًا هذا الكرسي الجلدي الوثير، تحيط به جدران ذات طابع كلاسيكي يميزها الرُقي، ويحمل الأثاث لمسة من الغموض، غرفته أشبه بجناح فندقي فاخر خاصةً وهي تتميز بتلك الأريكة الضخمة الوثيرة بنية اللون، التي وكأنها صممت للنوم لا الجلوس.

كان مسترخٍ تمامًا مغمض العينين؛ فهو في تلك الدقائق التي يختلسها يوميًا ليرتاح جسده وتنحل عقدة جبينه وتتبدد توتر ملامحه ليصبح بعد تلك الغفوة الصغيرة أكثر نشاطًا وتركيزًا وصرامة!

طرق محمود الباب ودلف إلى الداخل، جلس أمام مكتبه وناداه بنبرة عملية قائلًا: ها أنا قد أتيت.

تململ آدم في جلسته ثم ظهر على ملامحه علامات الاهتمام وقال: لِمَ لَمْ تُخبرني بأمرها محمود؟

أجابه محمود: من؟!

قال آدم بهدوئه المعهود: سكرتيرتك الصغيرة، سارة.

قال محمود بعد لحظاتٍ من الصمت بنبرة جدية: ولِمَ أُخبرك آدم؟ كالعادة تعيين سكرتيرة لي أمر يخصني وحدي.

أجابه آدم بنبرة حازمة وقال ببطء: امم مُحق، لهذا أمر سكرتيرتي يخصني وحدي أيضًا، على أية حال رانيا سكرتيرتك بالأصل لهذا سارة سوف تشغل المكتب القابع خارج مكتبي منذ الغد.

ذُهل محمود وقال: لِمَ آدم؟ رانيا أكثر خبرة وكفاءة من سارة!

أجاب آدم بهدوء قائلًا: ولِمَ لا؟

يدرك محمود جيدًا تركيبة صديقه ويعلم أن قراره هذا يخفي وراءه أسبابه الخاصة التي لن يبوحِ بها لأحد، لهذا حدّثه بصراحة ووضوح فهو يدرك أن التلاعب بالكلمات معه لن يجدي شيئًا، فهي بالأصل حِرفته.

فقال موضحًا بحذر: ابتعد عن سارة آدم، إنها، إنها طفلة ليست من النوع الذي يستهويك، فهي لا تفقه شيئًا في غواية وإرضاء الرجال أمثالك.

تعالت ضحكات آدم وأجابه بمرح من بين ضحكاته التي تعجب محمود لها: قد يكون هذا هو السبب!

على أية حال لا تخشى عليها هكذا مني، لن ألتهمها كوجبة خفيفة للتحلية بعد غذائي ذات يوم.

أجابه محمود بصرامة وقد احتدت نبرة صوته: آدم أنا أتحدث بجدية.

نظر له آدم بجزم قائلًا: أنا ايضًا يا محمود أتحدث بجدية ولا داعٍ للجدال معك، في نهاية الأمر القرار قراري، أم أراك نسيت؟

زفر محمود بقوة قائلًا: أجل، ولكن بحكم الصداقة آدم سارة بمثابة أختي.

أجابه أدم بهدوء: ممتاز، وهل تكره لأختك أن تعمل سكرتيرة لدي؟

أجابه محمود بتلميح صريح: يبدو أنك لم تُتب كما توقع الجميع في الأعوام الماضية، ولكن إذا أدرت أن تستكمل مسيرة تحطيم قلوب العذارى فلن تكون سارة بدايتك الجديدة أبدًا.

أنهى محمود كلامه بجدية وسخرية معًا، وكأنه أنهى النقاش، ليجيبه آدم بعد لحظات من الصمت بهدوء: هل تخشى عليها مني إلى هذا الحدّ؟

أجابه محمود بثقةٍ: لا، سارة رغم صغر سنها وبراءتها التي قد تصل للسذاجة إلا أنها راجحة العقل دمثة الخُلق، لن تنضم لقائمة نسائك التاريخية الحافلة.

تمتم آدم: أليس وصفك لها على هذا النحو مثير لي بعد سنوات من الزهد والتقشف!

ثم لمعت عيناه وابتسم بمكر: ثم لِمَ القلق إذاً؟ أنا لن أغويها اطمئن.

كسى وجهه بملامح الجدية في ثوانٍ وقال: إنه العمل، العمل فقط محمود ولا شأن لي بها.

ثم أردف: وإن وقعت وحدها وأتت لي بقلبها . . . .

قاطعه محمود بجزم: لن يحدث، فقط دعها أنت وشأنها.

أجابه آدم منهيًا الحديث: من يدري محمود! قد لا أذهب إليها ولا تأتِ إليّ، ربما يجمعنا القدر معًا ذات يوم.

ღ ღ ღ

عاد محمود قَلِقًا مُفكرًا لا يعلم ما هي نوايا آدم، أراد أن يخدم سارة ويؤمّن لَها عملًا، لا أن يكون سببًا في نشر فوضى آدم بحياتها الهادئة.

دلف إلى غُرفة النوم الواسعة بأثاثها الراقي ولونها الوردي المريح، استرخى على السرير بتعب وهو يزفر ويستغفر، دلفت مريم بعده بلحظات قائلة: محمود هيا! أغلقت الهاتف لتوي مع دلال غاضبة من تأخُرنا.

فتح عيناه بثقل وظهر على وجهه علامات الضيق بجانب الإرهاق وقال: ما كان يجب عليَّ التأخر هكذا بالعمل، هذا بجانب شعوري بالنُعاس.

جلست مريم بجواره وعانقت أناملها بأنامله وقالت بحنو: ما بال حبيبي المُنشغِل.

نظر لها صامتًا ف تلمست وجنتيه برفق وقالت بقلق: حبيبي ما بك؟ لِمَ كل هذا الانزعاج؟

أجابها بتعب: آدم قرر أن تعمل سارة لديه، لقد خشيت هذا منذ البداية.

نظرت له مريم بحيرة تحاول أن تفهم وقالت: لِمَ؟ ما المشكلة؟! أليس منذ أعوام تعمل لديه مدام ثريا على ما أذكُر؟

أجابها محمود وهو يومئ برأسه موافقًا: أجل، ولكنه بحاجة لبديلة لها لانشغالها في زفاف ابنتها، الأمر مؤقت لهذا أتعجب من تصرفه، لقد رفض عمل رانيا ك سكرتيرة له بجوابٍ قاطع، يقلقني إصراره على سارة.

لم يكن محمود يود أن يتحدث عن ماضي صديقه حتى وإن كان أمام زوجته، فبالنهاية آدم قد تبدل وتغير كثيرًا في الأعوام الماضية!

ولكن تلميحات محمود كانت كافية لتفهم مريم دون تصريح أنِ هناك خطرٌ ما يحوم حول سارة إن عملت لدى آدم. ولكن عند اشتعال النيران أمام الفراش هل يوجد بديل سوى الاقتراب؟!

قالت مريم: هل أخبرت سارة؟

أجابها محمود: لا.

قالت: هَوّن عليك حبيبي، ثم سارة ليست ضعيفة كما تتصور، هيا بدل ملابسك كي لا نتأخر ولنكمل َحديثنا بالسيارة.

تنهد محمود قائلًا: أجل ولكنها مسؤوليتي منذ دخولها تلك الشركة، لن أسامح نفسي إن. . . . وبتر كلماته.

قالت مريم: إن ماذا محمود؟

أجاب بشرود: لا شيء، ثم أردف بجدية: لن أستطيع التحرك قبل قدحٍ من القهوة

قالت مريم: سأعده حالاً .

أومأ بالنفي ونهض واقفاً وقال: لا داعي، سأحضرها أنا بينما أنتِ تبدلين ملابسك.

هزت رأسها بإيجابية وخرج محمود متجهًا للمطبخ، ابتسمت مريم وهي ترى محمود رغم إرهاقه إلا أنه لطالما كان متعاونا، كانت مساعدة محمود المنزلية لمريم من وقت لآخر أمر بديهي ومنطقيٍ تجعلها تشعر تجاهه بالامتنانِ الدائم، وهو يشعر بالراحة لسعادتها وراحتها وابتسامة ثغرها المُشرقة، بجانب إضفاء روح المُشاركة والألفة بينهما من حين لآخر وسط ضغوط عمل محمود وانشغاله الدائم.

تتذكر عندما أخبرها ذات ليلة حين أصر عليها ألا تغادر الفِراش لأنها تعاني من الأنفلونزا وهو سوف يقوم بتحضر طعام العشاء وجلي الصحون، وحينما تعجبت وقالت: لا يا محمود، كيف؟!

نظر لها مبتسمًا وقال: من أكون أنا بجوار سيد الخَلق أجمعين! هل نسيتِ قول السيدة عائشة عندما سُئلت ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته فقالت رضي الله عنها: "كان يكون في مهنة أهله تعني -خدمة أهله-، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة" .

تبسمت مريم حينها ونظرت له بحنان وقالت: أجل أعلم.

قال لها وهو يشاكسها: لا لا أنتِ لا تعلمين شيئًا لا تحاولي.

قالت بجدية: لا بل أعلم، وأتذكر رواية ثانية تصديقًا لحديثك أن السيدة عائشة قالت إن رسول الله. . .

تمتم: عليه الصلاة السلام.

قالت ك طفلة تُثبت تفوقها في نظر مُعلمها الذي ينظر لها بإنصات وابتسام: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"، ثم زفرت بارتياح وبعينيها بريق نصر.

زادت ابتساماته وضمها إليه قائلًا: أعلم أنكِ تعلمين ولكني أردت أن تتذكري بنفسك وتقصي على مسامعي ما ذكرتيه منذ لحظات.

رفعت وجهها المختبئ في صدره وقالت: الحمد لله أني رُزِقت بزوجٍ قدوته رسول الله في أبسط شؤونه مثلك، أنت طريقي للجنة، أحبك يا محمود.

دلف محمود إلى الغرفة وهو يهتف قائلًا: مريم هل انتهيتِ؟

أفاقت من شرودها قائلة: يا الله! محمود، تنحنحت: دقائق وأكون مستعدة.

نظر لها بدهشة: وماذا كنتِ تفعلين؟!

قالت بتلقائية: كنت أفكر بك.

نظر لها بعد فهم: كيف؟

قالت ببهجة: كنت أتذكر مواقف لنا معًا وكم أن زوجي رائع.

تبسم من قولها وقال: أجل أعلم، وماذا أيضًا.

نظرت له بجدية ثم اقتربت منه ودفعته للخارج قائلةً بغضبٍ مَرِح: ما دمتَ تعلم لن أقول كلمة أخرى، هيا أخرج لقد تأخرنا كثيرًا.

أطل برأسه من الباب قبل غلقه: مجنونة.

أجابته بحنق: سأريك ما هو الجنون عند عودتنا محمود.

تبادل كلاهما بعض الأحاديث وزال التوتر عن محمود وهو في طريقه إلى منزل دلال أخته لتوديعها قبل سفرها إلى زوجها بدولةٍ أخرى تبعد عنهم آلاف الأميال.

ღ ღ ღ

ذهبت سارة في اليوم التالي إلى عملها وهي لا تعلم بما حدث بين آدم ومحمود بالأمس، ولكن بالها كان منشغل بتدهور صحة والدتها في الفترة الأخيرة بشكل غير مسبوق من قلة شهية وضعف التنفس، وتدعو الله سِرًا أن يطمئنها الطبيب في المساء بعد ظهور نتائج التحاليل الخاصة بها.

قطع عليها تفكيرها ظهور رانيا أمام مكتبها تحدثها باقتضاب قائلة: تهانينا سارة.

نهضت سارة من على كرسي مكتبها ومدت يدها تصافح رانيا وعلى وجهها علامات عدم الفهم، صافحتها رانيا ببرود غير معهود منها ثم تساءلت سارة: تهنئينني على ماذا رانيا؟

أجابت رانيا بفتور: على منصبك الجديد، ولكني أعتقد أنه من حقي توضيح أليس كذلك؟! أي لعبة تلك التي تحدث منذ وصولك؟ فتاةٌ لم تُكمل دراستها ولا تحمل أي مؤهلات للعمل في شركة كتلك، في أقل من شهرين تصبح سكرتيرة للمدير العام هكذا بكل بساطة! كيف سارة أجيبيني؟

نظرت لها سارة بدهشة من حديثها ومن نبرتها الغاضبة السريعة، تفكرت بصمت "أي مديرٍ عام تتحدث عنه رانيا؟ هل تمت ترقية محمود؟!" حاولت أن تجمع برأسها أي خيوط للأمر ولكنها لم تفلح، فتوقفت عند كلمة رانيا الأخيرة وقالت بتساؤل حقيقي ممزوج بالحيرة: عن أي مدير تتحدثين رانيا؟

تجاهلت رانيا سؤالها وكأنه إنكار مبطن منها فزادت في حدتها قائلة: في الأصل لم يكن لكِ مكانٌ بتلك الشركة، هل واسطة محمود كبيرة إلى هذا الحد؟

ثم تمتمت بغضب ممزوج بالحسرة: لم ينتهِ زملائي من تهنأتي ليتم إقصائي في يوم.

وبينما هي مستمرة في سيل كلماتها المحمومة بالغضب دلف آدم نور الدين إلى المكتب، وبالطبع تناهى إلى مسامعه صوت رانيا الغاضب وصمت سارة المنكمشة خلف مكتبها وكأنها طفلة يتم توبيخها على خطأ لم تقترفه ولا تدري ما هو! فور ظهوره في مجال رؤيتهما عمَّ الصمت والهدوء وأصيبت رانيا بالخرس المفاجئ.

قال هو بنبرةٍ صارمة: مكانك الأصلي كـ سكرتيره لمحمود استعدِته، لِمَ كل هذا الصخب؟

صمتت فقال بجزم: أجيبيني!

قالت بنبرة خافتة: لأني فقط لا أفهم ما الذي يميز سارة عن سائر السكرتيرات العاملات هنا لتصل إلى أعلى المناصب دون جهد .

قاطعها بسخرية وتمتم: أووه إنها الغيرة إذاً، عجبًا ! اعتقدت أنكما صديقتان.

خفضت رانيا نظرها خجلًا فقال: أنا هنا الآمِر الناهي، ما دام لم يصِبك الضرر عليكِ التحكم بما يعتمل داخلك من غيرة أو تعجب، اتخاذ سارة للعمل معي واعتبارها استثناء أمر يخصني وحدي.

صمتت واعتذرت بخفوتٍ وتركت المكتب، بينما سارة شحب وجهها فجأة وزاغ نظرها وأغلقت فمها بسرعة وهي على وشك أن تفرغ فاهها من الدهشة، أي هذيانٍ هذا؟! أهي قطعة أثاث لا يجدون لها مكانًا فيقومون بتبديلها كل فترة!

أرادت الاعتراض وقبل أن ينطق لسانها جف حلقها وهو يقترب من مكتبها قائلًا بجزم وكأنه أخيرًا تذكر وجودها: وأنتِ اجمعي أغراضك واتبعيني.

عند هذا الحد لم تعد تتحمل، ماذا قال؟! "اجمعي أغراضك واتبعيني"!! قلة ذوق وغطرسة.

قالت بثقة: لن أترك مكتبي حتى استأذن محمود.

نظر لها بدهشةٍ حانقة، ثم ارتسمت على فمه ابتسامة جانبية ساخرة وقال: عندما آمرك أنا لا محمود ولا أي شخص في تلك الشركة يحق له الاعتراض، هذا أول شيء عليكِ أن تتذكريه دائمًا.

ثم قال بلا مبالاة: لا بأس أخبريه، سيجيبك بأنني مديرك الجديد، ولا مجال لنقاش الأمر مع أي أحد.

وانصرف مسرعًا قبل أن تفيق من صدمتها وتبدي أي اعتراض.

بعد مغادرة آدم لمكتبها هاتفت سارة محمود ربما دلها ماذا تفعل أو شرح لها ما الذي يحدث.

سارة: السلام عليكم محمود أين أنت الآن؟

محمود: عليكم السلام سارة أنا في طريق عودتي من المطار إلى الشركة، ألم أخبرك بأمر سفر دلال صباحًا؟

تمتمت سارة بخجل: آه عذرًا محمود نسيت.

تساءل محمود بقلق: هل من جديد سارة؟

أجابت: أجل هذا الذي يُدعى آدم كائن غريب...

وقصت على مسامعه ما حدث منذ لحظات، لم يقل شيئًا سوى أنه على وصول في غضون دقائق.

فور وصول محمود إلى الشركة دلف إلى مكتب آدم وسأله باهتمام: لمَ تعجلت آدم؟ لمَ لمْ تترك لي فرصة إخبارها؟

رفع آدم نظره من بين أوراقه ورمق محمود بجدية وقال: الأمر لا يستحق كل هذا العناء والقيل والقال، أعتقد أن عملنا أهم بكثير، لا أرحب بالمماطلة والتسويف محمود، ولا أملك الكثير من الوقت لمناقشة هذا الهراء كل ليلة، انتهى الأمر!

أخبر محمود سارة بأنها منذ الآن سكرتيرة لآدم، عبَّرت عن رفضها وقلقها فقال ليطمئنها: الأمر ليس سيئًا لهذه الدرجة سارة بل فرصة جديده لإثبات ذاتك بدون مساعدة أحد، ومع شخص لا يمثل لكِ شيئًا سوى العمل دون أن تشعري أني أدللك لأنكِ أختي.

وحاول أن يبتسم مشجعًا إياها، كانت شاردة ولم تجب فقال: منذ اليوم سأبحث لكِ عن عمل بمكان آخر، ليكن هنا العمل بصفة مؤقتة، ثم العمل بمجموعة شركات نور الدين أمر سيزيد من أسهمكِ عند تقديمك للعمل في أي شركة للنظر للأمور بعقلانية سارة، وأنا واثق أنكِ عاقلة بما يكفي لاتخاذ قرارك، ثم إنني هنا معك متى ما احتجتِني لن أتأخر وأنتِ تعملين.

أومأت بالموافقة وابتسمت بضعف وقالت بهدوء: لعله خير محمود، لا بأس الله المستعان.

ღ ღ ღ

ذهبت سارة على غير عادتها إلى مطعم الشركة في استراحة الغداء لترى رانيا وتوضح موقفها، جلست على الطاولة التي تجمع رانيا وإيمان ومها، لم تشرع في تناول طعامها بل قالت: رانيا أود التحدث معكِ قليلا.

وقبل أن تجيب رانيا بالقبول أو الرفض أتى نادل المطعم ليخبرها أن السيد آدم نور الدين يطلبها بمكتبه، تبادلت الفتيات الجالسات نظراتٍ من الدهشة والغضب والاستنكار، أجابت بخفوت: حسنًا.

تناولت كوب المياه البارد وأخذت منه بضع رشفات وهي تحت أنظارهم المتفحصة، بللت جفاف حلقها وروت روحها المُنهكة بالمياه عساها تخفف من حرارة النيران التي تنتظرها، وذهبت إلى مكتبه بصمت.

ღ ღ ღ

طرقت باب مكتبه عدة مرات بخفة ولم يأذن لها أحد بالدخول، فاستدارت تغادر المكتب ولكنها خشيت أن يُرسل في طلبها مرة أخرى، فعاودت تطرق الباب الضخم مرة أخرى ثم فتحته ببطء وأطلت برأسها من خلف فتحة الباب الصغيرة، كعادتها منذ كانت طفلة عندما تخجل وتود إلقاء نظرة استكشافية قبل الظهور في أي اجتماع عائلي أو تواجد ضيوف، وجدته مستلقٍ على أريكة بنية اللون باسترخاء، سترته ملقاة بإهمال، مغمض العينين.

فكرت بصمتٍ وحنق: ما هذا هل هو نائم؟ وما دام ينوي النوم لِمَ أرسل في طلبي، تنهدت وشرعت في إغلاق الباب بهدوء مع قرارها بالمغادرة عندما أنهى هو غفوته وكأن روحه استشعرت قربها، صوَّب وجهه تجاه الباب وفتح عينيه الزرقاوان ببطء وقال بنبرةٍ خافتة يغلب عليها النُعاس: أدخلي.

دلفت سارة في ثبات ظاهري واعتدل هو في جلسته على الأريكة ولكنه احتفظ باسترخائه، وقفت في منتصف غرفة المكتب الواسعة كالطفلة التائهة في مكانٍ لا تعرف له مخرج، رغم تواجد الباب مفتوحًا على بُعد أمتار قليلة منها.

تنبهت على صوته الرخيم يقول: اجلسي سارة، يجب أن تشعري بالراحة لِأستطيع التحدث بحرية.

جلست على أحد الكراسي الثابتة أمام مكتبه بتوتر حاولت إخفاءه، لم تكن مسترخيةً فجلستها كانت وكأن تحت كرسيها موقد مشتعل، قال بهدوء: لا تخافي.

أجابت بثقة استمدتها من لحظات الصمت التي منحها لها قبل حديثه مرة أخرى، وقالت: لستُ خائفة.

نظر لها وكأنه لا يصدق، ثم أردف بهدوء: هذا مؤشر جيد فأنا لا أحب أن تعمل سكرتيرة لديَّ وهي تحمل تجاهي كل هذا الاضطراب والتوتر، ثم أردف بعد لحظة صمت: أو ربما العداء، وكأني وحشٌ مفترس على مشارف التهامها.

أغضبها حديثه، ورغم ذهولها أجابت بسرعة: لِمَ أرسلت في طلبي سيد آدم؟

ضحك بجفوت لتجاهلها وتغيير مسار الحديث وقال: يجب أن تعتادي أنسة سارة، فأنتِ منذ الأن سكرتيرتي الخاصة.

أجابته بثقة وهيٍ لا تنظر إليه كعادتها وقالت: أجل ولكني أيضًا أمتلك بعض الخصوصية، هذه ساعة غدائي إذًا هذا الوقت ملكٌ لي وليس للعمل.

نظر لها بتفحص وومضت عيناه ببريق وارتسمت ابتسامة صغيرة على شفاهه، سألها بنبرة هادئة وكأنه يبدو عليه الاستمتاع وقال: وماذا أيضًا؟

فكرت بصمت أنه لم يغضب! لم يوبخها! لم يخبرها أنه مديرها! إنه هادئٌ تمامًا! قالت بجفوت: لا شيء.

قال بسرعة: هل تجادلين عادةً أم أن اليوم استثناءٌ خاص؟

آثرت الصمت فأجاب بنبرةٍ هادئة ساخرة: لم أقصد أبدًا يا سكرتيرتي الصغيرة أن أنتهك خصوصيتك وأقتطع جزءًا من وقتك الثمين.

يا الله! الأمر هكذا لا يُحتمل، كيف ستعمل معه وتتناقش معه يوميًا؟ لم تركتَني محمود!

قطع عليها تفكيرها وقد استعاد جديته وقناعه الصخري وقال: هل وقعتِ أي عقد عمل منذ أحضركِ محمود إلى الشركة؟

قضبت جبينها وكأنها طفلة لا تفهم حديثه وقالت: ماذا؟ لا لم أوقع أي عقد عمل.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على فمه وقال: وهل هذا يسمى عملًا؟

اتجه إلى مكتبه وأخرج وثيقة عقد عمل سنوية وكأنه كان يعلم وقام بتجهيزها مُسبقًا، وقال: وقعي سارة.

أجابته بعدم فهم: ماذا؟

أجابها بنفاذ صبر: وقعي عقد عملك، ما الغريب في الأمر؟!

فقالت بتلقائية: ألست أعمل هنا بشكل مؤقت؟

لم يُجب وجلس ببطء على كرسيه وقال: هل هذا ما أخبرك به محمود؟

تمتم بغضب مكتوم: لا أفهم! أمنحك عملًا يضمن لكِ كافة حقوقك كموظفه رسمية بالشركة فترفضيه!

أجابته مقاطعةً إياه: أنا لم أرفض سيد آدم، كما أنني لم أقبل منذ الصباح، وسيادتك تصدر أوامر وقرارات لم أستوعبها جيدًا بعد! لَم تسألني عن رغبتي بالعمل لديك؟ كما أننا لم نناقش ماهية هذا العقد.

نظر لها باندهاش ساخر وقال: ماذا؟! أتخشي أن أورطك بأمر لا تعلميه؟ ألم تدركي بعد مع من تعملين؟ حقاً لستِ سوى طفلة، أي فتاة ناضجة بحق ما ترددت للحظة، بل تمضي وهي ترقص فرحًا مغمضة العينين.

أجابته بحنق: ها قد قلت فتاة أخرى، مؤكد هي ليست أنا سيد آدم.

نظر لها آدم، هل هذا وجهٌ آخر لم يرَه في تلك الطفلة الوديعة من قبل! التمرد! هل تتمرد عليه فقط أم أنها مشاغبة مجادلة بطبعها؟

زفر ببطء ولم تفارق عيناه وجهها الذي اشتعلت وجنتاه بجُمرة الخجل، غضت بصرها عن وجهه ونظراته التي لم تفهمها ولكنها تعلم أنه غاضب منها.

عمَّ الصمت للحظات وأصبح جو الغرفة مُعبَّأً بالتوتر مشحون بضغط الأعصاب، بدأت تدرك أنها بالعمل معه والقُرب منه ستتراقص على حافة الهاوية، كل كلمة كل نظرة كل حركة يجب أن تكون بحساب، لا مجال لعفويتها مع آدم نور الدين، عليها الاستعانة بقناعها البارد الحديدي دائمًا وأبدًا.

ღ ღ ღ

أغمضت سارة عينيها باسترخاءٍ على سريرها الصغير، تمنت أن يزورها النوم ولو ساعة كي تكون أكثر نشاطًا عند زيارة الطبيب برفقة والدتها، ولكن بالطبع جافاها النوم إثر انشغال وتضارب أفكارها؛ فما حدث معها منذ ساعات قليلة كفيل بأن يرهق عقلها بتفاصيله لأيام قادمة.

لم تنسَ جرأتها غير المسبوقة مع آدم نور الدين بل كانت متعجبة من ذاتها، فهي لأول مرةٍ تصطدم مع أي كائن من كوكب الرجال، ولكنه هو البادئ، أجل هو من دفعها إلى مجادلته نتيجةً لغطرسته واستفزازه. تدرك أن سِر ثقته هو عِلمه بمدى نفوذه، مؤكدٌ أن كبرياء أي رجلٍ مُعرض للخدش إن تعرض لرفضٍ ما بشكل شخصي، ولكن رجلًا لم يُقَل له يومًا لا إهانة لا تُغتفر، أن يشعر بالرفض! برفض عطاياه وليس شخصه، فكل ما يهبه هو جزء مِنه وعلى سائر العامة من حوله أن يتقبلوا عطايا الملك بحفاوة، ولكنها لم ولن تكون يومًا إحدى رعاياه أو جواريه.

لا زال صدى صوته الخَشِن يتردد في آذانها وهو يقول: حسنًا سألتمس لكِ العذر لأحداث اليوم المتلاحقة من غيرة صديقتك وتخلي محمود عنكِ، أعلم أن هذا صعب على طفلة مثلك في يوم واحد؛ أن تشعر فجأة أنها وحيدة.

كادت أن تضحك بسخرية، هل ارتباكها وخجلها الزائد صوَّر له أنها الطفلة المُدللة التي تعتمد على الآخرين في تسيير شؤونها الخاصة؟ تبًا له، ليته يُدرك أنه يمتلك عيوبًا كسائر البشر! يتصور لحدة ذكائه أنه يفهم كل شيء، رغم أنه أحيانًا لا يفهم شيئًا على الإطلاق، وغالبًا ما يَخفى عن بصيرته الكثير.

حمدت الله في سرها أنها استطاعت حينها أن تجيبه بثبات: ما دخل وحدتي بعقد العمل؟

أجاب بجدية: سأمنحك فرصة لتصفية ذهنك وإعادة حساباتك. ثم نظر لها وكأنه يخترقها ليخبرها بغرور أن توقيعها مسألة وقت لا أكثر.

تحَكُّمه في كل شيء يربكها، قال بثقة مفرطة: ستأتين وستوقعين العقد قريبًا.

ღ ღ ღ

أصابها الصداع من كثرة التفكير، هل تقبل العمل معه أم لا؟ وكعادتها رغم القلق والخوف كانت تدرك أن الله معها لن يتركها وحدها تتخبط في صراعها الفكري، توضأت وتوجهت إلى الله بصلاة الاستخارة (دعاء الاستخارة).

أنهت صلاتها وتوجهت برفقة والدتها إلى الطبيب، مر أكثر من أسبوع لا يعلم أحد أين هي، أغلقت هاتفها وسكنت كهفها الصغير "غرفتها" التي تحتمي بها من الغارات الخارجية كما تُخبئ السلحفاة نفسها بداخل قوقعتها الصخرية، كانت بين الصمت والبكاء الساكن، هادئة لأن عقلها صاخب، جسدها مسجيٌ على سريرها معظم الوقت لأن روحها منهكة، تحيا رغم شعورها وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة.

خرجت من غرفتها مسرعة على رنين جرس باب المنزل وهي تُحكم حجابها حول رأسها: حاضر آتية.

فتحت الباب لتجد مريم، استقبلتها بحُب: مريم حبيبتي.

دلفت مريم إلى المنزل تحتضن سارة باشتياقٍ وتبادلها سارة حضنها بلهفة، احتوت كل منهما الأخرى بصمت.

رفعت سارة وجهها ونظرت إليها مريم بقلق قائلة: سارة ما بكِ لِمَ وجهك شاحب إلى هذا الحد، ما هذا البؤس الذي يطِل من عينيكِ؟

أمسكت سارة بمعصم مريم برفق وأجلستها على الأريكة، ثم خرجت عن صمتها الذي دام لأيامٍ حتى ظنت أنها ما عادت تقوى على النطق وأن للكلمات ثقل على لسانها، فهي لا تتحدث إلا لضرورة.

قالت بصوتٍ واهن: أنا بخير عزيزتي، لا شيء فقط بعض الإرهاق.

أجابتها مريم: لا أصدقك! ثم تنهدت قائلة: أنا آسفه سارة.

-علامَ؟

مريم: لقد تركتك الفترة الماضية وحدك، كما أن هاتفك مُغلق على الدوام، أعلم أنه كان يجب عليّ أن آتي لزيارتك ولكني انشغلت.

قاطعتها سارة قائلة برفق: لا تأسفي، بالأصل لم أكن أتمنى سوى تلك العُزلة والابتعاد عن الجميع.

مريم: حتى أنا يا سارة؟

سارة: مريم أرجو أن تتفهمي، أنا بخير الحمد لله.

مريم: لا لن أتفهم، ما الذي تخفينه عني؟

سارة بنفاذ صبر: لا أخفي عنكِ شيئًا، حقًا يا مريم كل الأمور تعلمينها، لا أخفي سوى التفاصيل.

مريم: لِمَ

سارة: لأنها الأكثر إيلامًا وتأثيرًا في النفس وثبوتًا في الذاكرة، التفاصيل لا تهم سوى أصحابها، لأنه ببساطة لا يشعر بها سواهم.

وكأنها بعالم آخر فكرت كيف تخبرها بخلاصة الوجع، بالضعف الخالص وهي لم تكن يومًا ضعيفة خالصة، لطالما تداركت الموقف، حتى البكاء لطالما أوقفت سيله المُنهمر في عيونها بعد لحظات، وليستمر القلب يروي الروح كما يشاء المهم ألا يدري أحد.

أفاقت من شرودها على صوت مريم: أخاف عليكِ حينما تنتابك تلك الحالة من الصمت والشرود والحديث المُغلف بفلسفة موجعة، أشعر بألمٍ لا أدري أين موضعه منكِ، لا أراه فلا أقوى على مداواته، ربما روحك شفافة ولكن مصدر جروحك غامض مهما ادعيتي العكس.

بدلت سارة الحديث وكأنها لم تسمع: كل ما في الأمر أني احتجت بعض الوقت لأرتب شؤون حياتي. ليس من المفترض أن نظل نسير دون تعقل، دون أن نرتب الفوضى من حولنا، أن ندرك موطأ قدمنا في الخطوة التالية، أعتقد الأمر طبيعي بل من الواجب أن ننسحب من الحياة بعض الوقت لندرك كيف نستمر فيها.

مريم: وماذا قررتِ في عزلتك؟

سارة: سأذهب غدًا لتوقيع عقد العمل مع السيد آدم نور الدين، هذا إن لم يكن قد ألغاه لاختفائي المفاجئ.

قالت مريم بحيرة: أنا لم أعد أفهم شيئًا، هل ستقبلين العمل مع آدم نور الدين؟ لقد توقعت أن رفضك أمرٌ مفروغٌ منه رغم تبليغ محمود لي أنك تفكرين بالأمر!

أجابت سارة بفتور: تعلمي ألا تتوقعي شيئًا مريم، قد تحمل لكِ الحياة ما يفاجئك في اللحظة الأخيرة.

أجابتها مريم: حقًا تفاجأت، ولكن ما السبب؟

سارة: بعض الأمور لا تخرج من حيّزِ العقل، ازدادت نبرتها تهكمًا وهي تقول: يبتلع القط ألسنتنا قبل النطق.

مريم: سارة أفيقي! ما لهجتك تلك!

سارة: ما الأمر؟ إني أتحدث بجدية؛ اللهجة الحقيقية التي أخفيها خلف مرح الطفولة، لا تطيقينها أليس كذلك؟

ابتسمت بوهن: والآن ما الذي شغلك عني الفترة الماضية؟

أجابتها مريم: لقد انتقلت والدة محمود للعيش معنا بعد سفر دلال؛ فمحمود لم يستطِع أن يتركها بمنزلهم القديم وحدها فجهزنا لها الطابق الأرضي بالأيام الماضية وانتقلت للسكن برفقتنا أمس.

سارة: عين الصواب، بعد سفر دلال لم يعد لها سواكم، أعانكم الله على برها.

مريم: والآن هل تودين أن أخبر محمود بأمر موافقتك؟

أجابتها بهدوء مغلف بالحزم: لا، لم يعد لمحمود يدٌ في الأمر، لا تتسببي له بإحراج، ربما يكون قد تم إلغاء عرض العمل، الأمر بيني وبين السيد آدم سأذهب في الغد وليكن ما يشاء الله.

مريم: بالمناسبة أين سالي؟

سارة: تستذكر دروسها في بيت صديقتها.

مريم: ووالدتك؟ أشتاق إليها كثيرًا، كيف حالها؟

أجابتها بابتسامه هادئة: إنها بخير نائمة.

ღ ღ ღ

دلفت إلى مكتبه، كان يجلس باسترخاءٍ في كرسيه الجلدي الوثير لا يرفع وجهه عن أوراقه، وكأنها لا تقف على بُعد خطواتٍ منه، خيَّم الصمت عليهم للحظات طويلة وكأنه يعاقبها بصمته.

لم تجد بُدًا من الحديث، قالت بهدوء: السلام عليكم سيد آدم.

أجاب ببرود بعد لحظات دون أن يرفع بصره إليها: وعليكم السلام يا أنسة. وحل الصمت من جديد.

رغم محاولتها للثبات انتابها التوتر وكأنه يخبرها ببرود وعجرفة أنها غير مرحب بها في هذا المكان، غيابها المدة الماضية كانت كفيلة بتحويل الكلمات النارية بينهما إلى جليد، ولكن إن كان قد سحب عرض العمل ألا يحمل بعضاً من اللباقة ليخبرها؟

شعرت وكأن تجاهله صفعة غير مرئية لم تتحملها، استأذنت ببساطة: حسنًا وداعًا.

فاجأتها نبرة صوته العالية وهو يهتف بها: لم آذن لكِ بالرحيل.

ردت بعفوية: وهل كنت تلحظ وجودي بالأصل؟

ابتسم وكأنه أدرك مبتغاه: أجل لاحظتك كما ألاحظ كل شيء وإن لم يبدُ ذلك، أيُغضبكِ صمتي للحظات؟ وماذا عنكِ؟

أجل لقد حشرها بالزاوية، شعرت وكأنه مُعلمها يلقنها درسًا بأفعاله، ظنت منذ لحظات أنه يتعمد إذلالها أو إخبارها أن وجودها لا يعني شيئًا وعليها الرحيل، أما موقفه الجديد قد يعني شيئًا آخر، إنه يقتص منها فور لقائها دون سؤال، دون حديث، دون انتظار سماع أي تبرير.

أجل فأمثاله لا يُظهرون ضعفهم، قَلقهم، وبالطبع احتياجهم، لا يخبرونَك كم تعذبوا أو كم طال بهم عُمر الانتظار وأضناهم، يعبرون عن اهتمامهم بالتجاهل، وعن شغفهم بالسخط، وعن حبهم بالإنكار الموحي بالكُره.

سرحت بأفكارها بعيدًا ولكنها انتبهت لتلك الذبذبات المنبعثة من عيناه التي تنتظر إجابة، تمتمت: أنا . . . أنا كان لدي بعض الظروف الخاصة، لقد أمهلتني الوقت حقًا لم أتعمد أن. . .

قاطعها بسخرية: أن تتدلَّلين وتماطلين بمراوغة لتجعليني أنتظر.

بُهتت من كلماته الحادة سيئة المعنى، قال بجزم: أعلم سلوك الفتيات الذي لن يتبدل على ما يبدو، ألم يخطر ببالكِ أني استبدلتك في يومك التالي؟

ماذا يقول؟! كيف يفكر؟! لم تكن تهمها الوظيفة بقدر نظرته لها وحديثه عنها، قالت: رجاءً تعلَّم ألا تحكم على أفعال الناس دون أن تدرك نواياهم.

أجاب بتهكم: وأنتِ لم تتركي فرصة لتعليمي على ما يبدو.

سارة: لستُ مُعلمة أحد، أقصد كلامك يحمل لي جانبًا من الظلم، أنا فقط كنت أفكر.

نظر باندهاش وهو يغادر كرسيه ويدور حول مكتبه: تفكرين؟! لم أكن أعتقد أن تفكيرك بطيء إلى هذا الحد، إن كنتِ تفكرين طوال تلك المدة في عرض عمل ماذا عن عرض زواج؟

اندفع اللون الأحمر يلوِّن وجنتيها، وقبل أن تفكر برد مناسب، قال: والآن ماذا تتوقعين مني أن أفعل بكِ؟

ما الأمر؟ لِمَ كل هذا؟ فليصرفها ببساطة! الصبر يا الله!

قطع تفكيرها الساخط: هل أُخبرك أني سحبت عرض العمل أم تمضين وتعاقَبين؟

أرادات أن تثأر فأجابت ببساطة: في البداية من أخبرك أني وافقت؟

ضحك بخفوت: لم تكوني لتأتين لولا موافقتك، رؤيتك هنا بمكتبي في حد ذاتها موافقة غير مُعلن عنها بعد.

فكرت، أجل لهذا تمادى، لأنه يدري أن له السُلطة المطلقة والكلمة الأخيرة، لطالما كانت تتغلف معه بالقوة وينبهها دون مُكاشفة أنه يرى ضعفها، قال: والآن ما هو قرارك؟ أترين كم أنا ديموقراطي؟ القرار دومًا بيدك، وأتمم: والعاقبة بيدي.

يدرس كل شيء بدهاء وصبر، يضع أمامها كافة الأوراق، يخبرها أنه قد حسم أمر الجولة لصالحه ثم يترك لها ترف إعلان النتيجة، اعترفت بهدوء: أجل لقد أتيت لأوقع عقد العمل ولكن إن تم إلغاؤه كعقاب فلا بأس لن ألجأ للتحايل أو التذلل كوسيلة لكسب العمل والتعاقد ضد كرامتي سيد آدم.

تمتم ببرود قاس: نحن نعاقب المُقيمين بحياتنا كي لا يعاودوا تكرار الخطأ مرة أخرى، إن ألغيته ورحلتِ للأبد فأين العقاب؟ كيف أدرك أنكِ لن تكرري خطأك مرة ثانية؟

منطقٌ غريب! قالت: إذن ما هو قرارك سيد آدم؟

وضَع عقد العمل أمامها وأمدَّ لها يده بالقلم، جمدت ملامح كل منهما للحظات وهي تخط توقيعها على العقد، قال بهدوء وكأن الأمر كان يسير وفق ما أراد تمامًا: مبروك.

ღ ღ ღ

العمل مع آدم نور الدين أشبه بالركض على جهاز تمرين رياضي يزداد معدل سرعته يومًا بعد يوم، حتى يقطع أنفاسك أو يطيحك أرضًا إثر اختلال توازنك، لا خيار آخر.

يصير كُل ما يشغل بالك حينها أن تجاريه كي لا تسقط، أن تضبط إيقاع حركاتك وسرعة تنظيم أنفاسك في حركة الشهيق والزفير ومواءمة حركة سيقانك، وتشبث يداك بالمقبض الثابت كنقطة ارتكازك الوحيدة، إذا ما اختلت يداك انتهى الأمر.

هكذا كان عقلها يقظٌ في اللحظة الحالية، ربما لا يجيد تفسيرها ولا يقوى على حساب الخطوة القادمة ولكنه على الأقل ينجو بها في كل مرة.

ღღღ

دلف إلى غرفة مكتبه بجناحه الخاص، توجّه إلى خزنته ولم يلتفت إلى شيء فيها سوى صندوق معدنيٍ عتيق يحمل العديد والعديد من الورق المُهترئ على هيئة خطابات، أخذ يُقلب في الأرواق بحثًا عن ورقة بعيْنها، لقد قام بترتيبهم وترقيمهم منذ أيام.

وجد ما يبحث عنه، أخذ الورقة وذهب إلى كرسيه، أشعل سيجارًا في ضوء مصباح المكتب الخافت وراح يقرأ:

"ماذا أقول عنها؟ إنها بهجة الحياة -حياتي على الأخص-، منذ أن وقع بصري عليها وأنا أدري أن تلك الفتاة ستضع بحياتي بصمة وتترك أثرًا، رغبت أن أسحبها من يدها لأدخلها حياتي، وددت بحق ولكن التهور والعبث لم يكونا من شيمي رُغم جرأتي وعنفوان شبابي، ربما كبريائي هو ما جعلني أصمت وأتمنى دون أن يدري أحد أني أرغب التقرب من تلك الفتاة العنيدة، أجل كل شيء فيها كان يشي بتمردها رغم خجلها الفطري غير المصطنع، وكم أجيد التفرقة بينهما.

كانت عصيّة؛ عصيّة في بوحها وتحررها ومشاعرها وفتح أبواب الولوج لحيّز المقربين منها، أرهقتني ولكني اتخذت الصبر معها سبيلًا، كنت متيّقن أن خلف صمودها براكين ستنهار عليّ من حمم عاطفتها المختزنة، صرت أُنقِّب في منجمها عن كنوز روحها التي ما اختبرها قبلي بشر.

جميله هي، لا بل أكثر من جميلة، وأكثر من ذكية، إنها تلك التي ليس كمثلها شيء.

عندما حدثت صديقي عنها ظنَّني أبالغ، وعندما عرفها حق المعرفة رفع رايته البيضاء مُلوحًا، شيءٌ ما لم أكن أدري حينها ما هو يجذبني نحوها، بل لم أكن أدري ماذا أريد منها! أنا فقط أريدها بحياتي ولو لفترة.

صار صوتي الداخلي يسخر مني بعد كل نصر أحققه معها أو خطوة أخطوها نحوها، صوتٌ خبيث يخبرني أن وجودها في حياتي أروع من أنً يكون حقيقة دائمة، أنِّي لا أستحقها بل الأهم لن أجيد الحفاظ عليها.

يومًا ما سأفقدها بلا رجعة، ولن يتبقى سوى ذكرى في أقاصي القلب وزجاجات معتّقة من الندم أحتسيها بتمهل على مر سنوات.

تنهد وكأنه يُفرغ همّ ما يجثم على صدره، أطفأ سيجارته التي لم تكن قاربت على نصفها، وضع الخطاب بالصندوق المعدني، أغلق خزنته ومصباحه وخرج.

ღ ღ ღ

تدلف إلى مكتبه ليبدأ نهاره بعينيها وقهوته:

-كيف حالك اليوم؟

-بخير الحمد لله.

يرتشف قهوته على مهل ويقطب جبينه ناظرًا إليها قائلًا

-يبدو على وجهك الشحوب لِمَ لا تزورين الطبيب؟

تشيح بوجهها عن عيناه المتربصة بها:

-لا داعي، يحدث هذا معي عادة.

ينظر بأوراقه لدقائق تشرد فيها بعيدًا حتى لا تسمع نداءه، فيصيح:

-سارة!

تنظر إليه بانتباه:

-نعم

يتمعن في وجهها مغادرًا لكرسيه، دار حول مكتبه وجدته أمامها لا يفصل بينهما سوى خطوات، لم يكن أبدًا قريبا منها هكذا، في الواقعِ لا هو ولا غيره. تململت في وقفتها مبتعدة بحركة يسيرة لا تثير حنقه، تشعر بوجوده ونظراته المسلطة عليها من عُلو.

بنبرة حانية لم تتصور أنه يمتلكها:

–ما بكِ؟ لا تخبريني لا شيء، عيناكِ المتألمة تخبرني بكُل شيء.

ترقرقت الدموع بعينَيها، رفعت أناملها سريعًا لتمحو أثار دموع على وشك السقوط من قبضة عينيها القوية.

منع نفسه بقوة ألا يحرك يداه لترفع وجهها، يدرك أن حركة عفوية كتلك بمنظورها أمر جلل.

قالت بثبات زائف: بخير شكرًا لاهتمامك سيد آدم.

صدُّها غير المباشر، القشرة الخارجية التي تتخفى خلفها كي لا تظهر احتياجها له وكأنه لا يعنيها تستفزه إلى أبعد حد، ولا يدري لِمَ! فليدعها وشأنها، ما به!

أجاب بجفاف: كما تشائين، ولكن استمعي لنصيحتي: عليكِ أن تتركي نفسك يومًا للحياة، أن تستيّقظي في الصَباح وتُقرري أن هذا اليوم سَوف تعيشينه لأجلِك، ولأجلِك فقط! رُبما كانت سعَادتِك المفقودة التي تفكرين دومًا كيف تصلين إليها هي في تعطيل تفكيرك للحظات فقط.

استقر بكرسيه مجددًا قائلًا بنبرة عملية: والآن هاتِ ما لدينا لهذا اليوم.

وفِكره يشرد: إنها الوحيدة التي تثير استفزازي بقدر اهتمامي وغضبي وبقدر حناني!

ღღღ

ثلاثة أعوام

ما يقرُب من ثلاثة أعوام ولا تدري أين الخَلل؟ ربما إن أدركت أنها تعاني من مشكلةٍ ما هي أو محمود لأدركت مدى الانتظار أو حتى قطعت الأمل المرجو لهذا الانتظار المبهم.

يتصاعد الأمل بداخلها كلما تقدمت خطوة في طريق العلاج أو انتهى الأمر بكفالة طفل مثلًا .

كثيرٌ عليها ما تتحمّله ولا يشعر أحد، كلمات حفظتها عن ظهر قلب يكررونها وكأنها ستؤتي ثمارها، تتذكر صوت صديقتها الحاني وهي تنشج من البكاء بين يديها: "لا يُكلف الله نفسًا إلا وسعها"، ولكن نفسها ضاقت، ربما لأنها لم تتعلم معنى الصبر كما حدثتها أمها، لطالما كانت حياتها مستقرة؛ طفولة سعيدة ومراهقة متزنة وشباب مزدهر برفقة من اختاره قلبها، لا تتذكر مأساةً مرت بها أو معاناةً قاصمة، لم تسهر الليالي ساهدة أو تقضي الساعات باكية، بعض من المواقف اليومية البسيطة التي لا تترك أثرًا صعبٌ أن يُمحى.

أتدفع الآن ضريبتها على ما جنته من سعادة وراحة بال! لطالما كانت ترى نفسها محظوظة في الحياة، إذًا أهذا نصيب أحزانها متجمع؟

خوف عارم اكتسحها فجأة حتى بردت أطرافها وارتعشت، ماذا إن كان حرمانها من الأطفال أبديًا !

أجل فمن المستحيل أن تظل الحياة وردية على الدوام، والآن بدأت المعاناة منذ انتقلت والدة محمود للسَكن برفقتهم، لن تُنكر أنها امرأة طيّبة ودود، لم تكن يومًا بحماة متسلطة، إنها تعتبرها كابنةٍ بمثابة دلال، ولكنها عاشقة لمحمود؛ تنام وتصحو على دعوة واحدة "اللهم لا تحرمني رؤية ذرية محمود" .

البركان الخامد يثور في أي لحظة، ينغص الحياة الهانئة والضحكات العفوية، يغص به الحَلق حتى عند ابتلاع الطعام كلما أثارت تلميحًا ومؤخرًا تصريحات واضحة من ضرورة عودة رحلة السعي خلف الأطباء أو حتى السفر للخارج.

ولكن ماذا يعالجون؟ إنها ومحمود عاجزون تمامًا عن إبداء أي محاولة جديدة، إنها إرادة الله كما أجمع الأطباء.

ها هي تقف عند خط النهاية؛ لا بديل عن الانتظار أو كما تخبرها والدتها الصبر، ها هي تتجرع مرارة الصبر متضرعة لله باكية: "يا رب يا رب اللهم طفل، طفل يا رب قرة عينٍ لي ولمحمود، يا رب إن لم يكن لي من أجل والدته يا رب"

ღ ღ ღ

تُتابع البرنامج الحواري الأكثر نزاهة في الإعلام العربي، وكم أصبحت النزاهة الإعلامية شيءٌ أشبه بالخيال الوردي لقصص الأطفال، كالأميرة النائمة في سباتٍ يشبه الشعوب لتستيقظ على قُبلة الأمير الوسيم الذي يعيدها إلى الحياة، لتجده ليس إلا مصاص دماءٍ سحب منها الحياة بلا عودة وتركها جثة هامدة.

كم من مصاصي دماءٍ كانوا على الشاشات بسُلطة أمراء ليسوا بالضرورة وسيمين ولكنهم بالطبع متلهفين لغنيمة الفوز بالأميرة النائمة.

تصيح: سااااالي اتركي البرنامج.

-أبدًا! انه ميعاد المسلسل.

-سالي فقط برنامج عالية الزّهار لو سمحتي.

تترك لها القناة بتأفف وهمهمة حانقة لتجيبها سارة:

-حاولي أن تسمي بعقلك فوق تفكير البنات السطحي؛ استمعي حلقة لبرنامجها لن تخسري وقتك أعدك بهذا.

نظرت لها باستنكار قائلة:

-تخليت عن مسلسلي المفضل لأجلك لكن لا تطلبي مني أبدًا متابعة تلك البرامج، ما ليّ أنا كفتاة حالمة وما لثقافة السياسة والاقتصاد والفساد وكل تلك المصطلحات التي تكررينها على مسامعي أنا وأمك المسكينة ليل نهار!

-العمل على الوعي الثقافي والنضج الفكري لتكتمل رجاحة عقلك لا يتعارض مع كونك فتاة حالمة.

-ها قد عدنا! سارة استمري بتعقيدك ولكن لا تحاولي أن تحوليني لنسخة منك، حسنًا؟

-حسنًا سالي كما تشائين، أصلًا انتهى الفاصل الإعلاني.

-حمدًا لله.

ღ ღ ღ

عصر اليوم التالي بمنزل محمود

-وأخيرًا تذكرتِ عنوان المنزل، لا أصدق!

-مريييييم لا تبدأي، احمدي ربك أني قدمت لزيارتك في ظل دوامة انشغالي بالعمل والدراسة.

-وهل كنتِ تنوين غير ذلك؟

دلفت السيدة أم محمود لتقطع شغب الصديقتان المرح:

-سارة كيف حالك بنيتي؟ لم أركِ منذ وقت طويل.

ضمتها بترحيب ودود وقبلة على الخد:

-الحمد لله خالتي بخير كيف حال صحتك؟

-نحمد الله على نعمه. وكيف حال والدتك؟ أرسلي لها سلامي.

-إن شاء الله خَالة، سلمتي من كل سوء .

-سأترككم لتكملا حديثكما، فقط أردت السلام .

قاطعتها مريم:

-لا أمي تبادلي الحديث مع سارة على راحتك، سأعد الغداء محمود على وصول .

-أجابتها بلهجة مرحة بل اجلسي أنتِ برفقة صديقتك وأنا كفيلة بإطعام ولدي .

ليدلف محمود قائلًا :

-امرأتَيّ حياتي يتشاجران على إطعامي، كم أنا محظوظ إن أعدت إحداهما الطعام فعليًا .

تعالت ضحكاتهم ليكمل محمود:

-سأبدل ملابسي وأعود لألتهم طعامي، وأشار لسارة:

-بنت حلال كنت سأرسل في طلبك، انتظريني .

♡ ♡ ♡

جلسوا جميعًا بغرفة المعيشة توزع مريم صحون الفاكهة، مد محمود يده ليتناول صحنه منها قائلًا : سلمتِ حبيبتي، واستطرد :

-ها سارة ما رأيك؟

-محمود لا أدري بمَ أجيبك، عاجزة عن شكرك أنت . . . .

قاطعها بفظاظة:

-أريد رأيك الذي يلي وصلة امتنانك .

لتحرك والدته رأسها بحركة يأس:

-لا فائدة ترجى منه .

أجابتها مريم: صدقتي أمي.

أجابهما: مهلاً سيحين وقتكم.

تحدثت سارة بجدية:

-محمود حلم عمري العمل كصحفية وخاصة إن كانت بصحيفة مرموقة ونزيهة كتلك، ولكن كيف دبرت أمر هذا العمل وأنا لا زلت طالبة؟ أعني....

-العمل كما أخبرتك كصحفية تحت التمرين لاكتساب الخبرة والمهارة، كيفية تدبيره تلك مسألة تخصني، إنها علاقات بشخصيات عامة كرئيس التحرير.

-إذاً توسطت لي؟

-إن أجبتك نعم سترفضين!

-محمود لا تعاملني بتلك الطريقة.

-أنتِ من تصعبين الأمور، سارة افهمي كل ما في الأمر أني وضعتك بمكانٍ ما فرصةً لإثبات ذاتك، لم تتخذي مكانة أو امتيازات لا تستحقينها.

صمتت فأردف:

-لقد وعدتك بتدبير عمل ثابت ويروق لكِ بخلاف العمل مع آدم، وإن أردتِ نصيحتي لا تتركي العمل مع آدم الآن حتى تثبتي أقدامك في الجريدة، كما أن الدخل المادي لا يُقارن بين العمل كسكرتيرة لمدير امبراطورية نور الدين وعمل دخله لا يُذكر.

-إن لم أترك العمل كسكرتيرة كيف أتفرغ لإثبات ذاتي بالجريدة؟

-راسليهم على موقعهم الإلكتروني أو زيارة أسبوعية، الأمر لا يحتاج لتفرغ.

-محمووود شكرًا جزيلاً لك.

ابتسم ساخرًا بمرح: ها قد عدنا.

ضحكوا ثلاثتهم مريم ومحمود وسارة وارتسمت ابتسامة شاردة على شفتي والدة محمود وهي تنقل بصرها بينهم.

ღ ღ ღ

تسير بخطواتٍ سريعة متلاحقة الأنفاس، إنها مُتأخرة مؤكد عُقد اجتماع رؤساء الأقسام منذ ما يقرب الساعة، ليته هاتفها ووبخها لقد صمت تمامًا -إلى الآن-.

ألقت نظرة على غرفة الاجتماعات المُغلقة وقلبها يقرع في صدرها بقوة، جلست على كرسي مكتبها تلتقط أنفاسها، هل تُبلغه بوصولها؟ أم تصمت إلى أن ينتهي الاجتماع؟ تفادت أن تصطدم به الآن، قد يزيد غضبه أن تقاطع اجتماع هام كهذا.

دقائق وتلقت اتصال هاتفي من رانيا تُبلغها فيها أن تحضر في استراحة الغداء إلى مطعم الشَرِكة لأمر هام، تمتمت "يبدو أنه يوم حافِل!".

ها قد انتهى الاجتماع، خرج الجميع من غرفة الاجتماعات إلى مكاتبهم الخاصة عدا الذي شرد عن سرب الخروج ليرابط أمام مكتبها.

كانت متوترة تنتظر آخر من يخرج من تلك الغرفة ليمّر بها قاصدًا مكتبه لتلحقه وتلقى وعيدها، حتى قاطع أفكارها:

-كيف حالك أنسة سارة؟

-الحمد لله بخير سيد صلاح.

-لم أعد أراكِ تأتين إلى مطعم الشركة في الغداء، أرجو ألا أكون سببًا لاختفائك.

عبست وهي تتذكر المرة الوحيدة التي طلب منها السيد صلاح بلطف أن يشاركها غداءها ولكنها رفضت بحجة أنها ليست وحدها بل ستنتظر رانيا التي بالأصل لم تأتِ!

حاولت أن تستجمع كلمات حازمة في تهذيب لينصرف:

-أبدًا أنا بالأصل لا أتواجد بالمطعم إلا نادرًا.

ابتسم: وأنا أيضاً، ما رأيك بقدح قهوة بديل عن الغداء؟

نظر إلى ساعته: أعتقد أنه حان موعد استراحة غدائك.

-عفوًا لدي الكثير من العمل سأستغل الاستراحة في إنهائه.

مرّ بهما كإعصار قائلًا في قسوة:

-قرار وجيه.

ولم يلتفت وكأنه كان يحادث نفسه، دلف إلى مكتبه، غادر صلاح ولحقت به، هل الرهبة التي تشعر بها أمر طبيعي! أجل إنها تأخرت اليوم كما أنه منضبط وحازم في عمله.

ماذا يفعل عقلها في تلك اللحظة؟ إنه يحاول إيجاد تفسير لتلك الرهبة والتحفز الذي يمتلك روحها ويجعلها كورقة تسير بإرادتها نحو عاصفة رياح.

-أعتذر عن تأخُري اليوم لقد كنت بالجَامعة، أخذت فقط جدول محاضراتي ثم...

تمتمت: هل أنت غاضب؟

-بل أسمعكِ، واصلي حديثِك ثُمَّ؟

-ثُم ذهبت إلى الجريدة لأقابل رئيس التحرير وأرى طبيعة العَمل الذي سَأكلف بِه.

تعابير وجهه المبهمة تخيفها تُخبرها أنه يصارع شيئًا ما لا يود أن يظهر على صفحة وجهه، فاستطردت:

-إنها فقط مقالات سأرسلها بالبريد الإلكتروني ولن تؤثر على عملي في شيء.

تحدَّث بآخر ما توقعت أن يقوله:

-لِمَ لمْ تُخبريني أنك تودين العمل بجريدةٍ ما؟ لدبرت لكِ الأمر!

-لقد فاجأني محمود بالأمر، إنها رغبة قديمة وفقًا لمجال دراستي لكني لم أطلبها من محمود صراحة.

لوى فمه في ابتسامة:

-كم هو نبيل محمود، اجلسي لن أعاقبك بالوقوف كالتلاميذ المشاغبين.

استطرد: وقت عقابك لم يحن بعد.

جلست أمام مكتبه وتحدثت بنبرة شبه عادية:

-أتتعمد إرهابي؟ أنا لا أخاف.

-أبدًا، أنا فقط أُخبرك من باب الوضوح، كما أنك تخافين، ما يمنعني هو خوفك لا أكثر.

فكرت يمنعه؟ يمنعه عن أي شيء؟ هل يطردها أم يخصم من راتبها؟ أليس هكذا يُعاقب الموظفون؟

قاطع أفكارها بابتسامة واثقة:

-كُفي عن إرهاق عقلك الصغير، لا أدري أهو مسكينٌ لأنه عقلك أم مسكينة لأنه سِر شقائك صغيرتي.

قطبت جبينها وزمت شفتيها في استنكارٍ لحديثه، كانت أشبه بطفلة يعرض عليها أحدهم طعامًا لا يروق لها، تمتمت:

-عقلي ليس صغير.

ضحك بصدق وهو يفكر كم تروق له مشاكستها العفوية، إنها بكلمةٍ تعيد إليه لحظات من الصفاء لا يدرك متى آخر مرة اختبرها، إنها لا تتعمد أن تجذبه، إنها تتلوى لتنسل من بين قبضته كحفنة رمال، ولكنه أبدًا لن يسمح لها، فرغم ذكائها المتقد وسرعة بديهتها عند مجابهته تحديدًا إلا أنها غافلة تمامًا عن الطريق الذي يوجهها نحوه.

صمتت وهي تراه يشرد بعيدًا ولكن يحمل وجهه ابتسامة، فكرت ليته يبتسم على الدوام.

نظر نحوها في تلك اللحظة، اتسعت ابتسامته:

-أجل تدربي جيدًا على أن ترفعي وجهك نحوي، أن تحدثيني وأنتِ تنظرين إليّ.

زحف لونٍ وردي يلون وجنتيها، أجل هي تشعر بحرارة خجلها اللعين وكأن هذا ما ينقصها، لتزداد ضعفًا أمامه:

-حسنًا أعتذر مرة أخرى عن تأخيري.

-تدرسين صحافة وإعلام أليس كذلك؟

-أجل.

-في أي قسم ستكون مقالاتك؟

-لم نستقر بعد، سأرسل بعض المقالات ليتم تقييمها مبدئيًا ولكني أحبذ أن أكتب حول الأوضاع الراهنة في البلاد.

-تساءل: امم فن وثقافة.

-بل اقتصاد أو سياسة.

رفع حاجبيه بتعجب حقيقي:

-لِمَ؟

-إنهما أصل الداء والدواء لأي دولة؛ متى ما انضبط الاقتصاد في ظل سياسة عادلة ارتقى الفن وانتشرت الثقافة بين أطياف المجتمع تِباعًا.

التمع في عينيه شيءٌ أشبه بالإعجاب سُرعان ما انطفأ، تابع حديثه قائلًا:

-لقد تم تسجيل ما دار في الاجتماع، قومي بعرضه طبقًا لخطوات التنفيذ في تقرير، ليكن على مكتبي في غضون ساعة، استغلي استراحتك جيدًا كعقاب مؤقت.

نظرت إلى ساعتها وهي تتذكر رانيا:

-حسنًا .

تحركت للمغادرة:

-اطلبي قهوة .

-سأحضِّرها بنفسي .

-محاولةً لاسترضائي ؟

-أبدًا، أعني ريثما يتم تحضيرها أُنْهي محادثتي مع رانيا بالمطعم وأُحْضِرها إليك .

غمغم: رانيا تحتاجك بالأسفل إذاً .

-أجل هاتفتني لأمر هام .

-رانيا فقط .

عبست: ماذا تقصد ؟

أجاب بنبرة باردة ووجهه في أوراقه:

-أطلبي القهوة من مكتبك، وأمورك الخاصة تنهينها في غير أوقات العمل .

-ولكن . . .

قاطعها بجدّة:

-لا تجادلي أتفهمين؟ أي جرأة واتتك بعد تأخرك اليوم لتتحدثي بتلك الطريقة بدلاً من أن تنهي عملك؟ نصف ساعة والتقرير يكون على مكتبي .

ღ ღ ღ

أيهما أكثر بؤسًا ؟ أن تجلس تنتظر أن ينتهي ألمك، أم تنتظر في اللاشيء عسى أن يمر بك قِطار الفرح عن غير قصد ؟

الروح مثقّله بأطنان من البكاء المختزن الذي ينتظر حُضنًا دافئًا بصِدقه ليتفجر ينبوعه.

مقيّدة بالعَجز؛ العَجز القاهر الأوحد للرجُل يُقهر روحها منذ أن تلبّست مسؤولية الرجل وحملتها دون تفكير على كاهِلها، تدعو كل ليلة "ربِّ إني لا أسألك أن تخفف حملي ولكني أسألك أن تقوي ظهري" (عمر بن الخطاب).

قيود تشد الوثاق حول عُنق أمانيها وخيالاتها الوردية، طالما الواقع يُجبرها على مشاهدته والتعايش فيه، تختنق متمزقة بين حِلميَّة الفتيات ورديات القلوب كزهرات يانعات يتلهفن للقطاف، وبين شِيم رجولية حددها العقل بوضوح حاد يأبى المراوغة بهدف التنصُّل من نضجُه.

تُفكِر كم يسيرٌ الثبات على أرض صلبة، كم مُرهقٌ على أرض تتشقق من تحت أقدامك كل ما حددت موطئها.

ها هو عقلها الكئيب غارقٌ في دوامته الخاصة كعادته لساعاتٍ، ما أقساها على حالها في تلك الجلسات الأسبوعية التي تقضيها والدتها في الغسيل الكَلوي، تقضيها هي ي مؤزرتها بالصمتِ البائس والحُزن السِرّي والأنين غير المفارق للحَلق، فيتحول صوتها لنشيج لا تتحكم به، صادقٌ ومُميت الحزن الذي ينهش الروح حتى يُدميها ولا يدري عنه أحد.

مر أكثر من ثلاثِ ساعات، آهٍ يا أمي ليتني أحمل بعضًا من ألمك من وهنِك، تأبى أن ترى والدتها الجبل الشامخ ينهار على أعتاب مرضٍ خبيث فاجأهم كضيفٍ غير متوقع ولا مرغوب.

وهن المرض الذي أصاب روح الأم الفتيّة كان أقسى من كل ما مرت به على مدار أعوام، كم يمكن لابتلاءٍ واحد أن يُدمر دعائم قوتك التي اكتسبتها على مدار الأعوام لتطيحك ملازمًا للفِراشِ وكأن الحياة لم تعد بحاجةٍ لك، تلفظُك من باطنها على مَهل، تُغادرك ببطء حتى تتمنى أنت الخَلاص فتُرحب به كغائبٍ طال انتظاره بدلًا من الفرار منه.

تهز رأسها بيأس "استغفر الله العظيم"، ها قد انتهت أمها من الجلسة الثالثة لهذا الأسبوع وانتهت هي من الإنصات لهديرِ اليأس المتدفق بعقلها، دلفا إلى المنزل، سوَّت غطائها ونظرت لملامحها الحبيبة الواهنة، كم جميلةٌ أمها بعين الحياد قبل أعين الابنة.

جميلةٌ وبقايا قوتها متناثرة في وجهها الشاحب بياضه بعينيها التي تغشاها طبقة من الكريستال الشفاف، كدموعٍ لا تنسكب ولا ترتد بل تظل تعكس كل ما تمر به بشفافية، وابتسامتها الواهنة التي لا تفارق ثغرها، تنظر لأمها التي غفت بسهولة كالأطفال، تدلف لغرفتها عالمها الخاص تنظر لمرآتها وهي تتخلص من وِشاح الرأس، تنظر لعيون الزيتون الأخضر وتتخيل الدموع التي تتسارع لتشكل طبقة الكريستال الشفاف، ثغرها الأنثوي وهو متهدل كطفلة خائفة على وشِك البكاء، بشرتها الشاحبة التي سُلبت منها الروح.

كم يلزمها لتتحول إلى أمها؟ لطالما كانتا شبيهتين، تنفض رأسها فيتهدل شعرها على وجهها وكأنه يُربت بلطف على وجنتيها، تجمعه خلف رأسها وتتوجه للمطبخ وهي تنهر نفسها، لِمَ هي حانقه كون روحها تشيخ؟ أليس من الأفضل قبول المحتوم بدلًا من مناورته، القدر لا يقبل العِناد.

تطل سالي من باب المطبخ الصغير:

-جائعة.

تبتسم: حسنًا بدلي ملابسك لنتناول الطعام سويًا.

-سأوقظ أمي.

-لا سالي اتركيها إنها مُرهقة منذ كنا في زيارة الطبيب.

عبست سالي وقالت مفكرةً:

-لم أعد أفهم شيئًا، لقد تعددت زيارات الطبيب لما يقارب الثلاث مرات بالأسبوع الواحد، وكل مرة تغيبان بالساعات وتعود أمي لتنام منهكة، ماذا يحدث؟

التفت سارة إليها، سحبت نفسًا قويًا وزفرته ببطء:

-حسنًا سالي، إن أمك لم تعد تحتمل العَمل والمشقة وبذل المجهود كما السابق.

شق الألم تعابير سالي قائلة بلهفة:

-لِمَ؟

أجابتها ببساطة وكأنها تقنع ذاتها وكأنها تُصدق ما تتفوه به حقًا:

-لا شيء، الضغط وما شابه كما العامل النفسي.

سحبت صينيه وأخذت تضع أطباق الطعام وهي تُكمل:

-لا تشغلي بالك أنا أخبرك كي تجتهدي بدراستك لا أكثر، أريد أن يكون نجاحك هو بهجة هذا العام لها اتفقنا؟

همست: اتفقنا.

ثم استطردت:

-إذاً سارة، أمي ليس بها شيء؟

نظرت لها سارة بتأفف مرِح:

-لا تليق بكِ الدراما أبدًا، هيا احملي صينية الطعام وإلى الخارج.

أجابتها سالي بمشاكسة:

-ولِم لا تحمليها أنتِ.

ضحكت سارة:

-ها هي فتاتي لقد اطمأنت روحي.

ღღღ

أغمضت عينيها في ظل ظلام الغرفة المُحبب، إنها لم تعد تتذكر أنها تجلس بغرفتها والمصباح مضيء، فنور الصباح بوهجه الرباني يكفي صباحًا، وفي المساء تتلمس برودة الهواء وسكينة الظلام والبراح النابع منه نور الغرفة الصِناعي فجّ يُحدد الأشياء من حولها وكأنها تطبق على صدرها، الظلام يمنح للأشياء براحًا غير حقيقي يزيد من خصوبة الخيال، واتساعًا على مَدد البصر لترى الأشياء كما تريد لا كما تكون، وكعادتها تمر الأحداث على عقلها متتابعة، ما فعلت وما عليها أن تفعله وما لها وما عليها، تفكر وتفكر وتُفكر إلى أن تنهار نائمة!

تذكرت شِجاره قسوته ونقاشه وتباسطه، والدتها ألمها الجلسات التي أصبحت روتين أسبوعي لم يعد يحمل صبغة مأساوية كما السابق، رغم أنه لا بشر سِواها يدري بطبيعة مرض والدتها ولكن التعود يطوّع قسوة الأيام، يمضغها حتى تلين ويستساغ طعمها بفمه.

قبل أن يظلل عيناها النعاس وتغفو، انتفضت وبحثت في حقيبتها عن هاتفها وضغطت زر الاتصال، لقد نسيت أمر رانيا في غمرة اليوم، اعتذرت لها عن انشغالها وتبادلا حديثًا ودًّا وزفت رانيا إليها بُشرى حملها، أنهت المكالمة وغفت بعد أن دعت لرانيا بصلاح الحال وأن تضع مولودها على خير.

ღ ღ ღ

دلفت إلى غرفة مكتبه على عَجلٍ قائلةً:

-سيد آدم تلك الأوراق تحتاج لتوقيعك في الحال.

رفع رأسه من بين كفيه حيث يرتكز ساعداه على سطح مكتبه قائلًا:

-ماذا نجني من كُل هذا؟

عبست مفكرة وهي تُتمتم:

-ماذا؟!

أكمل وكأنه لا يسمعها وعيناه تشردان في الفراغ أمامه:

–لقد سئمت تلك الدوامة التي لا أدري مُنتهاها، العَمل بصراعاته، التشهير، حروبٌ مُنظمة بوسائل الإعلام، حِيتانٌ ينتظرون غفلتك ليلتهموك، طعناتٌ في الظهر وضربٌ تحت الحزام، بؤرة من القذارة والعَفن تغلي وتفور، ويُقدَّم ماؤها في أرقى كاسات الشَراب يتهافت الجميع لتذوقها، هذا إلى جانب فصيل الأغبياء الذين يتمنون ما أنا فيه، يحسدونني على عذابي، على تفكيري الذي يقض مضجعي يسلبني النوم والراحة.

رفرفت أهدابها في حركة عفوية محاولةً الاستيعاب، ارتخت قبضتها الممسكة بالأوراق وهي تفكر ماذا تجيبه؟ وهل عليها أن تجيب أصلًا؟ ربما كل ما يرغب به هو البوح، البوح لأي كائن حي، مؤكد ليس لها.

جلست على أحد المقاعد أمام مكتبه قائلةً بخفوت:

–اعتقِد أنه في وقتٍ ما نمتلك القدرة على الاختيار، أعني أنت هنا لأنك تَود ذلك، أن تكون مدَدًا لإمبراطورية نور الدين أصغر وأشهر رجل أعمال في البلاد لابد لهذا من ضَريبَة، الحياة ليست معطاءة بحيث تمنحنا السعادة ولا تسلبنا الراحة.

نظر نحوها وكأنه قرر أن يُشاركها هذا البوح:

–أين السعادة تِلك؟ أتظنين أنتِ أيضًا أنني سعيد؟ كما أنني لم أختَر أصلًا ما أنا فيه.

–ربما لم تختَر ولكن من مِنا مكفول لَه حق الاختيار المُطلق؟ نحن مقيدون بحبل سِري، نتحرك نعم ولكن في نطاق معين، سواء وطن مجتمع أو أسرة محددة خُلقنا كأحد أفرادها، كما أن ما اختاره لك القَدر ليس بالسيء أبدًا.

نظر نحوها بتركيز وكأنه يستحثها المزيد...

–تخيّل أنك شاب أنهى منذ أعوام دراسته الجامعية يقطن كاللاجئ في بيت أبيه، أو يعمل عكس ما تمنى ليجد قوت يومه، هذا إن وجد عملًا بالأصل، لو كنت أحد هؤلاء ومررت بنفسك في أحد الشوارع لكنت أول الحاسدين لها.

زفر بتعبٍ قائلًا:

-أعي ما تقولينه جيدًا سارة، حاولي أن تفهمي أنتِ ما أعني، لقد تَعِبت، أُنهكت روحي، وكل تلك الأمور التي مثار حسد وغبطة من الآخرين لا تمنحني أي شعورَ بالسعادة أو الاستقرار.

-أحاول أن أتفهَّمك سيد آدم، أُدرك أن بعض النِعم الظاهرة قد تكون نِقمة في الخفاء لأصحابها؛ المال، الشُهرة، السُلطة، ربما ليسوا أسبابًا للسعادة ولكن عليهم ألا يكونوا سببًا للتعاسة أو عدم الراحة، الأمر يتوقف على الرضا وحُسن التكيِّف مع الأمور.

-أنا لم أعد استشعر ما ذكرتيه على أنه نِعمةٌ بالأصل، لا أرى سوى أنها منغصاتٌ للحياة.

-إذًا ادعُ الله أن يجعلك تشعر بقيمة ما وهَبك من النِعم، سيءٌ ألا تشعر بقيمة ما تملكه لأنك لن تُقدّره حق قَدره.

أومأ برأسه علامة التفَهم، ثم أردف وابتسامة صغيرة تزين وجهه المرهق:

-اتفقنا على أن المال والشهرةٍ والسلطة وأضيفي عليهم الوسامة ليسوا أسبابًا للسعادة، برأيك أين يمكن أن أجدها إذا؟

-السعادة دائمًا نراها خلف ما فقدناه وما ينقصنا، أو بالأحرى نتوهم هذا لتستمر السعادة في مزاولة لعبتها الكبرى الغُميضة، تختبئ منا ونحاول عبثًا الإيقاع بها والقبض عليها، لنجد أن العمر ينقضي ولم نمِلك سوى السراب. السعادة ابنة الحياة؛ تعشق المراوغة.

وجدت نفسها تسترسل وكأنها نسيت وجوده، ووجد نفسه نسي كل شيء عدا وجودها، خيم الصمت بعد حديثها الثقيل، شعرت أنها تزيد إرهاقه لا تخفف عنه فأردفت قائلةً بنبرة شِبه مرحة:

-على أية حال علينا ألا نلهث خَلفها، يكفي أن نحاول صُنعها بصِدق، نحيكَها لأنفسنا كما نصنع ثوبًا من الصوف بتأنٍ وصبر.

ابتسم قائلًا:

-هل تجيدين حياكة الصوف؟

ابتسمت بخفة:

-أجل قليلًا .

-عندما يأتي الشتاء أنتظر منكِ كنزة صوفية .

تفاجأت بطلبه وطارت السَكينة التي كانت تجمعهما وعاد التوتر المُصاحب لتواجدها معه، أجابت بشبه تلعثم:

-ولكن أنا لست ماهرة، أعني قد لا تروق لك، كما أنني . . .

قاطعها قائلًا برفق:

-لا بأس سأرضى بما تصنعه يداكِ كيفما كان، أليس الرضا أحد أسباب السعادة؟ سأسعد بما تصنعيه فاغزلي سعادتي بإتقان ولا تهمك النتيجة، فحتمًا ستنال إعجابي .

أجابت في خفوت:

-إن شاء الله، لِمَ لا تأخذ إجازة لبعض الوقت؟

تبسَّم من قَولها قائلًا :

-كي ترتاحي من رفقتي المرهقة لبعض الوقت؟

تفاجأت من تفكيره وأجابت في اندفاع صادق:

-لا أبدًا هذا من أجلك لترتاح.

كاد أن ينفلت من شفتاه سؤالٌ عَمَّ إذا كانت تهمها راحته، ولكنه ابتلعه مجبرًا لكيّ لا يخيفها فتحذر منه، كل ما عليه الآن فعله هو جذب ثقتها وتعاطفها م دام لم يقوَ على عاطفتها بعد .

ازدادت اتساع ابتسامته وومضت عيناه:

-سأفعل فور إنهاء معاملات تِلك الشحنة التي ستصل للميناء بعد أيام.

ثم أردف بعد لحظة صمت:

-شكرًا سارة لقد أراحني الحديث معك.

ولم تكن جملته لجذبها بقدر ما كانت حقيقة فاجأته، إنه يرتاح بصحبة السلام الذي تثيره حولها وكأنه يطل من بين كلماتها، وحنو صوتها غير المفتعل، أنامل خفيه تربت على كتفه وتشد من أزر روحه.

-عَلامَ تشكُرني؟

-على وقتك.

أجابت دون تفكر:

-وقتي مِلكٌ لك سيد آدم.

ابتسم ابتسامة عبثية قائلًا بخفوت متسائلًا:

-حقًا؟

شعرت بشيءٍ ما خطأ فقالت:

-أعني...

ضحك قائلًا:

-اقبلي حديثي دون مجادلة كي لا تلقي بنفسك إلى ما لا تريدينه أو تخشينه.

عبست، لا تفهم إنها حقًا لا تفهم، هل تسأله ماذا يعني؟ لن يجيب بوضوح وتدري.

تحركت دون كلمة نحو باب الخروج، ناداها قائلًا:

-سارة.

التفتت نحوه:

-نعم!

-اقتربي لأوقع لكِ الأوراق المطلوبة.

ازدردت ريقها توبِّخ نفسها بصمتٍ كيف نست أمرها، اقتربت قائلة:

-أجل تفضَّل.

ღ ღ ღ

قذارة لا تزول

هل تزول نتاج قذارة مجتمع بالغسل كما الملابس ؟ أم تزول القذارة العينيّة لتختبئ خلف ظاهرة نظيفة نواجه بها العالم لننال احترامهم واستحسانهم؟ ونترك القذارة الداخليّة تتفشى كأن نرتدي أفخر الثياب على جسدٍ متسخ وننثر أرقى العطور فوق بدن متعرق، نواري سوأة أفعالنا خلف حجاب كعورة، نقتل الآخرين قبل أن يقتربوا منها ولكن ماذا عن تراكم القذارات والعفن والأوساخ فوق البدن ؟

تفوح الرائحة العفنة، تفوح مهما حاولت مداراتها لينظر لك من حولك بريبة وشك، وترتسم على وجوههم تعابير اشمئزاز. تلك القاذورات المجتمعية التي للوهلة الأولى عزيزي القارئ قد تظنني أتحدث عن أكوام القمامة في الشوارع والحارات وبجوار المباني وداخلها ، ولكن دعني أخيب لك ظنك لقد رأيت أنت وأنا تلك المشاهد حتى اكتفينا ، ربما إن سألتك عنها ستسترسل في الحديث ولكن إن سألت صادمة إياك مواطني البسيط: ماذا تعرف عن الغسيل ؟

ابتسمت ساخرًا ! حسنًا ، تدري ما هي أقوى المساحيق لإزالة البقع عن ملابسك بالطبع ، ولكن هل تدري كيف يتم غسيل أموالك المنهوبة منك ليعاود لصوص المجتمع الراقين ومصاصي دمائك المحترمين صرفها بطريق مشروع قانوني مرتدين ملابس بيضاء كأموالهم لا يشوب أيٌ منها شائبة، تلك الأموال التي تصنعٌ فاحشي الثراء الذين لا يقوى أحد أن يوجه له سؤالًا منطقيًا "من أين لك هذا ؟"

غسيل الأموال هي جريمة اقتصادية في حق الفرد والمجتمع، جريمة تجمع نتاج شتى جرائم الفساد من مخدرات سواء زراعة أو صناعة أو بيع، تجارة الرقيق والرشوة والعمولات الخفية، عن طريق استغلال المناصب القيادية في الدولة لأرباح شخصية، كاختلاس المال العام أو تسهيل لقوى الفساد من رجال أعمال امتد نفوذهم حدّ البطش وليس لهم من رادع، يتمادون في الغش

التجاري والاتجار في السِلع الفاسدة، والتزوير في النقود أو العلامات التجارية والمقامرات والدعارة.

وبعد هذا الكم من جرائم تفوح بكل ألوان القذارة يقومون بغسلِ تلك الأموال الناتجة عن هذا العفن الذي يلتصق بِك وحدكَ عزيزي المواطن، من انهيار لاقتصاد الدولة يعود عليك بالفقر والبطالة أو الخطر، بتفشي المخدرات وتوابعها من جرائم، وسِلع فاسدة وتوابعها من أمراض، وحدّث ولا حَرج ينهار أمن دولة مقابل عدد من رجال عصابات غسيل الأموال يتحكمون بمصيرِكَ داخليًا وبمصير العالم هم ومن على شاكلتهم في سائر البلاد التي تعاني من هذا الفساد.

وتأتي المرحلة التي تعلمها جيدًا وتسمع عنها ولا تعيها وهي تحويل مبالغ وهمية إلى الخارج ليجتازوا مرحلة الخطر ويجدوا الملاذ في ما يسمى بـ "الملاذات المصرفية الآمنة" التي تحمي سرية المودعين فيها، كما أنها لا تدقق في مصادرِ تلك الأموال ولا تطرح سؤال "من أين لك هذا"، كمصارف سويسرا التي بها ما يتراوح من ترليون إلى ترليوني دولار من مصادر محرمة، بالإضافة لبعض مصارف نيويورك ويتحول مالك القذر إلى يخوت أو ماس أو سيارات أو عمولات ومكاسب من صفقات وهمية، ليعود دفقه على دفعات في مصادر مشروعه حيث لا يستطيع أيًا كان إثبات أن تلك الأموال من مصادر محرمة أو غير مشروعة.

عصابات غسيل الأموال من أخطر العصابات على الأمن القومي والاقتصاد الوطني؛ لسريتهم ونزاهتهم الواضحة وصعوبة الإيقاع بهم في ظل التطور من تلك التحويلات المالية الالكترونية التي لا تأخذ سوى دقائق، كما أن أغلب هؤلاء نظيفي اليد لا يمارسون الأعمال غير المشروعة ولا تحوم حولهم الشبهات، إنهم فقط يخدمون رجال الفساد بدعمهم في غسيل المال القذر المحرم لتحويله إلى نظيف ومشروع، يا لهم من نبلاء!

بقلم | سارة محمد النجار.

♡ ♡ ♡

أعاد قراءته للمرة الثالثة أو ربما الرابعة، لا يدري! كلُّ مقال يقرأه لها يثير في نفسه زوبعة من الإعجاب والدهشة والحيرة والغضب، هل من الممكن أن العصفُورة الصغيرة التي تسكن في عِش مكتبه هي نفسه الصقر الجامح بقوته وأفكاره ومبادئه؟ هناك شيءٌ ما خاطئ، هل تتعمد السذاجة معه؟

كيف يمكن أن تكون غامضة في صراحة، صلبة في هشاشة لا يستشعرها سواه، ولكنه يجزم بوجودها، لا يُنكر أن تقييمه لها من البداية كان في محله، إنها مميزة ومختلفة، يدري ولكنها رغم هذا تثير إعجابه وتعجبه

كان يظن أنه قد ولّى هذا الزمن الذي تستطيع أن تُبهره أو تفاجأه فيه فتاة، ولكن يبدو أن لها هي رأيًا آخر، كالآن تمامًا وهو يراها تقتحم مكتبه بهدوء ينم عن راحة بل سعادة.

إنها أخيرًا تخلت عن ملابسها الرسمية التي أمرها بارتدائها مسبقًا كزيّ للعمل بالمجموعة، تلك الألوان الجادة والقمصان البيضاء والمعاطف القصيرة بالأسود والأزرق الغامق والبني مع تنانير بنفس اللون ووشاح رأس يماثِلهم في كونه سادة بلا نقوش وإن كان لونه أفتح، محاولةً لرسم الجدية على هيئتها الحيوية الصغيرة، ازدادت جدية أجل ولكنها ازدادت سِحرًا ينم عن غموض ونضوج.

ولكنها ها هي ترفل في فستان أبيض وكأنه ينقصه أن يراها بتلك الطلة الملائكية الساحرة، طويلٍ وواسعٍ ولكنه يُبرز رشاقة خصرها، بل ليعترف رشاقة وجاذبية جسدها، تُثبت له كم كان أحمقًا عندما تصورها نحيلة.

ينتشر على صدر الفستان وأكمامه ورود بألوان هادئة ربيعية وكأن قطعة من بستان حي اجتثت لتثير ألوان البهجة في مكتبه القاتم المماثل لروحه، حجابها الوردي الذي يزيد من وضاءة وجهها، أم أن تلك الابتسامة المشرقة هي ما تضيئه لا يدري! ولكن يكاد يقسم أنه يرى نورًا يطفو على وجهها وعيناها براقة بلمعة سعادة واضحة، عيناها! هل كل من يمتلك عينًا ملونة تكون فاتِنة على هذا النحو؟ مؤكد لا، بهما صفاء وشقاوة طفولية و. . . .

-سيد آدم.

أجاب بجدية ووجه متجهم:

-ماذا ؟

معجبٌ هو بنفسه، بثباته وشروده الداخلي الذي لا يدري عنه أحد، يُهنئ نفسه في كل مرة يقترب فيها أحد من تفسير ما بداخله أو القبض على ما يفكر فيه حقيقةً في تلك اللحظة فيقفز ناجيًا منتصرًا، يبتسم مُفكرًا لا أحد يقوى على قراءة أفكاره.

هذا التجهم الذي علا وجهها وطفأ بريق عيناها ومحا ابتسامتها كرد فعل لرده الصلب أقوى دليل على جهلها أنه كان هائمًا بها منذ لحظات، بل يستحيل أن تفكر في هذا وفي استحالة إدراكها لمشاعره شموخ رجولته أمام نفسه وأمامها .

كان ينظر نحوها أجل ولكن بوجهٍ غير مُفسر وعينين مبهمتي النظرات.

-ناديتك أكثر من مرة، هل هناك خطب ما ؟

نظر نحو الجريدة الملقاة على مكتبه، تشير أنه انتهى للتو من قراءة مقالها، توجهت أنظارها نحو الجريدة تباعًا:

-هل قرأت مقالي؟

-هل من الممكن ألا أفعل!

-أعجبك؟

-اجلسي.

ابتسم قائلًا:

-أبهرتني، أكثر من رائع.

-حقًا !

أومأ برأسه إيجابًا قائلًا:

-شعرت أني أقرأ لفتاةٍ لا أعرفها، فتاة أتوق للتعرف عليها عن قرب.

ارتسمت الدهشة على وجهها تتساءل في داخلها "هل هو من يتحدث حقًا؟"، تمتمت بخفوت:

-لم أتوقع أن ينال إعجابك إلى هذا الحد، شكرًا لك.

-عندما بدأتِ كتابة تلك المقالات منذ أسابيع وأنا أتابعها وفي كل مرة أشعر أني أقرأ لكِ لأول مرة، مساحات روحك شاسعة، هذا ما يظهره قلمك، لا تتوقفي أبدًا.

ابتسمت بامتنان:

-أعدك ألا أتوقف، سعيدةٌ صدقًا برأيك.

-اضطجع على ظهر كرسيه وأشعل سيجارًا في صمت ثم تحدث قائلًا:

-عليكِ أن تحذري من مواضيع كتاباتِك وتوابعها، إنها أكثر من جيدة ولكن ماذا بعد؟ صغيرتي مهما كتبتِ وهاجمتِ لن تستطيعي تغيير العالم بقلمك أو جعله يسير وفقَ مبادئك، هناك بطش السُلطة وقوة النفوذ التي قد تمحي أشخاصًا ومؤسسات، بل أحيانًا دول! الأمر أكبر مما تتخيلين.

صمتت في حيرةٍ ووجوم، إنه يسحب من رصيد مدح إنجازها الذي منحها إيّاه، كان عليها أن تعي من البداية ألا تثق كل الثقة وتظل على حذرها، تشعر أحيانًا وكأنه يتعامل معها بخطوات محسوبة من قِبله، خطوات لطريق لا تدري ما هو ولكن مؤكد لا يمارس العفوية معها إلا في لحظات معدودة.

-لِمّ الصمت؟ لا يروق لكِ حديثي؟

-أجد به بعضًا من الاستسلام وهذا ما لم أعهده، أدرك أن الطريق وعِر وصعب، في الواقع طريق الحق لم يكن يومًا ممهدًا، ربما لهذا هو حق. علينا أن نحارب ونحاول ثم نحاول وبعد اليأس نحاول وإلا فكيف تقوم الثورات وتنهار عروش وتزدهر دِول وتنهار أخرى!

-أفكار حماسية أكثر منها واقعية، الصواب لا يكفي كونه صواب لينتصِر، ألم تصابي بخيبة أمل يومًا ما؟ ألم تقدمي الكثير وتعطي حتى ينفذ كل ما تملك روحكِ ولا تجني سوى القليل؟ وربما يحدث الأسوأ ولا تجنين شيئًا على الإطلاق. ألم تذاكري يومًا بجد وتعملي بكد لتحصدي صفرًا وتعودي خالية الوفاض؟ ألا يحدث أن تزرعي ورودًا فتنبت أشواك؟ ألا تقوم ثورات ويموت مئات وربما آلاف ويدفنون في طيّ النسيان؟ ويلهو الجميع داهسين بأقدامهم تلك التضحية العظمي، وكأنها لم تكن يومًا فيسود الظلم وتتعدد الظلمات من فقر وجهل وبطالة وقمع حريات وتدنٍ فِكري وانهيار مجتمعي.

-الواقع ليس بهذا السوء.

-بل أسوأ، أنتِ لم تريه على حقيقته بعد، ولا أتمنى أن تريه يومًا أبدًا، فلتظلي هكذا في فقاعتك الخاصة ومدينتك الفاضلة لكن احذري أن تنهار فوق رأسك.

أطفأ سيجارته وامتدت يداه لتسحب أخرى، قطبت جبينها وعبست وهي تراه يشعل سيجارته الثانية على التوالي.

-يضايقكِ الدخان؟

-بصراحة يضايقني أكثر من الدخان ملاحظتي المفاجئة لشراهتك في التدخين!

ضحك بخفوت:

-قصة حب عميقة بيني وبينها، لذة أن تنفث هموم روحك الداخلية فتتطاير على هيئة دخان تراه بعينك يشرد بعيدًا ويتلاشى وكأنه لم يكن تشعرك بلحظة انتصار وإن كانت وهمية، السيجارة تتحمل في صمتٍ كافة إحباطاتي وغضبي دون أن تجزع أو تعترض، إنها تمتص في هدوء كل ما يؤرقني وتعيدني إلي أصفى وأهدى.

نظرت له بكامل التعجب لا تفهم سر فلسفته الغريبة في الواقع، تحدثت:

-ولكن أضرارها تتراكم بداخل روحك، أنت تؤذي نفسك.

ابتسم قائلًا:

-الإيذاء الذي لا يراه سوانا لا يهم أحد ما دام كبرياءه محفوظ، ما يتشوه رئتي وليس وجهي مثلًا، أتحمل أن أموت ألمًا ما دّام في الخفاء، ثم إيذاء السجائر يمنحني لَذة لا أظنني قادرٌ على التخلي عنها الآن، إنها إدماني.

-لا أظنك لا تستطيع التخلي عنها حقًا، أنت فقط لا تريد.

ابتسم وحواسه تسترخي:

-تظنينني بتلك القوة؟

-بل بذاك العِند والكِبر خضوعك يجب أن يكون بكامل إرادتك، أي كما يحلو لك، أتخيل لو كانت السيجارة كائنًا حيًا وشعرت بامتلاكها لك وإدمانك عليها لـ....

قاطعها قائلًا في وجوم:

-لدهستها.

عبست في قلق وتحدثت بخفوت:

-كنت سأقول فقط لأقلعت عنها.

-لا يختلف الأمر كثيرًا.

ودهس سيجارته بحركة منفعلة نسبيًا.

ღ ღ ღ

يخرب بَيت عيونك يا عاليّا شو حلوين... عيونك

هكذا بدأ الخطِاب الذي يمسكه بين بيديه الآن في طقوسه المعتادة من وحدته وضوء غرفة مكتب جناحه الخافت وسيجارته الرفيقة المخلصة.

استقيت حب صوت فيروز العذب منها، لم أكن أسمعها يومًا ولا أفهم معظم كلمات أغانيها، كانت فيروز بالنسبة لي حِكر على بعض النَاس أصحاب المزاج الخاص جدًا، وأنا لم أكن دقيقًا يومًا إلى هذا الحد، هوائيٌ أنا وسطحي بعض الشيء وهذا ما اكتشفته هي على الفور.

في الواقع لقد كشفتني ك كُل، ومن هنا نشأت المأساة على ما يبدو، مهما توهمنا أسبابًا فرعية نُلقي عليها عبء ما كان بيننا وأضعناه، عندما وجدتها تُدندن بتلك الأغنية ذات يوم وأخبرتني أنها لفيروز وأصبحت اهتماماتها اهتماماتي، وحديثها حديثي، ومفرداتها مفرداتي، بدأ الأمر مني للفت نظرها حتى تسربت إلى مسامي كالعِطر وتوغلت في أوردتي كالدم.

شيءٌ مِنّا انصهر في بعضنا البعض ولم نفصِله إلى الآن رغم انفصالنا.

بعد أعوام وأنا أكتب لأُسطر ما كان بيننا سِرًا ولا أدري لِمَ! ربما لأني في الكتابة استحضرها، أراها هنا أمامي تبتسم، تناقش، تدعمني، تشاجر، تحفّزني، ترهقني وتراوغني.

لم أدرك أن تِلك العصيّة في مشاعرها وبوحها تستعصي أيضًا على النسيان، هي كالجرح المفتوح الذي لا يندمل، ينزف سِرًا كلما أجبرت نفسك على مداواته.

امرأةٌ مختلفةٌ كتلك تسكن أقاصي القلب حيث يبدأ وينتهي النبض، تسكن في باطن العَقل حيث الأحلام والخيالات، كم تألمتُ مِنها وتألمتُ لأجلها، بل كم تمنيت وكم هويت وكم حَلمت، حلمت بها إلى هذا الحدّ الذي أَبى عقلي أن يجسدها واقعًا.

جعلت من نفسها مستحيلةً حتى صدقت استحالة واقعها في حياتي، طيفٌ يقترب مني يلاطفني، وكلما حاولت الإمساك به تسرب من بين يدي.

عالية الزهار ذيّلت روحي بتوقيعٍ يحمل اسمها كما لو كنت أحد مقالاتها، وهذا سببٌ كافٍ لحقدي عليها ومحاربة نفسي لطمسها من حياتي وتصديق أني فعلت رغم يقيني الداخلي بسذاجة كذبتي.

♡ ♡ ♡

يجلس شاردًا مهمومًا كما لم يكُن من قبل، كل شيءٍ يدور من حوله في حلقة دائرية مفرغة، لا جديد في أمر الإنجاب، حسنًا قرر ألا يفكر، بصدقٍ تغاضى عن الأمر لينعم بحياة مستقرة، ولكن لم لا يترك البشر بعضهم البعض في سلام.

هؤلاء الأقارب اللحوحين أصحاب الكلمات الفضولية الهازئة والأسئلة المكررة أيضًا لا يهم، لقد اعتاد حتى أصبح لا يبالي، يكفي ردًا على قدرٍ عالٍ من السخافة والحزم، ولكن أساس المشكلة ينبع من منزله الآن.

إنها والدته ما تفوهت به بالأمس أصابه في مقتل وزلزله، يتذكر عودته بالأمس الواحدة صباحًا بعد سهره مع أصدقائه، يُفكر ليتك تكونين نائمة مريم لا أريد أي جدال الآن، ليتفاجأ بوالدته في صالة المنزل اعتدلت من استلقائها على الأريكة فور رؤيته وكأنها كانت تنتظره بلهفة، ترك وجهته نحو الدرج وتوجه إليها:

-أمي لِمَ لا تنامين بغرفتك؟

-كنت بانتظارك.

-إذاً ظني في محله، ماذا هناك؟

مشّطَت عيناها ما حولها وهي تحرك رأسها يُمنه ويسره وكأنها تخشى أن يسمعها أحد، أمسكت بمرفقه وأجلسته بجوارها وتحدثت بصوت خفيض:

-أريد أن أحدثك بأمر هام ولا أود لمريم أن تسمعنا.

تعجب من أمر والدته، لم تفعل هذا يومًا ولكن يحق لها بالطبع، ابتسم بحنو:

-حسنًا حبيبتي ماذا هناك؟

-لقد مر ثلاثة أعوام يا محمود.

فهم على الفور ماذا تعني ولكن لا يدري لِمَ الآن هذا الحديث الذي لا يغني ولا يسمن من جوع:

-أمي، ثلاثة أعوام ليس بالكثير صدقًا .

-وليس باليسير على امرأة عجوز مثلي تنتظر الموت في كل لحظة .

-بارك الله لنا في عمرك ولكن أرجوكِ أمي كفى حديثًا عن هذا الأمر رجاءً، لقد ذهبنا للطبيب أنا ومريم كمحاولة أخيرة منذ أسبوع وليس هناك أي جديد .

-أجل أخبرتني .

-حسنا إذًا ليس بيدنا حيلة .

-يعلم الله محبة مريم في قلبي ولكني أحبك أكثر يا بني فليسامحني الله .

ثم اجهشت في البكاء .

-أمي ماذا . . . ما بكِ؟

ضمها إليه يحتوي شيخوختها وجسدها الهزيل .

-أعلم أنها ترعاني كوالدةٍ لها، تحبك وتحبها، تُحسن إليّ وتخدمني إذا ما مرضت أو احتجت إليها .

-أمي ما الداعي لهذا الحديث؟ ولم بكاءك؟

-لتعلم كما يعلم الله أني لا أتمنى أن أصيبها بأي أذىً أو سوء، أنا فقط أود حفيدًا .

-أي أذىً وأي سوء؟!

تجلدت وتحدثت بكل قوة وجدية وكأنها تود أن تتخلص بالعالق بحلقها :

-تزوج يا محمود .

صمت تمامًا، ليس رغبةً في الإنصات وإنما صدمةً مما سمع .

-تزوج وأنجب أطفالًا يملؤون المنزل علينا حبًا وبهجة، ولن تظلم مريم أنا أعلم هذا جيدًا، ستظل مكانتها محفوظة بل ربما مع الوقت تسعد هي بأطفالك .

-كفى أمي كفى أرجوكِ، أنا عائد مرهق ولدي عمل في الصباح الباكر تصبحين على خير.

صعد الدرج يجر أقدامه وكأن ثقل روحه يقيده ويعيق حركته، يود أن يلقي حِمل ما سمعه على أعتاب حضنها الدافئ ليتخلص منه، لن يحكي بالطبع كي لا تتألم من أمه وتتعكر النفوس ولكن يود لنفسه هو أن تصفو بقربها ويستمد الدعم والقوة من أمان احتوائها له.

وجدها في الفِراش نائمة، قطَّب جبينه متعجبًا! لا تنتظره لتجادله وتحيل ليلته تساؤلات واستجوابات!

همس بقربها:

-مريم، مريم أيعقل نائمة أم غاضبة.

تقلبت عند كلمة غاضبة، فأصبح يرى وجهها، صمتت فتحدث بنبرة حانية:

-الأمر لا يستدعي غضب أو عقاب، لقد تأخرت قليلًا فقط، كفى دلالًا.

اقترب بوجهه منها فأشاحت بوجهها عنه وساوت غطاءها قائلةً بخفوت:

-أطفئ المصباح بعد تبديل ملابسك رجاءً، تصبح على خير.

كاد يظن أنها سمعت حديثه مع والدته ولكن لا إنها عادة مريم مؤخرًا، الغضب السريع كثرة الأسئلة والاستجوابات كلما خرج، غيرة، غيرة تخنقه بحق ولكنه بدأ يدرك أنها خائفة قلقة تعاني الشعور بالنقص، لم تعد واثقة من نفسها كما كانت.

ولكنها لم تثُر أو تعاتب كعادتها، فليدعه من تقلبات مريم المزاجية رغم إحباطه من مقابلتها الباردة تلك، ولكن الكارثة الحقيقية تكمن في والدته، ماذا يصنع معها سوى التجاهل؟ وهل التجاهل حلٌ فعال في الأيام المقبلة؟

استفاق من شروده على وجود رانيا بمكتبه تحدّثه بوجهها الخجول وصوتها الخافت لتُعلمه بضرورة تدبير أمر سكرتيرة خلال الفترة المقبلة لأن حملها يحتاج إلى راحة.

ღ ღ ღ

رفعت وجهها بعد لحظات من توقعها لنظراتٍ تفحصها بتمعن، أجل إنها امرأة شقراء ذات أعين زرقاء لامعة بجدّة رغم برودها !

بتنورتها الجلدية السوداء القصيرة، في الواقع القصيرة جدًا وبلوزة بيضاء حريرية بدون أكمام، نظرت لها بتساؤل ولكنها لم تتحدث، بعد لحظات تحملتها بصبر من الفحص أو التقييم تحدثت المرأة قائلة:

-آدم بمكتبه؟

-أجل آنستي، هل لديكِ موعد مُسبق؟

ابتسمت ابتسامة صفراء ربما:

-لستُ بحاجة لموعد .

-إذاً هلا تكرمين بتعريف شخصك؟

حيّت نفسها على صبرها وحُسن تصرفها "أحسنتِ سارة" .

-جهلك ليس مشكلتي .

عبست وهي تفكر "أهي آتية للشجار" !

دلف إلى المكتب الضلع الآخر لإمبراطورية نور الدين، إنه المُدلل زيادٍ، لم ترَه سوى مرة واحدة على مدار أشهر لانشغاله بأعمال الإمبراطورية خارج البِلاد، هتف قائلا:

-كما توقعت، مؤكد ستهبطين من الطائرة إلى مكتبه .

توجهت بسؤاله:

-من تِلك؟

شعر زياد بالعدائية الواضحة بنبرة سوزان:

-إنها آنسة سارة سكرتيرة آدم .

وقبل أن تعلق على حديثه استطرد:

-أنسة سارة اُعرفِك بسوزان تاج الدين ابنة العم.

تمتمت بخفوت:

-أهلًا.

-آذني لنا بالدخول لآدم سأحدثه عن العمل لن أضيع وقته اطمئني.

ابتسمت بتدارك للطف زياد المقصود:

-بالطبع تفضلا.

دعاها بعد بعض الوقت ليخبرها أن تلغي مواعيده لليوم، يُتابع خطواتها، يُحصي عليها أنفاسها منذ دلفت لمكتبه، يعلم بعدائية سوزان نحوها بعد تعليقها على تواجدها "من هي، منذ متى تعمل عنده" إلى أن تطوع زياد بتبديل الحديث نحو العمل.

ولكن الأهم ما موقفها هيٍ؟ يُدرك أن المرأة تُستثار بالمرأة، هل يمكن أن تغار عصفورته المُغردة أم ستظل هادئة رزينة تحسب ردود أفعالها وتملك رباطة جأشها حتى تثير استفزازه وغيظه؟ بحق توهمه أنها بارده ولكنها غافلة أنه ليس بالشاب الغِر ليصدّق، إنها قنبلة مشاعر مكبوتة في تأججٍ.

التفت إثر حديث سوزان ينظر لها ولا زال على شروده يفكر، سوزان جميلة في برود لا يطاق، إنها ابنة عمّه وفقط ورغم هذا لم يتفاجأ ببردة فعل سوزان، فهي منذ سنوات المراهقة تتعامل معه بتملك، كان يُرضي غروره فيما مضى ثم أصبح يلاقيها بالتجاهل، خاصة وأن لينا منذ انتقل والدها رجل الأعمال الشهير للسكن في حيّهِم وأصبحا جيران استحوذت لينا عزّام على اهتمامه وانتزعت منه مشاعر خاصة!

ღღღ

تسير في الطُرقات ساهمة النَظر تائهة الخُطى، لقد أخبرها الطبيب أن الغسيل الكلوي القائم منذ أشهر أصبح لا يجدي، إن والدتها بحاجة لزرع كلية في غضون أشهر على الأكثر، بالإضافة إلى تحذير أو بمعنى آخر تهديد رئيس التحرير الذي أصر على مقابلتها اليوم ليخبرها أن مقالاتها الأسبوعية أصبحت مثار قلق وذعر، إنها تتعرَّض لرموز وكوادر الدولة! أي رموز وأي كوادر في ظِل هذا التدني الآخذ في الازدياد؟ شِعارات وكَلِمات ساذجة كتغطية لكل ما يدور خلف السِتار من نهب وسِرقة وفساد! كانت تظن أن الجريدة والقائمين عليها لا يشغلهم سوى كشف الحقائِق ونزع النِقاب عن المستور، ولكن اتضح أن حتى أشد الجرائد المُستقلة معارضةً لنظام الدولة تودُّ أن تكون في مقدمة المعارضين وليس بالضرورة في مقدمة الباحثين عن الحقيقة بالوقوف خلف الحق.

لِمَ ننزع الستار بأكمله ونثور فنقتل أو نُسجن ونخسر كل شيء في حين أنه يكفي أن نشق من الرداء الساتر للعفن فتحة صغيرة تتسع حسب المواقف الراهنة، نصيح ونرفض ونكتب ولكن نظل في الأمان فننال دعمًا من الشعب وحصانة منهم كرموز معارضة لا يقوى النظام على قمعهم كي لا تتأثر الصورة المزعومة لحرية التعبير والديمقراطية كما أخبرها رئيس التحرير.

هناك فرق بين الجرأة والتهور، أن أنتقد الظلم أو أن أدعه يدهسني، من خاف سِلم، والجُبن سيد الاخلاق...

تلك الأمثلة لم تأتي من فراغ فلا تدعي حماسة الشباب تطيح بكِ أرضًا.

ღ ღ ღ

دلفت إلى المنزل تود أن تحتضن أمها تحتويها كما فعلت هي مِرارًا، تطمئنها أن الله لن يحرمها وجودها، بل بالأحرى تُطمِئن نفسها.

توجهت نحوها باسمة:

-أفتقدك كثيرًا جميلتي.

ابتسمت بوهن:

-تأخرتِ أيتها المحتالة.

-أنا! أبدًا والله!

-يا سلام!

ضحكا بخفة:

-أخبرتك أمي أني سأمُر برئيس التحرير قبل العودة.

-اه تذكرت وماذا أراد؟

-كما توقعتِ.

تنهدت الأم بتعب:

-فقط لو تطيعيني.

-سيحدث حبيبتي فقط اطمئني.

-من أين لي بالاطمئنان وقد رزقني الله بكِ.

-رزقٌ بهيئة كارثية أعلم.

-أنتِ وحدك وتدرين، فلا تنسي هذا أبدًا، كوني السَند والأمان لنفسِك بدلًا من أن تدمريها باندفاعك وإن كان في سبيل الحق.

-حاضر.

قاطعهما رنين هاتفها، أجابت:

-وعليكم السلام محمود، بخير الحمد لله.

ثم همست "محمود يرسل لكِ السلام ماما"

أجابتها "سلمك وسلمه الله"

ثم استمرت في حديثها مع محمود: حسنًا نصف ساعة وسأكون عندكم، عبست والدتها:

-لا فائدة.

-ماذا هناك ماما؟

-قراراتِك من رأسك كالعادة.

ابتسمت قائلة بمرح:

-لقدت اعتدت الأمر، أولست ابنك البكريّ.

أجابتها بجوابٍ قاطع:

-لا طبعًا!

-أمي هناك قرارات يجب أن تُؤخذ في التو واللحظة، كما أني أُقدّر أن الحُرية مسؤولية وأرعاها جيدًا.

-أدري، حماكِ الله، لا تتأخري.

دلفت إلى الغرفة الأخرى.

-سالي.

-نعم.

-كيف أحوال الدراسة؟

-جيدة

-ما بكِ عابسة؟

-لِمَ لا أتناقش مع أمي كما تفعلين؟ لِمَ لا تحبني بنفس القدر؟ لأنك أفضل مني!

بهتت من حديث سالي ولم تنطِق، لقد انغمسوا في الألم ونسوا أنهم بتجنيبها ألم المسؤولية أذاقوها دون قصد ألم الإهمال.

احتضنتها برفق:

-آسفة حبيبتي، ولكن بادري أنتِ وناقشيها، كوني على يقين أنك رائعة وأنه لأجلك تتحمل ماما الكثير، تحبك أكثر مما تتخيلين ولا تود إلا أن تطمئن عليكِ.

-لأني لست عاقلة مثلك.

-بل لأنك صغيرة، لنا حديث مطول عند عودتي، ماما في رعايتك.

ღ ღ ღ

بمنزل مريم ومحمود

يخيّم وجوم غريب حتى مزاحهما العابر تشعر به مُفتعل، استأذن محمود لصلاة العِشاء بالمسجد، وبعد انتهاء مريم وسارة من الصلاة:

-ما بكِ مريم؟

-لست بخير سارة، سأزورك في المنزل لأرى والدتك ونتحدث بحرية.

أومأت بصمت وبعد دقائق من الحديث العابر دلف محمود عائدًا، تحدثت سارة:

-ماذا هناك محمود أنا في عجلة من أمري.

-لقد تقدم أحدهم لخِطبتِك.

صمتت باندهاش ثم تمتمت:

-أي خطبة؟!

-ما بكِ سارة أنتِ في سن ملائم للارتباط.

-أي ارتباط! لا طبعًا.

-ما هذا الجنون ترفضين دون أي حوار.

-الأمر لا يحتاج لنقاش أو حوار، الأمر بعيد كل البعد عن تفكيري أو اهتمامي الآن.

تحدث محمود بنفاذ صبر:

-إنه صلاح إسماعيل.

ذهلت بحق:

-لا!

تحدثت مريم:

-هل تعرفينه؟

-إنه يعمل في الشِركة معي ولكنه بقسم إداري على ما أظن.

-أجل هو، أنا أراه مبدئيًا لا بأس به، يستحق أن نُفكر ونستخير، لا مجال للرفض لمجرد الرفض.

-ولكن محمود.

قاطعها:

-تحدي خوفك سارة.

أردفت مريم:

-محمود محق، فكري سارة لن تخسري شيئًا.

-حسنًا اتفقتما عليّ! سأذهب لقد تأخرت.

توجهت نحو الباب فلحق بها محمود مناديًا:

-سارة.

التفت نحوه:

-نعم!

-كنت سآتي وأخبرك بنفسي أو غدًا بالشركة ولكن أردت أن تري مريم.

-لمْ نتحدث.

-إنها غاضبة، تخاصمني في برود.

-سنتحدث قريبًا، كن معها يا محمود طمئنها وفقط، تصبح على خير.

-وأنتِ من أهل الخير.

التفت فوجد والدته على نهاية الدرج:

-لم تقفين هكذا أمي؟

-بمَ كنت تتحدث أنت وسارة؟

عبس لوهلة:

-لا شيء أمي، كنت أحثها على التفكير بشأن العريس المتقدم لخطبتها.

-عريس! هل تقدم أحدهم لخطبة سارة؟

-وما الغريب في ذلك؟

فكرت والدته "الأيام تسبقكِ كالعادة يا رجاء":

-لا شيء بني.

-حسنًا أنا بالمكتب.

مرت بهما مريم صاعدة الدرج دون حديث، يدري أنها ستتوجه لغرفتهم منعزلة عن الوجود، صعود مريم للطابق الأعلى شجع والدة محمود على الحديث، لحقت بابنها نحو غرفة مكتبه لتفجر قنبلة جديدة.

ღ ღ ღ

-صباح الخير.

-تفضل سيد زياد السيد آدم لم يصل بعد .

ابتسم من أسلوبها العملي:

-ألا تردين حتى تحية الصباح؟ أدري أنه لم يأتِ بعد ولكني قررت انتظاره بمكتبه قبل انشغال أي منَّا بمهامه الخاصة، إنه على وصول.

أنهى جملته وهو يجلس على مقاعد الانتظار بمكتبها .

-ألا تود انتظاره بمكتبه في الداخل؟

-هنا جيد .

-حسنًا .

أخفضت وجهها نحو حاسوبها فقاطعها:

-كيف حالك؟

رفعت وجهها بتعجب طفيف:

-بخير الحمد لله.

وهي تفكر كيف حالها ! إنه السؤال الأكثر تداولاً والأصعب تفسيرًا والأسهل إجابةً.

-هل يمكن أن تسمحي لي بتناول قهوة الصباح برفقتك؟

عبست بشكل واضح، تحدث بنبرة مرحة:

-تفكيرك وعبوسك يدل أنك سمعتِ عني أشياء مبهرة.

لم تدرِ بِمَ تجيبه.

-أعطيني فرصةً أثبت أن نواياي بريئة وطيبة.

اقترب من مكتبها في حركة سريعة وطلب قهوة وسألها:

-قهوة؟

-بل نسكافيه.

بعد بضع دقائق:

-حقاً؟ هل العائلة لها أصول تركيّة؟

-أجل الأجداد، ألم تري سلالة عائلتنا؟ آدم وسوزان يحملان عيوناً زرقاء نسبةً لجدتنا الأم.

تمتمت: آه أجل.

ابتسم:

-هل صدقتِني؟

-ماذا؟! أكنت تمزح!

ضحك بخفوت:

-طيبةٌ أنتِ، لقد صدقتِني على الفور.

-تكذب عليّ؟

-لا لا أي كذب! ربما كنت أمزح فقط ليهرب عبوسك.

-إذاً ما قلته غير صحيح؟

-عليكِ أن تصِلي للجواب بنفسِك.

-لا لو سمحت أخبرني.

-ربما عليكِ أن ترجيني قليلاً بعد.

نظرت له نظرتها الحادة بحنق فضحِك مبتهجًا، فابتسمت ابتسامة يائسة وكأنها لطفل يلهو بشغب.

كان كل ما يجول بذهن الواقف على باب مكتبها ولم ينتبه إليه أحد هو كيف استطاع زياد أن يتجاذب معها أطراف الحديث، بل كيف رسم تلك الابتسامة الصافية على وجهها، أليس زياد من جنس الرجال الذي تحذره وتتجنبه السيدة سارة؟! ليس أنت يا زياد، لا يمكن أن يكون أنتَ.

-صباح الخير.

التفت نحوه زياد مبتسمًا:

-صباح النور.

مر إلى مكتبه في هدوء قائلاً:

-اطلبي قهوتي.

-حسنًا.

استأذن زياد قائلاً:

-لنا حديث آخر لأخبرك بتسلسل شجرة العائلة.

ابتسم ودلف إلى مكتب أخيه:

-رائعة سارة تِلك.

-امم وماذا أيضاً ؟

-إثارة غضبها مُتعة في حد ذاتها وهذا قلّما تجده في الفتيات.

-زياد إنها تعمل لدي، بل سكرتيرتي الخاصة، فالزم حدودك.

ابتسم أخيه:

-أنا لم أتجاوزها بالأصل، كما أنها لن تسمح للأسف.

ضرب بيده على سطح مكتبه:

-زياد! كُف عن سخافاتك، أمامي يوم عمل طويل.

اتسعت ابتسامته وأومأ برأسه في إيجاب:

-حسنًا أخي الكبير، سنتحدث في العمل.

شرد وهو يفكر في أن زياد يمتلك سحرًا خاصًا وجاذبية متفرّدة، أسلوبه، حديثه، مرحه وبساطته إنه بجوار أخيه يشعر أنه أصابته الشيخوخة، الخواء يصيبه في مقتل، يضحك بلا بهجة حقيقية ويحزن دون ألم واضح.

ღ ღ ღ

بعد رحيل زياد استدعاها؛ ليس ليباشر أعماله ولكنه يود الحديث معها، دلفت إلى مكتبه دقق في وجهها رغم الابتسامة التي منحتها لزياد، ولن يمر الأمر بالطبع ستنال عقابًا يرضيه ولكنه دومًا يتحين الفرص المناسبة لاقتناص ما يريد.

إنها شاحبة وكأنها لم تنَل قسطاً كافيًا من النوم أو قد أضناها التفكير في أشياء لا يعلمها!

-ما بكِ عابسة، هل ابتسامتكِ ووجهكِ الصبوح يختص بالجميع عداي أنا ؟

توقف عقلها للحظات، لم يستطع أن يترجم حديثه فأجابت:

-ماذا؟

-أجاب بجدة:

-لقد سمعتِني.

حدته وغضبه موجهٌ لنفسه وليس لها! ما كان عليه أن يكشف نفسه هكذا، كيف دفعته ليختل توازنه وقناعه البارد، عليه أن يقوم بتبخير الموقف من عقلها ليطير!

ماذا إن فكرت أنه يغار؟ وكأن أحدهم لكمه في بطنه، ترك القلم من يده ومرر كفه عبر شعره في حركة شبه متوترة:

-عذرًا سارة العمل يصيبني بنوبات من التشتت والعصبية، مؤكد اعتدتي الأمر.

-أجل لا بأس.

لم تحتَج أن تُفسر ما يمر به أو ماذا يعني، لقد اجتازت تِلك المرحلة، مفتاح التعامل براحة معه ألا تأخذ كل ما يصدر عنه على محمل الجد حتى لا يصيبها الجنون، إنها نوبات مزاجيته فلا بأس هي تحمل الآن من هموم تثير التفكير ما يكفيها.

-ألن تخبريني كالعادة ما بكِ؟

جلست أمامه صامتة باهِتة نظرها إلى الأسفل.

-سارة!

رفعت وجهها إليه، ابتسم قائلًا:

-تكلمي.

-أمي مريضة بعض الشيء، و... ورئيس التحرير غاضب من مقالاتي.

هكذا هي تُبسط الكوارث الحياتية لكيّ لا تثير تعاطف من يسمعها، وكأنها تسخر من عوائق حياتها لتقوى على اجتيازها، تتحدث بصوت عالٍ لنفسها أولًا "مشكلة وستمر، ستمر، يومًا ما ستمر".

-ما بها والدتك؟ هل هناك أمر خطير؟

تهدج صوتها وتحشرجت أنفاسها، ستبكي! يا لله يجب ألا أفعل:

-أبدًا، ستكون بخير إن شاء الله.

-إن شاء الله، وماذا فعل رئيس التحرير؟ لم يتحمل شغبك أليس كذلك؟

-لم أُشاغِب، إنه يود توقيفي عن الكتابة في باب حال المجتمع.

-أخبرتك أن تتوخي الحذر سابقًا، مقالاتك أصبحت تحمل تصريحاتٍ عن أسماء قادرة على غلق الجريدة نفسها وإحالتكم جميعًا لمعتقل.

ركزت كل تفكيرها على حديثه لتهرب من أمر والدتها:

-أتظن أن تلك الأسماء الخاصة بكوادر الدولة من أكبر منصب بها إلى أصغرهم يَخفى على الناس أنهم سبب ما وصلنا إليه؟ الكل يدري وصامت، الكل يدري وخائِف، الكل يدري وضعيف، الكل يدري ولكن فقد إيمانه بوطنٍ كما يحلم، فقد إيمانه بأن يخسر نفسه أو ذويه لأجل سراب فقرر الصمت والمشاهدة.

-ها قد قلتِ قرروا الصمت والمشاهدة، أنتِ لا تضيفين جديدًا، الفساد نسبح فيه منذ أعوام، البعض يخترقه بيخت والبعض بمركبٍ وآخرين بزورق صغير يواجه تلاطم أمواج بحر، الفساد بخطر، يرون على مقربةٍ منهم جثثًا طافية لضحايا مغامرين قرروا اجتيازه إلى اليابسة دون أن يروا بأعينهم اليابسة أصلًا، ففقدوا حياتهم هباءً، لا تغامري صغيرتي.

-كل الثائرين بحق وأصحاب النجاحات الخارقة، مَن تسلقوا جبال المجد الشاهقة كانوا غُرباء مغامرين، الأكثر نعتًا بالجنون، ولكنهم أضاءوا أرواحهم بقبسٍ من نورٍ أضاء ما حولهم.

حل الصمت، الصمت البليغ الذي تعجز الكلمات عن وصفه.

-أزعجتك بحديثي؟ أعلم أن أفكارنا مختلفة ولكن. . .

قاطعها:

-ألم تسمعي بمقولة نزار "الصمتُ في حرمِ الجمالِ جمالٌ"؟

صمتت فاستطرد:

-كما أن أفكارنا ليست مختلفة، كُل ما في الأمر أني أتحدث من مُنطلق خوفي عليكِ.

قضبت جبينها قائلة:

-عفوًا!

-أجل أخاف عليكِ سارة، لا تهوري رجاءً، لقد توصلتِ لمرحَلةٍ مِن النُضج المؤذي، تحتاجين بعضاً مِن السطحيَة أو رُبما الجنون.

عليه أن يفخر بنفسه لقد أربكها حقاً، تحدثت بجفوت:

-سيد آدم.

-آدم فقط.

رفعت وجهها بتعجبٍ كامل:

-ها!!

-آدم فقط، على الأقل فيما بيننا.

-سيد آدم.

قاطعها:

-آدم فقط.

-سيد آدم.

-آدم فقط.

-سيد آدم.

لم يملَّ من مقاطعتها وترديد اسمه على مسامعها وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، إن ما يحدث يروق له حقًا، التفاصيل بينهم مبهجة دون تصنع أو اختِلاق.

ظلَّ الأمر على هذا النحو يقاطعها باسمه كلما حاولت إيقافه دون أي تعليق آخر، ردود سريعة بانفعال، حتى تفوهت باسمه بنبرة عصبية جراء ملاحقته:

-آدم.

تلوَّن وجهها بحُمرة الخَجل فور تداركها للأمر، اتسعت ابتسامته وهو ينظر لها قائِلًا:

-علينا أحيانًا أن نتقبّل الهزيمة ولو مرة واحدة في الحياة سارة.

وكأن كلماته تحمِل معنىً أكبر من مجرد نطق اسمه، أجابت:

-ربُما، ولكني لم أُهزم حتى الآن.

أجابها بثِقة:

-سوف تُهزمين ذات يوم.

نظرت له بحنقٍ فأجابها بحنو:

-لا تغضبي هكذا! الهزيمة مذاقها ليس مُرًا على الدوام، هناك بعض الهزائم التي تفوق حلاوتها حلاوة النصر، فالهزيمة مثلًا على يد من تحبين أمرٌ عظيم.

-ولِمَ عليّ أن أُهزم أصلًا؟

-تِلك هي طبيعة بعض علاقات الحب.

حركت رأسها بخفة بتعبير يشير إلى الرفض:

-الحب ليس حربًا، إنه سحابةٌ من سماءٍ الجنة، يتميز بالوضوح والصِدق والأمان، ترابط لا ينتهي، علاقة نمنح فيها أرواحنا بِرضاً تام، شخصٌ نرى فيه النقاء وانعكاس عبادتنا لله.

تحدث مذهولًا:

-هكذا ترين الحب؟ الأمر أبسط بكثير، قداستكِ الزائدة عن الحد فيه

سوف يفسِد عليكِ الشعور به، الحب أبسط وأسهل، شعورٌ متبادل يمنح كل طرفٍ الآخر ما يحتاجه ويرضيه ويسعده.

-ربما، لا أعترض على هذا ولكن ما دخل الهزيمة هنا.

-الحب ملازمٌ للضعف، الضعف الذي قد يكون بجد ذاته هزيمة مُستترة.

-أجل، ولكن الضعف المصاحب للحب الصادق لا يعني هزيمة، كما أنه كلما تميّزت الفتاة بالوعي والقوة تضعف بإرادة حرة.

-ليس بالضرورة أن ضعف المرأة القوية نابع عن حب صادق من الرجل، قد يجعل الرجل أنثاه القويّة تتلذذ بضعفها أمامه فقط إن كان يملك الكثير من الحب أو الكثير من الدهاء!

-ورغم هذا إن كانت تمتلك البصيرة المستنيرة والإحساس الصادق سيأتي اليوم الذي تُميّزِ فيه مدى صدق الرجل في مشاعره نحوها.

-ولكن بعد أن يكون حسم الأمر لصالحه وسطا على قلبها، كما أنه متى ما تغلّبت عواطف المرأة على عقلها انتهى الأمر.

-صَدقت، لهذا على العقل ألا يغفل أبدًا.

تحدثت وكأنها تحاكي نفسها:

-والآن اسمح لي لدي أعمال عالقة بالمكتب.

-أغضبك حوارنا؟

-أبدًا .

-أتدرين أنا يسعدني حديثنا .

سحب سيجارًا وأشعله قائلًا :

-قَلَّما أجد فتاة مثلك يعمل عقلها وقلبها جنبًا إلى جنب .

-بل الغلبة للعقل .

-ليس دائمًا .

-سأعمل جاهدة لأحتفظ بالغلبة له أطول فترة ممكنة .

-تحدٍ مثير .

-ماذا تعني؟

-لا تهتمي، والآن هل ستحذرين في مقالاتك القادمة؟

-سأحاول .

-بل ستفعلين .

-ان شاء الله .

ღ ღ ღ

من المستحيل أن يفعلها محمود إن كانت مريم بداخل دوامة التجربة والخوف من القادِم، فهي تتذكر جيدًا سنوات خِطبة وزواج مريم ومحمود أنهما مثاليان متحابان، قَلَّما تجد ثُنائي تشعر بينهما بالانسجام الحقيقي والترابط الروحاني الذي تشعر أنه من صُنع الله وليس البشر، تتذكر حديثها :

-أعرف، محمود نقطة ضعفه الوحيدة والدته، إنه يقدسها سارة، لا يعصي لها أمرًا .

ترقرقت الدموع بعينيها:

-لقد، لقد سمعتهما سارة دون قصد، لقد أخبرته أنها لا تودني أن أسمع، فانتظرت لأسمع رُغمًا عني وجدتني أتسمر كنت أشعر أنها ستطلب منه ما طلبت، كنت أشعر بل كنت أنتظر ذلك اليوم، إنه حتى لم يرفض، لم يعترض، فقط تجاهلِ الأمر دونِ أن يضع له حدًا وهو يدرك أن والدته لن تمل من الإلحاح. ربما، ربما هو أيضًا يبتغي وريثًا لعائلته وأن يُبهج والدته ونفسه، ربما أصبحت عقبة في حياته.

وانخرطت في بكاءٍ مرير، لم تجد سارة كلمات، أيُّ كلماتٍ تلك التي تفلح في تَضميد جرحٍ نازف، احتضنتها وفقط، حضنٌ بعمر صداقتهم وصِدقها، حضنٌ بمدى آلامهم وترابطهم، حضن الأصدقاء نورٌ للروح وتطيُّبٍ للنفس وجَبرٍ للخاطِر.

أخذت تُهدهدها وتقرأ عليها آياتٍ من القرآن الكريم حتى غفت كالأطفال، سويعاتٍ قليلة مرت وإذا بهاتف مريم يدق باسم محمود:

-هل آتي لأقلَّك للمنزل؟

-محمود هذه أنا سارة.

-سارة! أين مريم.

-إنها نائمة.

-نائمة؟ ما بها؟

-كل شيء.

-ماذا تعنين؟!

-غدًا بالشركة نتحدث محمود، دعها تنم في سلام، عندما تستيقظ حتمًا ستتصل بِك لتأتي وتقلَّها للمنزل.

ღ ღ ღ

تتصفح رسائل البريد الالكتروني في الصباح قبل العمل لَتَسْطُع رسالة من رئيس التحرير كشمس مشرقة أضاءت يومها "عالية الزهار ستصل إلى البلاد الأسبوع المُقبل لحضور فعاليات المهرجان الأول من نوعه "صحوة الأدب والإعلام العربي"، أعلم مدى ولعِك بها وأنها مثلك الأعلى، عليكِ اقتناص لقاء صحفي معها، أريني قدراتك.

أنتظركِ مساء الغد بالجريدة، بالتوفيق"

كُل ما فيها كان مبتهجِ ومندهش، عيناها على اتساعهما في لمعة واضحة، وابتسامتها لا يتسع لها وجهها، تُمتم:

-عالية الزهار! عالية الزهار هنا؟ يا الله يا الله!

تحركت من على كرسيها في تقافز طفولي وهي تُصفق بيديها في مرح دون وعي تقريبًا، استفاقت على ضحكاته، قلما تجده يضًحك:

-ما بكِ؟ ربحتِ اليانصيب؟

أجابت ببهجة:

-بل أكثر.

-حسنًا أيتها الشقيّة، اطلبي قهوتي وتعالي لتخبريني ما سِر تلك البهجة العارمة.

-سأخبرك.

-بانتظارك.

دلفت إلى مكتبه:

-قهوتك.

ابتسم في صمت ثم تحدث:

-ما بكِ؟

-أعتقد أن حلمًا من أحلامي على وشك التحقق، أتدري أنا لا أذكر أني كنت سعيدة أبدًا في أي وقت قريب.

-يعني مثلي.

-مثلك!

-أجل ولكن تسعدني سعادتك، ابتهاجك كطفلة، حديثك الآن معي بكل راحة.

-لا أدري بِمَ أجيبك حقًا، شكرًا لك.

-أجيبيني بسر سعادتك، أم هو سرٌ غير مسموح بالإفصاح عنه لي؟

-لا أبدًا، أعلم أنك غير مهتم بالأدب أو...

قاطعها:

-أصبحت أهتم.

-حقًا! منذ متى؟

-منذ أن أصبح محور حياتك.

هل كلامه يعني شيئًا؟ عليها أن تقتنع أنه لا شيء، لم تُعلق واسترسلت:

-حسنًا إذًا مؤكد قد سمعت عن عالية الزهار.

صمت للحظات، انسحبت منها علامات وجهه من ابتهاج وابتسامة:

-أجل أكملي.

-أتدري إنها مثلي الأعلى.

كادت أن تفلت منه ضحكة ساخرة عالية، ما الذي يحدث معه؟ عالية الزهار وسارة محمد! يا إلهي متشابهتان، متشابهتان في تماثل يقتُله! إنهما يملكان نفس الوجه المُشرق

بابتسامته، بملامحهم التي تتميز بالثِقة والصِدق والذكاء في جَمال مميز، نفس المبادئ والشخصية، بل نفس المواقِف من علاقتهم المعقدة بعائلة نور الدين.

هل اختار سارة لشيءٍ في نفسه أم لشبهها بعالية؟ ولِمَ يتفاجأ؟ لقد اختارت سارة كالعادة ما يُزلزل ثباته، ألم تجد سواها؟ ولكن لِم تتخذ عالية الزهار قدوة ومثل أعلى وهي نسختها المصغرة!

-أين ذهبت بأفكارك؟

-معكِ.

-تحدثتُ كثيرًا؟

-أبدًا حديثك الكثير مِنه قليل.

-ستأتي الأسبوع المقبل وعَليّ أن أنسق معها للقاء خاص بالجريدة.

-عالية الزهار ستأتي هنا؟

-أجل.

-وهذا سر بهجتك؟

-بالطبع!

-تحبينها لتلك الدرجة؟

-إنها امرأة قوية ذات شخصية تسمو فوق الهُراءات، عقلٌ واعٍ ومثقف، مبادئ راسخة، تكون بجانب الحق على الدوام بنقاءٍ لا تشوبه شائبة، إنها مثالية.

تمتم بخفوت:

-مثالية! متى موعد إجراء مقابلتك معها؟

-لم أحدد معها موعد بعد.

فُتِح الباب وانطلقت منه شُعلة سوداء! بشعر أسود يصل للكِتف وعينان سوداوان حادتان، ينطلِق منها شرارٌ عدائي، سرعان ما حاولت مداراته بابتسامة:

-آدم اشتقت إليك.

وقف في ذهول نسبي:

-لينا!

نظرت له بشوق مستعار ولكن سرعان ما حولت نظرها للجالسة على كُرسي مكتبه:

-اعذرني عزيزي اقتحمت المكتب، ولكن لم أجد أحدًا على مكتب السكرتارية، أليس مكانك بالخارج يا آنسة؟

رغم مفاجأة الموقف إلا أنها حاولت استعادة ثباتها وابتسمت بودٍ قائلةً:

-أجل معذرة.

-كعادته آدم طيب القلب مما يجعل البعض يتهاونون في إجادة عملهم.

-معكِ حق، إنه طيب القلب، بالإذن.

وتحركت مغادرةً المكتب وهي تلمحها تقترب منه، مؤكد لتعبر عن شوقها إليه.

سوزان ولينا وتتوالى نساء إمبراطور آل نور الدين.

ღ ღ ღ

تحركت ذاهبةً لمكتب محمود، لقد خمنت أن "لينا" ستستغرق بعض الوقت برفقة مديرها، ذهبت محاولةً إقصاء أفكارها ومشاعرها عن ما يُمكن أن يدور بينهما، استأذنت من رانيا للدخول إليه واستغرقت بعض الدقائق تطمئن عليها وعلى حملها لحين إنهاء محادثته الهاتفية.

-كيف حالك سارة؟

-الحمد لله، المهم هو حال مريم.

-أجل، لقد حاولت بشتى الطرق إثارة حديثٍ فعلي معها ولا فائدة، ما بها؟ مؤكد حدثتك.

-نعم حدثتني بالأمس.

استنشقت نفسًا عميقًا ورأسها يدور من التفكير.

-لا أدري من الصواب أن أخبرك أم لا ولكن...

-سمعت حديث أمي؟

أومأت بإيجاب قائلة:

-نعم، كنت على وشك إخبارك فقط لتلتمس لها عُذرًا و....

قاطعها بغضب:

-وأنا من يلتمِس لي عُذرًا؟ إنه مجرد حديث عابر، تدري تمامًا أنني لن أُقدم على خطوة واحدة في هذا الأمر، ماذا فعلت أنا لأتحمل عصبيتها وصراخها على اللاشيء؟ مريم تحيل حياتنا إلى جحيم، إما الشجار أو الخِصام، لم يعد هناك بديل، إنها لاتدع أي مجال للتقارب أو التفاهم، عليّ أن أعمل وأتحمل مسؤولية ما نلقاه في العمل تلك الفترة، وأتحملها بعصبيتها وشكّها وضيقها الملازم لها طول الوقت، وأن أتصدى لأمي وأتحمل ما تمارسه من ضغوط عليّ وأن أحيا معهما بنفس المنزل وكل منهما تود الاستئثار بي، وأنا! أين أنا من كل هذا؟

ذهلت من انفجاره غير المتوقع، تمتمت بخفوت:

-محمود إنها مريم، أنت أدرى الناس بها، عليك أن تشعر بما تشعر به.

-وأنا من يشعر بي؟ لقد اكتفيت، أجيبيني ما الذنب الذي اقترفته؟ لِم تراني في صورة الجاني وأنا لم أفعل شيئًا؟

-ربما لأنها تعتقد أنك يومًا ما ستفعل.

-وحتى يأتي هذا اليوم المزعوم تعاملني كجانٍ لم يقترف خطيئته بعد، أليس من المفترض أن أُعاقب على شيء فعلته فعلًا؟

ذهلت للحظات وتحدثت بانفعال:

-أها كلام منطقي! فافعلها وتزوج يا محمود حتى يكون لمعاملة مريم أساس من الصِحة بدلًا من الجحيم الذي تحياه دون مبرر.

صمت للحظات يُدرك ما توصل إليه الحديث، وضع ساعداه على مكتبه واتكأ برأسه عليهما. تمتمت:

-محمود.

استقام في جلسته رافعًا وجهه نحوها، إنه منهك ملامح التعب تطفو على وجهه:

-ابتلاء يا محمود، مِحنة وستمر، سأتحدث معها، تحاورا رجاءً تمسكا فيما بينكما، كلاكما مُرهق وبحاجة للدعم والمساندة فالتمساه من بعضكما البعض.

حاولت التحدث بنبرة شبه مرحة:

-أنتما مثلي الأعلى في الاستقرار الأسري، رؤيتكم هكذا ستدفعني للعنوسة.

-أجل أجل وأنتِ أيضًا ضغطٌ بحد ذاتك.

-أنا! سامحك الله يا محمود.

-سيسامحني، هل فكرتِ بأمر خطبتك لصلاح؟

ضربت بباطن يدها على جبهتها بحركة سريعة:

-هل تصدق، لقد نسيت أمره تمامًا.

-الصبر يا رب، الرجل ينتظر ردًا، كفى استبدادًا.

-لست مستبد .

-واضح!

-محمود انهِ الأمر وارفع عني الحرج رجاءً .

-سارة أنتِ لم تفكري بالأصل.

-لا أريد الارتباط الآن.

-رجاءً سارة.

-ما بك محمود؟

دلف إلى مكتب محمود، لقد قام بتوصيل لينا خارج مكتبه على وعدٍ بموعد عشاء قد انتزعته منه انتزاعًا، ليجدها ليست على مكتبها! لقد غادرت هكذا ببساطة وكأن وجوده برفقة امرأة لا تعنيها، ربما لثقتها أنها تفوق لينا جمالاً وجاذبية، بل ليعترف أن سارة تتفوق عليها بمراحل، ولكن أن تغادر!

لقد تعمد إيصال لينا للباب الخارجي لمكتبه، شعر وكأنها وجهت له صفعة مفادها "أنت لا تعنيني كما تتصور"، تمنى لو يقبض بيديه عليها عساه يقتلها ويستريح، بالطبع لم يفت لينا أن تعلق ساخرة:

-سكرتيرتك الصغيرة ليست هنا! كم هي ملتزمة بتعليمات العمل! انتظرك مساءً .

دلف هاتفًا:

-أنتِ هنا!

انتفضت من على الكرسي المقابل لمكتب محمود لتواجهه:

-كنت آتية حالاً، عذرًا .

صرخ فيها:

-ما الذي دفعك لترك المكتب؟

إنه غاضب! أتركها المكتب هو حقًا ما أغضبه لتلك الدرجة؟ تدخل محمود قائلًا:

-كنا نناقش أمرًا هامًا آدم، عذرًا يا صديقي أخرتها بعض الوقت.

تُدرك أن محمود يمتص غضبه، حسنًا لقد مر الموقف بسلام! ولكن ظنها لم يكن بمحله حيث أتى صوته سائلًا:

-ما هو الأمر الهام؟

-أمور خاصة آدم.

-أي أمورٍ خاصة بينكما محمود؟

-لقد كنا نتناقش بأمر العريس المتقدم لخطبتها.

ألا يكفي ما لاقاه منها هذا النهار، بدءً من عالية الزهار ومغادرتها للمكتب بلا أدنى اهتمام والآن، الآن! لم تطِق صبرًا لتناقش محمود بأمر خطبتها! لقد تصور أنه قد قطع شوطًا لا بأس به من التقرب نحوها، إنها ترتاح برفقته، تتعلق به دون أن تدري، لا يمكن أن يكون هذا سراب، ليس ساذجًا أو عديم خبرةٍ، إنها مُتأثِرة به، مثله تمامًا حد خنقها الآن.

صمت، صمتٌ أخذت سارة تلعن فيه تصرف محمود، سيوبخها ويخبرها أن أمورها الخاصة تنهيها في غير أوقات العمل، تحرك مغادرًا دون تعليق قائلًا:

-اتبعيني حالًا.

ღ ღ ღ

لم أكُن أُدرك بعد أن المرأة المُميزة تجذب الرجل متى ما حَلَّت في حياته، تِلك القَوية الذكية المرحة بعنفوان طِفلة، والوقورة بنضج حَكيمة، صاحبة الرونق الخاص والاختلاف اللذيذ، تستمتع بجدالِها ويتَابك شغف التواصل معها، صاحبة الطلّة والحضور اللافِت للعقول قبل

الأنظَار، ولكنها غالبًا لا تأتي في وقتها الصحيح، تأتي بعد خراب الروح فتشعر أن نقاءها يجرحك أكثر من كونه يُسعِدك.

مؤلم أن يبتليك الله بفتاة نقيّة في حين أنك تعرف الشخص الذي تحولت إليه جيدًا، تتخذ رُغمًا عنك زاوية خاصه جدًا مدفونة بباطن العقل، مُغلقه عليها خشية أن تفرض سيطرتها على العقل بأكمله فتتحول لهاجس يمقته غرورك الرجولي الخاوي.

عند حضورها تراقب بصمت، تنظر لها مِلأ عينيك وقلبك وعقلك حتى تقوى على استحضارها في خِلوتك وأحلامك، حيث تُغافل نفسك ولا تقيم لها مُحاكمة، تسخر منها وتستهزئ من كون إحداهن قد تملكت مِنك إلى تلك الدرجة!

مرت سنوات ولا زلت أستحضرها وأخشى أني سأظل حتى النهاية، توقعت أنه أيامٌ وسأنسى لألهو في الحياة وأعود!

أشهر وأنسى، ألهو وأتذكر، سنوات كافية لمحوها وتبقى! أتساءَل لِمَ تظل رُغم كُل شيء، تحتل تِلك الزاوية الخاصة بها، وجدت أن بعض النساء لا يجدر بك التخلص من وَقع سحرهن عليك حتى وإن ادعيت حينها عشقك لأُخرى!

انغمستُ في مشاعر شهيرة أتقنت المظاهر التي كانت لا تطاق بالنسبة لي فيما مضى، المجلات والصُحف، الدعوات العامة وحفلات الأصدقاء، ضحكات وصور مُنمقة وابتسامات واسعة خاوية وأعين براقة، لا بنشوة السعادة وإنما بنشوتي المختلسة، نشوة الانتصار عليها.

أُراقب تسلقها لدرجات طموحها بثبات وأتصارع بين فخري الخفي بها وأنها تصل لكل ما تعاهدنا عليه يومًا أن تكونه، وبين حقدي عليها كونها استطاعت أن تتجاوزني وتطفو فوق كل الآلام التي جمعتنا وكأنها لم تكن، وكأنها تتبرأ من معرفتي يومًا.

أتمادى في إيلامها لأنها من بدأت في تشويهي في عين ذاتي، تُخبرني دون حديث في كل صورة أراها تبتسم فيها وكل مقالة تنشرها في صحيفة وكل لقاء تليفزيوني أنها تعلم أني هش، إنها تعلم ماذا كانت تعني لي! تعلم أنها خَلّفت فراغًا لم تملأه شهيرة مهما بالغنا في الظهور كعاشقين.

في الواقع إنه فراغ لم يتواجد قبلها كي تملأه أي امرأه بعدها، إنه شيء لا أدري وصفه، خلقتُه لها ومنحتُه من روحها وتركته يعربد في روحي ورحلت، إنها تعلم أني أحتاجها وأني غير مكتفٍ بدونها وأن وطني دفء حضنها وأمانيَّ تربيته من يدها على كتفي كما طفلٌ صغيرٌ، وهذا ما يدفعني للجنون في محاربتها بهدف إثبات العكس، كي أرتاح، كي لا أشعر أني وحيد دونها وآدم وحده هو من منحني القدرة على المتابعة، كلما نظرت في وجهه وجدت أني مؤكد انتصرت بشكل أو بآخر.

ღ ღ ღ

يلقي بالورقة المهترئة على سطح المكتب، ينظر نحوها بشرود، يحرق إصبعه رماد سيجارته فيطفئها في تلك الورقة اللعينة ماحيًا تفاصيلها الباهتة، أي هزل أي ضعف مقيت هذا الذي قرأه، وأي اعترافات مستحيلة تِلك التي سقطت بيده إذا كان رضوان نور الدين بجبروته وسُلطته التي مكّنته من مد جسور عرش آل نور الدين عبر البلاد هو ذلك الرجل العاشق الميؤوس من عِشقه نحو امرأة امتلكها بعضاً من الزمن واستحالت، حتى تصور أنها لم تَمر وأن وجودها كالطيف نشعر به نراه في خيالنا ويستحيل أن نقيم فيه كواقع وحياة يومية دائمة.

يُفكر ماذا لو كانت أبسط؟ ولكنها بسيطة بالفعل! تخلل أصابعه خصلات شعره بحركة متواترة عصبية، إنه لأول مرة عاجزٌ عن فهم ذاته وعن تحليل غيره، لطالما تصور أن النساء صفحات مكتوبة مفتوحة ملقاة على منضدته الخاصة ينتظرن في كل لحظه أن يلقي نظره ويقرأ سطرًا ويرحل مخلفًا ابتسامة، إنه متورط، متورط جدًا فيها، لا يقوى على الاستمرار معها أو التخلي عنها والانسحاب بمنتصف الطريق مخلفاً خلفه هزيمة أسقطت مجد كبريائه في أوج توهجه.

إنه الآن غارقٌ بمنتصف طريق اللانهاية، ويُدرك أنها الموج الغادر والسفينة المنقذة، لم تَمر عليه فتاة استنزفته بقدر ما فعلت، إنها تمتص طاقته كاملِة، عقله دومًا يدور معها ولها وبها وفيها.

يتنهد كم مريحات النساء اللواتي تقوى على تسوية أمورك معهن وأن تحتفظ بنفسك لنفسك كاملًا، دون تعدي منهن على روحك وترك بصماتهن اللعينة أو استنزافك حيث ما تصلح لشيء سوى أنك معها، وكأنه يكفيك فخرًا أنك تدور في فلكها وأنها تعكس نورها الوهاج كشمس فتضيئك كقمر، يدرك جيدًا أنها منبع النور والدفء، وعندها يبدأ كل الكون وينتهي.

كونها أصل الأشياء ولكن ماذا إن أخذ وهج الشمس فالازدياد، سنحترق، كل شيء يحترق، لن يقوى على تحجيم سطوع شمس روحها ولكن عليه أن يتذكر دائمًا أن ينجو قبل الاحتراق!

لقد كان ينتظر، ينتظر أن تكسر بإرادتها الحرة إحدى قواعدها الغالية جدًا عليها، والتي لا تعني له شيئًا في الواقع ولكنه يتصنع دائمًا كونه متفهم لها ولتلك الحصون المغيظة التابعة للعصر الحجري، إنه يتفهم طبيعة مبادئها وقيودها التي فرضتها على نفسها وخجلها المستفز، أجل يتفهم لهذا من المحال أن يكون هو من دفعها نحو الاستسلام، متى يطمئن أنه أفسدها بعض الشيء لتكون كفأً له، أن تقبل بما يغويها به هذا الشيء المبهر غير المحدد ماهيته، أن تتوه فتختلط لديها الأشياء والأولويات والمبادئ وتثور فوضى مشاعرها الحبيسة عليها فتخنقها حيث لا يعود لها منفذ سواه فيتكرم ململمًا إعصار عواطفها بإتقان ونشوة خالصة، يهنئ فيها نفسه متى تخرج من شفتيها كلمة حب أو غزل صريح، أو يلمس يدها ولو في مصافحة عابرة، أن تخرج يومًا معه في موعد لتغادره مسلوبة القلب، متى تمنحه ولو جزءًا يسيرًا منها كبداية لطرف خيط يسحبه بمهارة حتى يبتلعها ككل.

إنها تقدس الكلمات كماسات تنتقيها بعناية، التفاصيل تُبهجها بشكل جنوني وحرصها على عذرية أصغر الأشياء الملامِسة لروحها، أصل كل اختلاف معها أنها لا تمنحه الفرصة الكامِلة أبدًا حتى وإن بدا عكس ذلك، يُدرك هو كما تدرك هي أنها لن تسمح له بأن يخترق دفاعاتها العاطفي يومًا.

تَهزمه دون أن تدري في كل موقف يُهاجم فيه روحها مُقررًا أنه سيعبر ذاك الحصن الواهي ويتملكها أسيرة، تهزمه ببساطة ببراءة كلمة أو رفض صريح مهذب يود حينها لو يقتلع قلبها من

بين أضلعها، تشعل فيه حطب الغضب دفعة واحدة وتجبره على كتمانه، يجب أن يشكرها؛ لم يكن يومًا صبورًا منضبطًا في ردود أفعاله هكذا إلا معها، يتذكر منذ أن بدأت في العمل لديه لقد مر ما يقارب العام، عام كامِل وما لذي جناه منها؟ لا شيء!

لا شيء على الإطلاق، وكأن ابتسامتها الصباحية كل يوم وسؤالها عن حاله يكفيه، بل أكثر مما كان يَحلم، كيف تهاون وتناسى نفسه حتى وصل لتلك الدرجة من الحاجة والضعف! منذ أن بدأ بالتحدث لها عن بعض من معاناته بهدف الاقتراب لا أكثر حتى أصبحت دواخله تتساقط على مهل كساعة رمليّةٍ بين كفّيها.

خطوة لم يَكن يعلم أن تَبعَاتها ستجعله ينتظر، سؤالها عن حاله كُل صباح وإنصاتها باهتمام وكأنه محور الحياة لها، والختَام بابتسامة وكأنها تربيتة دعم، أي هذيان هذا! أي حماقة يرتكب في حق نفسه حينما تَحِل صورتها على حياته، لقد أُفلتت الأمور من يده، عليه أن يشد وثاق زمام أمره وإن التف حول عنقها، لن يتركها تُفسد مساحته الخاصة وسلامه الداخلي الذي يحتفظَ به بعيدًا عن العمل والنساء، مهما انشغل قلبه وتورط يظل عقله يقظ لا يضعف ولا يركن، لن تنتصر على عقله، لا زال يذكر حديثهما عن المدعو صلاح، لقد أعطاها فرصة لإنقاذ نفسها.

-امم ماذا الآن يا عروس المستقبل؟

-أي عروس؟

-ألستِ متلهفة لمتَابعة شؤون خطبتك التي من المؤكد وكلتي لها محمود؟

-هل من المُمكن أن تسمعني قبل التسرع بأي استنتاج؟

-تكلمي.

-لقد تحدث السيد صلاح بشأن ارتباط أجل...

-صلاح إسماعيل؟!

-أجل.

-ممتاز!

يدرك أنها تجاهلت سخريته المتعمدة لتجيب بجدية:

-لقد نسيت الأمر صدقاً، على أية حال لا أود الارتباط الآن لهذا أردت إبلاغ محمود لا أكثر.

-إذاً رفضتِ؟

حل الصمت للحظات:

-أردت الرفض ولكن...

همس بغيظٍ مكبوت بإتقان:

-ولكن؟

-محمود ألحَّ عليَّ أن أُفكِر ثانيةً.

-امم تفكرين، جيد.

تحرك مغادرًا مقعده ينفض عنه تِلك الأفكار الانهزامية، لن تفعل، أجل لن تفعل، ربما لم تدرك بعد تِلك الينابيع التي فجرتُها في روحها لترويها باسمي ولكنها حتمًا ستشعر بشيء لا إرادي يمنعها من أن تخطو نحو رجل آخر، بل هي لم ترَ رجلًا سواي، أجل، سحب نفسًا عميقًا يهدّئ من لهيب أفكاره المشتتة، متى يرتاح، متى؟

ليقطع خلوته رنين هاتفه، إنها "لينا" دومًا تأتي في الوقت المناسب، ربما هذا ما ظل يميزها فقط، ابتسم وأجاب ليأتي صوتها في لهفة افتقدها.

-أين أنت؟

-بالمنزل.

-تستعد؟

-بالطبع.

-انتظرتك طويلًا.

-لن يحدث بعد الآن.

شعرت بالثقة فتحدثت:

-أشتاق لك آدم، أشتاق لك كما لم أشعر من قبل.

ابتسم بشعور الفخر والرضا:

-بوقتِك لينا، بوقتك حلوتي!

♡ ♡ ♡

عيناها تتحرك بنظرة تفصيلية مُنتقا لِما تراه كعادتها عند التسوق، ها هو فصل الشتاء يقترب، تلتف الروح بعباءة من البرد القارص، فصل الوحدة والبكاء والمطر والتفكير المُزمن وكأنها بالعادة لا تفعل، اقتحم أفكارها فجأة كعادته، توجهت إلى متجر يمتاز بأجود أنواع الصوف؛ ستصنع له كنزة شتوية كما طلب، تدور بعينيها أي لون؟ أي لون يليقً به؟

تذكر أنها سألته منذ أيام وصدمها بافتقار تام نحو الألوان وتناسقها رغم أناقته الداكنة التي يمتاز بها، لطالما كانت حلته بدلة أنيقة داكنة، ًسترة سوداء بنية رمادية، قمصان بيضاء وربطات عنق داكنة ملائمة تزيده عمرًا ومهابة.

ابتسمت مفكرةً حسنًا لا بأس ببعض التجديد والحياة لروح السيد آدم نور الدين، ربما يتخلى عن عبوسه الذي ظهر مؤخرًا رغم التقارب الذي لا تنكره ولا تفهمه بينهما إلا أنه أحياناً ما يتعمد أن ينأى بأفكاره بعيدًا عنها، يحق له بالطبع فما هي إلا سكرتيرته الخاصة ولكن هناك شيء ما كذبذبات منبعثة منه نحوها تلتقطها دون فِهم فحواها كسخريته المتعمدة من موقف صلاح إسماعيل.

لقد تحدث بحزم حاول تغليفه بلا مبالاة ونعتها بالعروس كلما دلفت لمكتبه بطريقة تثير حنقها، وأسلوب جاف لا يُطاق في التعامل العادي، إنه يقتص بمراوغة كعادته، يترك الموقف يَمر كي لا يُظهر تأثره به ثم يستعيد حقه المسلوب بطريقة أخرى وأحيانًا في وقت آخر، ولكن ما الذي قامت به آثار غضبه ليظل على معاملته تلك أيام متواصلة؟ إنه أبدًا لا يقوى على التغير معها سوى لحظات وربما يوم أو اثنان على الأكثر، عَلام تُعاقب؟ نفضت رأسها ولكنها لن تستجدي ودِّه، إنها لم تُخطئ أبدًا معه، لقد أخبرها ذات صباح أنها تعني له الكثير، ربما لم تعد .

-آنستي، آنستي .

-أجل!

-الصوف!

-آها عُذرًا .

سامحك الله آدم نور الدين هل ستفقدني تركيزي أيضًا، زمَّت شفتيها وتجعد ما بين حاجبيها وارتسمت نظرة سخط طفولية بعينيها كرد فعل تلقائي لأفكارها، وجدت البائع ينظر بابتسامة طريفة، استلمت ما تبقى من نقودها ورحلت مُسرعة، تبًا لكِ سارة لن تتبدلي أبدًا .

ღ ღ ღ

-صباح الخير .

لم يلتفت نحوها مُحدثًا إياها ووجهه يتفحص ملف ما أمامه بتركيز:

-ضعي القهوة والغي اجتماع الواحدة ظهرًا .

-هل هناك خطب ما ؟

رفع وجهه نحوها في صمت فاستطردت:

-لا تبدو بخير .

-ماذا قررتِ بشأن عريسك؟ أسبوعًا لم يكن كافيًا للتفكير؟

-لقد انتهى الأمر منذ ستة أيام، أي في اليوم التالي لحديثنا، أخبرت محمود هاتفيًا و. . .

قاطعها بغضب:

-ولِمَ لمْ تخبريني؟!

-لأنك لم تسألني صراحةً عن الأمر طوال الأسبوع الماضي.

-تتلاعبين إذاً؟

تساءَلت بتعجب:

-أنا؟

-سارة لقد اكتفيت.

قضبت جبينها مفكرة لِمَ يستعصي عليها فهمه:

-ماذا تعني؟

-أعني اكتفيت هكذا فقط، منك ومن العمل ومن التفكير والإرهاق والركض لاهثًا خلف اللاشيء.

-صدقًا لا تبدو بخير، هل أنت حقًا غاضب مني؟

-أحاول، أبذل قصارى جهدي لأفعل!

-يا الله! لِمَ تصعب الأمور بيننا على هذا النحو؟

-لأنك لا تحاولين مجرد محاولة لتيسيرها.

-ماذا عليَّ أن أفعل؟

-مؤكد لن أخبرك.

-أتكفي كنزة صوفية زرقاء لامتصاص غضبك كما برد روحك؟

نظرت نحوه عيناها تتسعان على ما يبدو أم أنهما كذلك من قبل! بهما تساؤل صادق بريء، إنها تود أن يرضى أن يعود معها كما السابق، إنها تفتقده كما عهدته، إنها تتأثر بحق، تحدث بعد صمت:

-لِمَ زرقاء؟

-لون البحر والسماء.

قضب جبينه في عبوس:

-فقط.

-وعيناك.

نظر لعينيها دون أن يرفع عيناه عنها فغضت بصرها عنه، ابتسم متحدثًا بهدوء:

-متى تنتهين منها.

-سأبدأ العمل عليها من اليوم.

-الشتاء باردٌ جدًا هذا العام لا تتركيني أتجمد من البرد.

-مؤكد لديك العديد من الملابس المناسبة.

-فقط قولي نعم لمرة واحدة.

أومأت بإيجاب.

-فتاة مطيعة.

-سأعمل على الغضب منك كثيرًا الأيام القادمة، حتى يكتمل لدي مخزون مناسب من كنزاتك الصوفية.

ابتسمت لدعابته:

-لن يحدث، لا تعتَد التدليل.

استطردت عابسة:

-لا أدري لِم غضبت ولا حتى لِم أود أن تصفح، فقط لينتهي هذا الأسلوب الخانق القائم منذ أيام.

اتسعت ابتسامته وهو يفكر، بساطتها في التعبير وصراحتها تمنحانه لذة نصر لا تدركها، لقد بدأت تخطو نحو التيه والغرق في بحوره، لا يود بصدق أن تدفعه لإغراقها! ليسَ شيطانًا ليفعل، ولكنه مؤكد ليس ملاكًا ليتركها تنجو.

-انتهى صغيرتي.

-ألن تكف عن صغيرتي تلك!

-أبدًا، انظري لنفسك إنها تليق بكِ تمامًا.

-تود تذكيري كوني صغيرة الحجم، شكرًا أعلم جيدًا.

ضحك بخفوت:

-تسيئين الظن فاحذري.

-كَوني صغيرة لا يعني كوني صغيرتك، ياء الملكية في نظري لا محل لها من الإعراب.

-لندع أمور اللغة العربية جانبًا لأني أسوأ مما تتخيلين بكل ما يتعلق بها ولكن مع هذا دعيني أخبرك أن ياء الملكية في موضعها تمامًا، أنتِ صغيرتي ولستِ مجرد صغيرة.

صمتت بعبوس عاجزة عن التفكير والتفسير، حولت مسار الحديث:

-لِمَ ستلغي الاجتماع؟

-لدي أمور عالقة عاجلة خارج البلاد تخص العمل.

-أليس السيد زياد هو المُكلف بإدارتها؟

تحولت ملامحه لجمود نسبيًا:

-أجل ولكن الوضع يحتاج وجودي وليس زياد.

-متى ستسافر؟

نظر في ساعته:

-بعد ساعة.

-متى حجزت الطائرة؟

-بالأمس، تكفلت أنا بالأمر عنكِ.

-تعود سالمًا.

-انتبهي لنفسك.

-وأنت أيضًا، ولا ترهق نفسك أكثر مما ينبغي، كما لا تشتعل غضبًا عندما تسوء الأمور، لن تجدني لأزودك بالعصير البارد.

ضحك مبتهجًا:

-حسنًا سأفعل هل هناك شيء آخر؟

صمتت لحظات ثم همست:

-لا، متى ستعود؟

-سأخبرك بالهاتف أو البريد لا أدري بعد، لا تكثري من الضحك في غيابي مع زياد.

-ماذا؟!

-لا تعجُّب ولا جدال فقط "نعم".

-حسنًا!

-وددت أن تكوني بصحبتي ولكن أعلم موقفك من سفرنا معًا وإن كان لعمل.

-أرجوك لقد ناقشنا الأمر منذ أشهر.

-ترفضين وكأنك لا تعلمين من أنا، وكأني . . .

بتر حديثه كي لا تفوح رائحة غضبه.

-لقد شرحتُ لكَ الأمر سابقًا.

-أدري لا عليكِ.

-الأمر ليس شخصيًا إنه فقط مبدأ لا أكثر.

-مبدأ لا يتفهمه سوى رب عمل يُدللك مثلي.

ابتسمت:

-وأنا ممتنه لهذا التفهم وأُقدر دلالك بكنزة زرقاء رائعة.

غاب عبوسه وابتسم من جديد، وهي تمارس سحرها العفوي عليه لينتهي الحال بينهما على عكس ما توقع كما العادة:

-لأرى كيف ستكون تلك الكنزة.

-رائعة وملائمة لك.

-استريحي من العمل ومني لأيام.

-قربك ليس تعبًا لأستريح في غيابك.

-لو أخبرتِني أن بعدي ليس راحة لكِ لكان نفس المعنى ببساطة ويُسر.

-أجل لكن . . .

-تدققين في معاني الكلمات حدّ التعب لمن يسمعك، لا تفعلي.

-سأحاول، كما أنني لن أستريح من العمل كما تتصور، لقائي بعالية الزهار بعد غد .

تجمدت ملامحه وشعر بموجة عاتية من الغضب تصفعه، لقد نسي أمر لقاء سارة بها :

-حسنًا بالتوفيق، سأرحل، تأخرتُ صغيرتي .

-لتعُد سالمًا .

ღ ღ ღ

" فلتحيا بصمت"

مجتمعٌ جاهل يستحق تلك المعاناة، أم مجتمع بائس حكم عليه بعض الجهلة والفاسدين بالخراب .

أين الخطأ ؟ هل بالفعل نجني ثمار ما زرعه أجيال سابقة في تربة المجتمع، يزرع الخبثاء والجهلة كل ما هو خبيث، ليجنيه كل من هو طيب بسيط واع لكن عاجز .

ما عاد للشبابِ سبيلٍ سوى السمعِ والطاعة، واللهث خلف الفتات .

ما عاد يهمُّ المواطن البسيط نزاهة إعلام، أو مستوى تعليم، أو إنتشار فساد، أو حتى تدني رعاية صحية .

يكفي أن يستمع لوساوس، تجعله يرى أن حقّه لا يتجاوز سوى مسكنٍ آمنٍ بسيط، وتعليم لا بأس به لأولاده، وطعام ما يسدّ رمق جوعهم وكفى، يكفي أن يُعامل كخادمٍ فيٍ بلاده، ما دام حيّ يُرزق فليحمد الله على رفاهية كونه تخطى خط الفقر، ويحيى فيً آمان .

أجل، فلا هو ولا أحد من عائلته، مُلقى به فى السجون كأكوام من القمامة، فاحت رائحتها العطنة حيث عجز مُصطلح الظلم عن وصفِ معاناة المُعتقلين والأحكام القضائية، التي لا تعلم للنزاهة معنى، حيث لا حياة آدمية فى السجون .

ربما ، بل مؤكد حيواناتهم المُدللة فى المنازل، تتعامل أفضل ما يتمنى هؤلاء المُعتقلين مع كامل إحترامي للحيوانات بالطبع !

العجز يكمم الأفواه للحديث عن ظُلمٍ بيّن ومعاملة غير آدمية، وأمراض تتفشى وتزداد أحوالها سوءًا دون علاج، علّهم يموتون فيتّم إخلاء مكان لكومِ قمامة جديد .

سادية بشعة تتفشى فى نفوسهم وأجهزتهم العصبية، وكأنّ الضابط منهم يحكم تلك البقعة التي تقع تحت يده، وعلى الرعايا التسليم والتعامل بما يليق بهم.

فهم أسياد يحكمون عبيد يمنحونهم حق الحياة، فهل أعظم من هذا فضلاً.

حتّى العادلين منهم يعانون في أماكن، تُجبرهم على التوحش والسادية، وكأنّ عدلهم وصلاحهم خنوع، هل يوجد ضابطٌ نجيب لا يَبطُش لا ينعت الجميع بأقذر السباب.

لا يتفنن في تنوع وتلون ألوان العذاب المتّاحة، مُحال أنها أول درجات السيّادة.

السيطرة بالبطش لا على المجرمين، وإنّما على من خالف الرأي وتجرأ، واستعمل عقله المسكين.

فلنظلّ نهيم على وجوهنا، نلهث خلف أقل القليل من أساسياتِ الحياة، كأىّ قطة شارع، أو جرو مسكين.

يبحث عن مكان مترامي الأطراف ينام به، وبعض طعام من سلة قمامة أمام بيت فاخر تليق به، فلنصبر على المُوتى حتّى يبدأ الحشر، كما حدثنا الرائع أحمد مطر..

دَعْ المَوتى
ولا تُشغَلْ بِهَمّ الدَّفنِ إذ يَبدو
لِعَيْنكَ أنَّهُم كُثُرُ
بلادُك كُلُّها قَبْر

ღ ღ ღ

ألقتْ الجريدة وعدّلت من ملابسها الرسمية، وتوجهتْ نحو بهو الفندق حيث تنتظرها تلك الصحفية المبتدئة. .

سارة محمد . .

التي أمضتْ صباح اليوم في قراءة معظم مقالاتها، لتكوّن فكرة مبدأية عنها .

يبدو أنّها لم تأتْ بعد، توجهتْ لمطعمِ الفندق ترتشف قهوة تركية.

وتنتظر. .

دلفتْ للمطعمِ تدور بعينيها، لقد تمّ توجيهها نحو المطعم بترحاب، يبدو أنّ العاملين بالفندق على علمٍ باللقاء بينهما .

أو ليستْ في ضيافة السيدة "عالية الزهار"، دفعة أخرى من الأدرينالين ضخّتْ في جسدها، ستراها تجمعهما طاولة واحدة ويتبادلا حديثاً .

أطلقت صيحة حماس، ثمّ ازدردت ريقها في خجل :-

-يا الله فليمر اليوم على خير دون أيّ جنونٍ مني، يارب.

-مساء الخير سيدتي .

رفعتْ نظرها نحوها متخلية عن نظّارتها الأنيقة، لتتفحصها بدقة.

أخذت تنظر للفتاة الفتيّة، التي لا زالتْ تحبو في بداية العشرينات.

وجه جميل خال من المساحيق، بدلالة تلك الهالات السوداء التي بدأتْ تغزو وجهها الناصع.

وجسد عصفوري رقيق يتخفى بملابس عمليّة وحقيبة، تبدو محمّلة بأوراق، وحتماً جهاز تسجيل، بيدها ملف وقلم يتقلب بين أصابعها في توتر.

أليس الفتيات في هذا العمر، يلتفتن نحو كلّ ما هو مبهر.

عادةً ما يكن محور الإهتمام، الرجال تهيم في غرامِ شاب، تظنّ أنّه حالفها الحظ إن كان وسيمًا، أو يدورون في فلكِ أحلام اليقظة، كمعجباتِ للمشاهير، أو الأزياء والتجميل لإبراز جمالهن، أو بمعنى آخر لخلقه، والعاقلة منهن تتوجه نحو الدراسة، لتفوق علمي لأسباب غالبا ما تكن بعيدة عن حُبِّ العِلمِ ذاته، لتنهي دراستها راكضة نحو المطبخ، يتعلمن فنون الطّعام وأكله بالطبع.

أنّها كانت تنتظر صورة واضحة لتلك العقلية، التي رأتها بين سطور مقالاتها ووجدتها كما تخيلت وأبهى.

مرّ زمن على أن ترْ فيه أنثى متخفيّة بهيئة طفلة، وطفلة ساذجة تحمل بقلبها الفتيّ، نقاء تظن أنّها به ستحارب الكون وتنتصر.

مرّ زمن على أن ترى فتاة، من الممكن أن تُشبهها هي، هي التي ظلّتْ أعوامًا طويلة، لا تظن مجرد ظن أنّه من الممكن أن يجود الزمن بعالية زهار جديدة.

تركتها نحو الدقيقتين في صمتٍ تام.

محللة شتّى أفكارها وإستنتاجاتها نحوها، ثمّ تحدثتْ وهي ناظرة لساعتها :-

-لديكِ تأخير سبع دقائق.

ازدردتْ ريقها من المفاجأة، لقد ظنّتْ أنّها تُعاقب بالوقوف على خطأٍ لم تتبينه بعد.

فكّرتْ ساخرة "كم هو طيب القلب، إذاً عادة ما يعاقبني وأنا جالسة ".

نظرتْ لساعتها.

-خمس دقائق فقط سيدتي، أنا واقفة أمامك بالفعل منذ دقيقتين.

-أجلسي.

ღ ღ ღ

في طريقِ عودتها تبتسم في إبتهاج، وبيدها الكارت الخاص بعالية الزهار، لا تصدق أنّ تلك السيدة الجادة جدًا، يمكن أن تكون بهذا اللطف والتواضع.

تحدّثا عن الكثير والكثير من الأوضاع الراهنة فى البلاد، من سياسة وثقافة وأدب وفنون.

وقدّمتْ لها بالفعل دعوة لحضور فعاليات المهرجان، كونها أحد القائمين عليه، لأولِ مرة تشعر أنّها تريد أن تعرف المزيد عن شخصٍ آخر.

سيدة مثقفة قوية ذات مكانة وسُلطة وجمال، ترى كيف حياتها بالفعل.

على أيةِ حال أيام وتقابلها مرة أخرى، قبل أن تغادر البلاد وهذا هو الجزء المُحزن. ترجلْتْ من السيارة الأجرة توجهتْ نحو المنزل، حيث وصلتها رسالة هاتفية.

" لقد عدتُ أنتظرك بالمكتب فى غضون ساعة ".

ابتسمتْ تلقائياً سعادة بعودته، لتقبض يداً صلبة، وكأنّها قدتْ من حجر ساعدها، وقبل أي إعتراضٍ أو ردّ فعل منها.

مدّ يده أمام وجهها بكارت ساعدها على الصمت دون حراك، سحبت نفسها بجدّة من قبضته.

–من الأفضل أن تسيري معي دون إثارة فضيحة.

ღ ღ ღ

في المساء يجلس بمنزله في صمتٍ ووجوم، موجودة أمامه وكأنّها لا مرئية.

يشقّ رنين هاتفه الصمت الخانق.

–مرحباً سالي كيف حالك ؟

التفتتْ فور سماع الاسم لتستمعَ بإنصات، لتجد ملامح الهلع ارتسمتْ على وجهه ليتحدثَ بلهفة :-

-ماذا يعني أنّها لم تعدْ منذ الثالثة عصراً ؟كيف لم يخبرني أحد حتّى هذا الوقت ؟

أغلق هاتفه وتوجّه دون أن يلتفت نحوها إلى غرفته، بدّل ملابسه في لحظاتِ صفع الباب خلفه، وارتمتْ على أريكتها تبكي.

ღ ღ ღ

عاد لمنزله بالأدقّ جناحه الخاص، بدّل ملابسه وهو يفكر كيف لم تأتْ إليه فور عودته، أنها حتى لم تجبْ برسالة ! إلى تلك الدرجة لا تهتم !

مستحيل لقد كانت في غاية اللطف قبل رحيله، شعر أنها متلهفة لعودته، بل لقد توقع أنّها تشتاقه.

لِمّ كلّما تقدمتْ خطوة، تعود مهرولة عشراً للوراء.

رنّ هاتفه برقم محمود، ودّ ألا يجيب، لقد أصبحتْ علاقتهما في توترٍ ولا يدري لِمّ ؟

بل يدري ولكنّه لا يودّ مواجهة نفسه بهذا الأمر الآن، صمت الهاتف وما لبث أن عاود الرنين مرةً أخرى.

ღ ღ ღ

تسير حياتك بصمتٍ تام، كطريقٍ تسير فيه وحدك، لا شيء سِواك على إمتداد بصرك، لتُفاجيء بشاحنه تدهسك وتمضي.

لا تدري من أين ظهرت، وكيف تسللت لطريقك الهاديء، ثمّ يُعاجِلك لص ما يراك مُلقى فى الظلام، إثر حادث إصطدامك فيسرقك ببساطة ويمضي !

تظلّ طوال ليّلك تنزف تحاول الزحف، ولا تقوى يشتد الظلام وتقترب الحشرات، والحيوانات تشمّ رائحة دمائِك بلهفة، تصرخ تزحف بإصرار، تنجو بأعجوبة يحلّ الصباح، ليظهر فاعل خير يلتقطك من على قارعة الطريق، يُلقي بِك أمامَ أحد المشافي يرفضون دخولك غرفة العمليات سعيًا لإنقاذك، فأنت بائس لا تمتلك مال، ولا هاتف ولا هويّة، بعد ما سرقك اللص بالأمس.

فاقداً للوعي فاقداً لسُبل النجاة، تظلّ على حافةِ الحياة بين أن تنجو وتحيى، أو تنجو وتموت، حيث ما عاد هناك فارق، فالموت والحياة وجهان لعُملة واحدة متمثلة فيك.

صدق شكسبير. .

" المصائِب لا تأتي فُرادى كالجواسيس بل سرايا كالجيش ".

لا تصُدق بعد ما حدث بالأيام الماضية، الليل متصل بالنهار متَاهة، لا تدري متي بدأت ولا كيف تنتهي، مسلوبة الإرادة تمامًا تُفكر وتُفكر وتُفكر.

ولا تقوى على إتخاذ أي قرار، بل بالفعل القرارت تؤخذ دون إرادةٍ منها، ليست مُجبرة، ولكن ما من اختيار.

ليس أمامها سوى طريق واحد تحاوطه السدود والجدران، تنظر للجرائد الملقاة على سريرها الصغير.

عيناها تدور بين الصحُف المختلفة الصادرة على مدار تجاوز الشهر.

ولها بكلّ إصدار عنوانٍ جديد، يتصدر الصفحات الأولى منذ أن تدخل هو بالأمر أنّها سطوة النفوذ والسُلطة، بدايةً من. .

" اعتقالٍ الصحفية الشابة سارة محمد النجار " بعمود صغير جانبي بالجريدة، التي كانت تعمل بها مروراً بعناوين رئيسة لاحقة.

" سارة النجار خلف القضبان ".

" تدخل خارجي من السُلطات العُليا في قضية سارة النجار".

أيّ قضية لا تدري !

" علاقة مجهولة الهوية، تجمع بين الصحفية الشابة وإمبراطور الأعمال "، أيّ علاقة ! أين تقصي الحقائق ؟

لا إجابة، إنها الصحافة الصفراء في أبهى صور النزاهة، الراكضة خلف مجدٍ دنيء على حساب كرامة وسُمعة الغير.

" تدخّل رجل المال والأعمال آدم رضوان نورالدين، للإفراج عن الصحفية المعتقلة "

وأخيراً ،بعد غياب ظهوره النسائي لثلاثة أعوام، يعود آدم نور الدين بعلاقة جديدة مع صحفية شابة.

إصدارت شبه يومية تهاجمها، تمزق مبادئها، وتطعن نزاهتها وبراءتها.

تبكي بذهولٍ " يارب السجن أحبّ إليّ مما أنا فيه ".

إتهامات باطلة من تلفيق تُهم، لا تدري عنها شيئاً سوى رغبةٍ في دفنها، وخنق صوتها وكسر قلمها، وإتهامات أكثرَ إفتراءً عن علاقتها بآدم نور الدين، تذبح صدرها بخنجرٍ مسموم، حيث ترى الصحيفة التي كانت تعمل بها، أول من نهشوا اسمها، محاولين تلويثه بحثاً عن مجدٍ شخصي، أو لأغراضٍ لايعلمها إلّا الله.

تتذكر ليلة إعتقالها، صمتها وصمودها، محاولة ألا تظهر ضعيفة، ضحية مغلوبة على أمرها، رغم أنّها كانت بالفعل كذلك.

تتذكر كلمات أبيها الراحل " كلما ازدادوا ظُلماً، إزدادي كبرياءً، ما عَابك إلّا ضعيف، وما طعنك فى ظهرك إلّا جبان، اتخذي النقاء درباً، والنجاح وسيلة، والجنة غاية" وتذكري أنّ الله حسبك ونعم الوكيل ".

تجلس بزاويةٍ باردة في زنزانةٍ مُظلمة ضيقة، هواؤها خانق، أسنانها تصطك على نفسها، فبالطبع لايوجد غطاء.

تفكر كم هي ضعيفة، ساعات على الأكثر وتنهار باكية، تودّ الخروج، حتّى هي أجبن من الظلم والتعذيب.

كيف يمتلك مَنْ لمْ يذقْ الظلم، الجرأة للتحدث عنه ؟!

ليدورِ متغنياً بالدفاع عن المُعذبين بعذابٍ لم يره بعدّ، لم يكنْ يشغل بالها سوى والدتها، مؤكد تموت قلقاً.

يا الله ماذا لو تمّ إعتقالها دون توجيه تهمة محددة، أو الإفصاح عن المكان الذي سوف يتم ترحيلها إليه ؟

مَنْ سيذهب برفقةِ أمّها لجلسات الغسيل الكلوي ؟ كيف ستجتاز سالي امتحاناتها هذا العام ؟

ومريم مرّتْ أسابيع، ولم يتحدثا ليتني رأيتها.

وهو، أجل ليلتها رأته مرة أخيرة بعد عودته، منذ أن قيّد روحها بقيدٍ خفي، وهي تخشى اليوم الذي ستفقده فيه، هل حلّ هذا اليوم بتلك السرعة ؟

أليس هناك وداع أخير لكلّ هؤلاء ؟!

لماذا نظلّ صامتين، نحبس الشعور والكلمات، والحقائق والمواجهات، تسويف ومماطلة، وكأّننا نضمن أنّ الغد لنا، وسيأتي كما نتمنى ؟!

لنفصح عن خبآيانا في الوقت الذي يحلو لنا، جهلاء غافلين لا نملك من أنفسنا شيء.

الآن وهي في مكانٍ لا تدري هل ستخرج أم لا ؟

شعور غريب يجتاحها، شعورٍ لا يُدركه حَقاً، سوى من ذاق علقم الفقد المفاجيء، والحبس الإجباري أو الإختياري لا يهم، المُهم أن حينها الإعترافات تكُن كأمنية أخيرة قبل الموت.

كلمات الوداع كأشهى ما تمناه المرءِ طوالٍ حياته، رغم أنّه استنفذ حياته بأكملها، دون أن يُعبّر بصدقٍ عن مكنون روحه، خوفاً وجبناً وضعفاً وغفلة.

يا الله أنقذني من موتِ الغفلة، وفقدان الغفلة.

تكومتْ في زوايةِ الغرفة منكمشة متقوقعة بشكلٍ غريب، ظهرها متكور، يداها تضم ركبتيها الملامستين لذقنها تتمتم " لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين ".

أليس هذا دعاء يونس وهو في بطن الحوت، عساها يشملها الله بعنايته الإلهية، فتخرج من سجن أشبه بحوتٍ قادر على إبتلاعها ببساطة.

تعود بتفكيرها، هل ما كانت فيه فى السجن، أفضل مما تواجهه منذ أن خرجت والدتها صحتها في تدهور مستمر، لقد قرر الطبيب أنّه استنفذ كافة السُّبل الطبيّة، ويجب زرع كُلى في أقربِ وقت.

آدم الذي مؤكد علم بخروجها ولم يهاتفها، ليطمئن عليها رغم تدخله الواضح للإفراج عنها بشكلٍ فوري، والأغرب مهاتفة رانيا لها، لتُعلمها أنّ عقدها السنوي على وشك الانتهاء ! هل حقاً لا يرغب بالتمديد لها ؟

هل عليها الذهاب لشكره واستكمال عملها، وكأنّ ما حدث كابوس ومضى، أم أنّ اسمه الذي احتل صفحات الجرائد بسببها، سبّب له ضرراً أكبر من رصيدها لديه، فقرر التضحية بها ويكفيها أنه قد نجاها مما علقت به.

أهذا هو فقط ما كان يجمعهما، نظرت لكومة الصوف الزرقاء التي تحتل طاولتها، حيث كانت تغزل له كنزته قبل اعتقالها.

أعليها الآن أن تتخلص منها، تعلم تفكيره جيدًا، مؤكد كان ينتظر منها أن تهرول إليه شاكرة إيّاه بسعادة، أجل ودّتْ لو تفعل، ولكن كرامتها تأبى خاصة بكل ما يُثار عنهما معاً، بالإضافة لصمته.

كرامتها التي ستهلكها يوماً إن لم تكن قد فعلت، لِمّ الرجل يرى دوماً حقّه في السيادة وضعف المرأة تجاهه، ويدهسها بالتجاهل أن بادرته بمثل ما يفعل، واتخذت الكبرياء درباً، والأسوأ على الإطلاق.

إختفاء مريم !

لقد ذهب محمود،وأقالها بجالتها المزرية من أمام مركز الشرطة، إلى منزلها ورحل، لم تسأل عن مريم، لتصورها أنّها ستجدها هناك برفقة والدتها وسالي.

نامت ساعات طويلة، كأنّها مضتْ عمرها بأكمله يقظة، النوم نعمة تحمل عنكَ أثقال الحياة، لتفتت في دوامةِ الغيبوبة، ثمّ تعود فى تتجمع فور استيقاظك.

واستيقظتْ لتجدَ بكاءً جديداً طويلاً، وأحضان تُلملم شتاتها، وتطيّب وجعها من والدتها وسالي، وكأنّهما لم يصدقا عودتها بعد.

تتوجه نحو هاتفها، تسحبه من المقبس الكهربي بعد ما تمّ شحنه، لتجد أنّ مريم لم تتصل، تنتظرها ولا تأتي، تتعجب ألا تدري كم هي بحاجة لها، يمضي يومها الأول، تمرّ اللحظات الأكثر قسوة على الإطلاق.

تمرّ وهي وحيدة تمامًا، لتدركَ أنها ما عادت بحاجةِ أحد، بل عليها أن تتعلم هذا، وتستمد من تلك اللحظات المؤلمة في قسوتها، قسوة تجتاز بها سذاجة روحها.

لم تغضبْ منها، بل اجتاحها القلق ياربّ سَلّمّ.

تهاتفها فلا تجيب، تهاتف محمود فيخبرها أنّها نائمة، تخبره أنّها تودّ محادثتها لأمرٍ هام، ليجيبها ستحادثك فيما بعد، تؤكد هل هي بخير ؟ يُقسم أنّها بأفضلِ حال.

إذن أين هي ؟ لِمّ تتهرب منها ؟ !

تصمتْ وتبتلع سؤالها، وتنسكب دمعه يتيمة تمحوها بيدٍ مرتعشة.

ღ ღ ღ

" هل السكرتيرة الصحفية عشيقة خفيّة للإمبراطور ؟ "

ألقى الجريدة بعصبية أمام أخيه هاتفاً بغضب :-

-هل أنت سعيد بما يجري ؟

-فى الواقع أبدًا، ولكنّي أعتدت اصطيّاد المُتع الصغيرة في ظِل المتًاعِب الكبيرة.

جلس زيادِ أمام مكتب أخيه يتأمله في تفحُّص، صمت آدم تمامًا ولم يتوجه إليه بكلمة، سحب سيجاراً وأشعله، وأخذ ينفث دخانه في هدوء.

-ما الذي تودّ أن تصل إليه آدم ؟

-زياد ارحل لعملك، لا أودّ الحديث.

-لِمّ لا توقِف تلك المهزلة ؟

-لن أتدّخل من أجلها مرة أخرى.

بتر حديثه لزياد،واستكمل لنفسه،" دون أن تأتْ إليّ، دون أن تطلب مني" .

قضب جبينه في عبوس :-

-لا أفهمك آدم، إن لم يكن لأجلها، لأجلك يا رجل.

-أنا لا تؤثر عليّ تلك الأقاويل في شيء .

سحب نفساً عميقاً من سيجارته، واضطجع في مقعده :-

-زوبعة فنجان وستمر، زياد لقد تعرضنا لِما هو أقوى وأشنع في الصحافة تحديداً، ما أتعجب منه هو سر غضبك.

-تتعجب من غضبي ! ما يُذهلني هو برودك آدم.

صمتَ فأردف بعد لحظات :-

-ألا تهتم لأمرها بحق ؟ هل سارة محمد أصبحت لا تعني شيء بالنسبة لك آدم ؟

-ارحل زياد لديّ الكثير من العمل، لا تعكر صفوي.

-إن لم تتدخل أنت، سأتدخل أنا لوقف ِتلك الإفتراءات.

هدر فيه بغضبٍ مُحذراً :-

-إيّاك، إيّاك أن تتدخل يا زياد فيما لا يعنيك.

نظر لأخيه الغاضب، المُتحفز بكلّ ِخلية في جسده.

-تهتم، بل أنت بها أكثر من مهتم.

وخرج، لتصادفه لينا .

-مساء الخير زياد .

-أهلاً لينا ، مساء الخير.

لتحادثه بتلهفٍ غاضبٍ مكتوم :-

-أخوك على علاقة بتلك الحيّة صدقاً ؟

نظر لها بتأففٍ وملل وهو يتساءل ما مدى حماقة آدم، التي أدتْ به للتورط مع لينا عزام.

-أنتِ آتية لسؤاله صحيح، ها هو لديكِ فى مكتبه، بالإذن.

♡ ♡ ♡

هاتفها مُلقى كجثةٍ صامتة، مهما أصابه الرنين يظلّ أبكم، لا تودّ أنْ تحادث أحد، ولا يحادثها أحد، عُزلة لا جرائد، لا عمل، لا أحاديث، لا قيل أو قال.

هدوءٌ مُسالمٌ بداخلِ قوقعتها الصخرية، وتظلّ الغارات الخارجية تستهدفها بالخارج، ولا تُلقي بالاً، لم تعد تهتم، صدقاً لا تهتم، كلّ ما يُهمها صحة والدتها، لديها جلسة غسيل كلوي فى الغد، عليها أن تأتْ ببعض المال من حسابها المصرفي، فهي لم تعدْ تعمل، كما والدتها، ولكن يجب أن

تعاود البحث، اخترق شهاب سماء تفكيرها، ودراستها يا ربي هل هناك فتاة عاقلة تنسى أمر كهذا ؟

متى تسترد وعيّها من تلك الغيبوبة التي تحياها، طرقت سالي باب غرفتها بضرباتٍ متلاحقة.

-سارة سارة.

فتحت الباب مسرعة :-

-ماذا هناك ؟

-لقد اتصل بي محمود زوج مريم...

قاطعتها :-

-مريم بخير ؟

-أجل، لكن لقد توفي زوج رانيا صديقتك بالأمس.

ذهلت للحظاتٍ غير مُدركة ماذا ؟؟ كيف.. متى .. رانيا.. زوجها.. حملها .

-لاحول ولا قوة إلّا بالله، إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ღღღ

تجلس بمنزل رانيا، يشتد النحيب والعويل، حسرةً على شباب الزوج المتوفي، نساء يدمدمن بأحاديثٍ جانبية.

-كيف مات ؟

-يقولون سقط من البرج السكني، الذي كان يُشرف على بنائه.

-كيف ذلك ؟

لتنضم أخرى هامسةً :-

-ربما دفعه أحدهم.

تنظر نحوهم سارة بجدّة، وتتحرك لتزيد من علوِ صوت القرآن الكريم، لتصرخ إحداهن :-

-يا حسرة على شبابك يا ابني، حسرة على زوجتك وطفلك اليتيم.

تتمتم :-

-أستغفر الله العظيم.

ليدلفَ صديقات العمل، مها وإيمان وغيرهن، تبادلن سلاماً رسمياً بعض الشيء، وجلسن ينتظرن خروج الطبيب.

توجهتْ نحو الطبيب الخارج من غرفة رانيا، ليطمئِنَ أهلها على صحتها وصحة الطفل، حيث موعد ولادتها بعد شهرٍ من الآن.

ضممتها في صمتٍ، حيث ما عادت للكلماتِ معنى :-

-الصبر رانيا، احتسبي حبيبتي.

-الحمد لله، أين بابا ؟

أجابتْ زوجة أخيها :-

-بالأسفل هو ورامي بعزاء الرجال.

-اصرفوا هؤلاء السيدات، لا أتحمل هذا العويل، يكفي الرحمة، يارب الرحمة.

توجهتْ زوجة رامي لتصرفهم، وشدّدت سارة من ضمّها، ليدلفن الفتيات لغرفة رانيا لعزائها، متحدثة مها :-

-لِمّ انقطعتِ عن العمل سارة ؟ هل كلّ مَنْ تُصاب بالشهرة تترك عملها ؟

نظرت نحوها بتعجب :-

-يسعدني اهتمامك بي مها، ولكن ترين، لسنا بمكانٍ مناسبٍ لمناقشة أموري الخاصة.

بعد ساعة، حيث غفتْ رانيا أخيراً، توجهتُ نحو زوجة رامي أخ رانيا :-

-سأرحل وآتيها فى الصباح إن شاء الله.

-إن شاء الله.

هتفتْ مها المجاورة لإيمان :-

-انتظري سارة لنرحلَ معاً .

أومأت بالموافقةِ صامتة، ورحلن لتتوج مها الطريق بحديثٍ مسموم، عن طبيعة علاقتها بآدم نور الدين، وكيف وصلت معه لتلك الدرجة ؟

-بصراحة لقد فاجئتِ الجميع، الفتاة البسيطة تتمكن من الإمبراطور، برافو.

-هذا الكلام خاطيء مها، تلك الأحاديث ليس لها أي أساسٍ من الصحة.

-حبيبتي ليكن، نحن أصدقاؤك لسنا أغراب لتتحدثي هكذا، طبيعة تعيينك وعملك فى البداية توضح كلّ شيء، وتبعتها بضحكةٍ سمجةٍ مٌجلجلة.

-مها.

قاطعتها قائلة :-

-لطالما كنتِ الفتاة العاقلة، التي تسخر من أحاديثنا حول الرجال، أليس كذلك إيمان ؟

رفعت وجهها نحوها، لترى نظرة غريبة، تتنازع فيها مشاعر سوداء مشوّهة .

-كما تشائين مها، فلتفهمي كما يحلو لكِ.

-لست وحدي آنسة سارة.

لتكملَ بقوةِ حقدٍ دفينٍ، وسخرية واضحة :-

-الجميع، الجميع سيفهم كما يحلو له ولن تستطيعي تكميم أفواه الجميع، أو سِحرهم ببراءتك المعهودة.

ღ ღ ღ

ارتمتْ على سريرها باكية، باكية بقهرٍ وظلم الأيام الماضية، يارب ارحمني واصرف عني هذا البلاء، يارب لم أعدْ أحتمل.

آه يا آدم وآلف آه.

غفت لمدة لا تدريها بعد جُهدِ البُكاء، ولكنّها استيقظتْ على صوتِ هاتفها المُلقى بجوارها، لتجدَ اسم عالية الزهار يضيء الشاشة.

أجابتْ بصوتٍ مُختنق :-

-سيدة عالية، كيف حالك ؟

-حمقاءٌ صغيرة.

-عفواً .

-ألا تدرين منذ متى أحاول الإتصال بكِ، لأجد هاتفك مغلق، ولا تطّلعين كذلك على بريدك الإلكتروني.

-عدوة التكنولوجيا أنا ، أعذريني.

-طبعاً لن يحدث، أنتظرك بعد يومين، ستمرين عليّ فى التاسعة مساءً، بالفندق الذي أقيم فيه.

-التاسعة مساءً، ولكن. . . .

-بدون لكن، تكونين في أبهى طلّة لحضورِ حفلِ ختام المهرجان.

-أعذريني سيدتي لا أقوى على . . .

قاطعتها مُكمّلةً :-

-لا تقوي على مواجهة العالم بصدقك، ببراءتك، سمحتي لهم ببساطة إطفاء شُعلة حماسك، وعرقلة طريقك، تصورتك أقوى بكثير سارة النجار .

اعتدلت في جلستها :-

-سيدة عالية الأمر أكبر بكثير، أنا تائهة تمامًا .

-لقد تركت لكِ أيامًا عديدةً، لترتاحي وتعيدي ترتيب أفكارك، لْم أودَ إقحامَكِ في أي ظهورٍ وأنتِ هشّة ضعيفة، ولكن لن أنتظركِ أكثر من هذا، بل الحياة لن تنتظرك .

-صدقًا أنا منشغلة، ولديّ التزامات عدّة .

-أنتظركِ بعد غدٍ، لا تتأخري صغيرتي، وأعتني بطلّتكِ جيدًا، تصبحين على خير .

همست " صغيرتي"، لطالّما نادتها بها، أيّ تفاصيلٍ لعينة، تلك التي ترتبط بأشخاصٍ كلّما نسيناهم، أعادتنا كلمة، مجرد كلمة للوراء .

ღ ღ ღ

صدمة

رؤيتها برفقةِ عالية الزهار على صفحات الجرائد، متألقة مبتسمة سعيدة، كأنَّها وجهتْ نحوه لكمة أصابته في مقتل، هو الذي كان ينتظرها كل يومٍ وليلة أمامه، تبكي، ترجوه أن يجد حلاً، أو على الأقل جالسة بمكتبها تنتظر تمديد عملها.

ماذا يفعل معها، أنه عادة ما يبّذل نفسه لأجلِ النساء بكُلّ حبٍ وتطوّعٍ ونُبلٍ واضح ظاهري، فقط يلجأن إليه !

ماذا يفعل في إختلافها عن سائرِ الفتيات اللواتي صادفهُنْ في حياتهِ ؟

ليس إختلافاً لشخصها فحسبْ، بل إختلافاً لتعامُلها الغريب، كُل من صادفهنْ كُن يسرن في طريقين، إما الرغبة أو الحاجة إلىّ، جانب عاطفي أو جانب إنساني، كونه قادر على الدعم وسد الإحتياج المعنوى والعاطفي.

لم تمرَ فتاةٌ في حياتهِ لم تحتاجهُ بشكلٍ أو بآخر، سواء لشخصِه أو لبعض صفاتِه، فإما أن تحلم الفتاة بترويضِه واجتذابِه، وهذا قد أيقنه منذ سنواتٍ عندما لاحظ أنّ معظمَ الفتياتِ يقعنْ في سِحرِ الوسَامةِ الخشنة، التي يتمّتع بها وسلطتّه وثراءه.

يأكلهُنْ الفضول لغزو الغموض الذي يحيطُ بهِ، رغبةً خالصة في اصطياده كصيدٍ ثمينٍ، أو على الأقلِ النوع الآخر، الذي يراهُ المُنقذ المُتفهِم، الرجل الذكيّ، الجدّار الصلب الذي يستند عليه الفتيات كصديقٍ وداعمٍ حقيقي لهن.

إلا هي، هو يعلم أنها ما رغبته يوماً، ما حاولت إجتذابه وكم تمنى !

ربما لو احتاجته كشخصٍ مُقرب، أو داعمٍ حقيقي لها، لخففَ هذا من وطأةِ الألمِ الذي يشعر بهِ في أعماقهِ، إنّها حتى لم تلتمسً فيهِ الجانبَ الرجولي الإنساني.

لم تركن إليهِ كسندٍ، ولم تنشدْ منهُ الحماية، إنها لم تحتاجهُ أبدًا، إنهُ لا يجد ما يعزّيه في تلك الكبرياء الجريحة، إنه بالنسبه لها مجرد . . مجرد ماذا ؟

لا يدري . .

إنه حقاً لايدري وهذا هو ما يشكِل أساس مشكلته الحقيقه معها . . أين موضعه في قائمة حياتها ؟

مستحيل أن يكونَ لا شيء !

ولكنّه بالطبع ليس كلّ شيء، أنّه فاقد لهويته لديها، وهذا شعور قاتل على رجل مثله، سيادته على الرجال قبل النساء .

ألا تدري إلى أيّ حدٍّ هي غافلة، تقييمه بعد تِلك المدة التي قضاها بقُربها، أو بالأحرى يتقرب منها أربكه .

كونها الأكثر تعقُّلاً في تفكيرها، ألا يستحق أن تجِنّ به كما يفعلن ؟

إنّها الأكثر إتزاناً وتماسُكاً، ألم تحبّه لحدّ أن تغار عليه بعد ؟

إنّها الأكثر كتماناً لشؤونها الخاصة، ألم يخترق بعد حصونها، لتنهارَ مُسالمة محبّة ؟

إنّها لم تلجأ له ضعيفة محتاجة، وهذا ما كان يثير فيه رغبة كسرها، لتضعفَ معه وله .

شعوره أنّها قادرة على إرهاقِ عقله، وإسقاط قلبه، وهي واقفة ثابتة مُتحدية، يُقهر شيئاً ما داخلي فيه، لا يُدركه يُلهبه ويدّفعه للتمادي في جبروت غروره .

مشاعر مختلطة متشابكة، بشكل لا يقوى على تفسيرها وتحليلها، ما يُطمِئنه هو إدراكهُ لقدراتهُ الكامنة، وأنه قادر على الظهور دومًا بالصلابةِ والقوة المطلوبة، بالنظرات الثاقبة الغير مفسرة، والكلمات الساخرة لتغطية غليانه من الداخل، انهزامه أمامها وهو يراها واثقة ضاحكة، في حين هو يفقد منه شيء لا يدركُه، شيء ما ينطفيء .

ها هو ينهزم في التحدي، الذي اتخذه لنفسه بملىء إرادته .

هزيمة أمام ذاته لم ولن يعلمَ عنها أحدٌ، ولكن هذا لا يعني أنّها لن تدفعَ ثمن ما شعر به، وما جنتهُ على نفسها .

ღ ღ ღ

تمرّ الأيام. . .

ومن كثرة الصدمات أصابها التبلد، حين تلقتْ خبر حجز والدتها بالمشفى، بذهول بائِس، كانت تؤجِل التفكير بالأمر، حتى تقوى على مسايرة الحياة، ولكن ها قد حلّتْ الكارثة ولّا مفرًّ.

عليها الآن أن تخبر سالي، وتبدأ في رحلة جمع المال، وبيع كلّ ما يمكن بيعهُ بأسرع ما يمكن، وليته يكفي .

ارتسمتْ إبتسامة مريرة " الحياة لم تبخلْ عليّ بشيءٍ، ها هي تُذقني شتّى أنواع الحاجة والعجز ، فاقدة للدعم المادي، والمعنوي، والعاطفي، تستحقين التحية يا فتاة، عظّم الله أجرك رائع. . رائع، مؤكد لقد جُنّت.

مستندة على سريرها بكاملِ ملابسها تُفكر، عليها أن تجمعَ أغراض متعلقة بوالدتها سريعًا، وتعود للمشفى.

هاتفت رانيا اعتذرت لها عن عدم قدرتها على القدوم، فأخبرتها أن تَطْمَئِنَ، وأنّ أخيها وزوجتهُ عادوا زيارتها، كما أنّ محمود زارها اليوم.

لم تدقق كثيراً في معاودة محمود للزيارة، بعد انتهاء أيام العزاء .

عادت للمشفى بعدما هاتفت سالي لتخبرها، أن لا تقلق عن عودتها، لتجد البيت فارغًاً من والدتها ومنها، لم تمر سوى سويعاتٍ قليلة بالمشفى، لتجد محمود ومريم وسالي أمامها .

نظرتْ لها مريم بخجل وألم، تعجبتْ سارة من رؤيتها، اشتاقت لها حدّ الألم، ومجروحه منها حدّ فقدان آخر ذرة سيطرة على ذاتها، لتترقرقَ دموعها علانية، رغم كلّ جهودها كي لا تفعل.

ضمّتْ كلّ منهما الأخرى، بصمتٍ ولمعة أعين واضحة لبكاءٍ مكتوم، همستْ مريم :-

-آسفة.

-لنا حديث، المهم أنّكِ هنا.

نظر لهما محمود وزفر بعمق، وكأنّ حملًا أثقل كاهليه قد توارى وسقط، ثم تركهم وتوجه للطبيب، ليعود متفاجئًا مما سمع.

-كيف استطعتِ أن تفعلي بنا هذا ؟

حرّك رأسه في ذهولٍ مُكمّلاً :-

-ما يقارب العامَ ووالدتكِ تقوم بجلساتِ غسيل كلوي، دون أن يدري أحد، أي استبداد وحماقة تلك ؟

شهقت كُلاً من مريم وسالي، نظرتْ مريم بعجزٍ وألم في ذهول هامسة :-

-لِمّ يا سارة ؟ بالله عليكِ، كيف تحمّلي نفسك ما لا تطيقين هكذا ؟

لتدفقَ الدموع من عين سالي، فتتحدث بصوتٍ مكتومٍ بفعل البكاء :-

-حتّى أنا، حتى أنا يا سارة، هي أمي كما هي أمك.

-أرجوكما كفى، لا أحتمل.

قدماها لم تعد تحملاها، وكأنها أدركتْ فجأة، مدى ما تحمّلتهُ الفتره الماضية، جلست على الكرسي بوهن، ليتحدث محمود بصوتٍ حائر :-

-كيف سنتدبر الأمر ؟

تحدثتْ سالي :-

-أيّ أمر؟

وجهتْ نظرة تحذيرية لمحمود، ألا يفصحَ أمام سالي، ولكنّه تحدث.

-سالي لم تعدْ طفلة، تفاديها لكلّ ما يدور حولها، ليس هو القرار السليم سارة، سالي أنتِ كبيرة بما يكفي، لتعي أنّ المرض إبتلاء والشفاء بيد الله.

تحدثت بحزن :-

-أجل، ونعم بالله.

فأردف :-

-والدتك تحتاج لعمليةِ زرع كلى في أقربِ وقتٍ.

ازدادتْ وتيرة بكائها، وحررت نشيجها المكبوت لشهقات متقطعة، ضمّتها سارة، لصدرها في صمتٍ واهن ثم تحدثت:-

-اهدئي سالي، اللهُ يُدبر الأمر، لندعوا لها.

نظرت نحوها مريم في شعورٍ قاتل بالذنب، كيف كانت أنانية لتلك الدرجة؟ كيف تناستْ الكلّ عداها، وكأنّ ما تعانيه هو محور الكون.

إنّها سارة، ولكن لأنّها سارة لم تقوْ على تفسير شعورها، والسيدة رجاء تقترح على محمود، بترت تفكيرها في ألمٍ بادٍ على ملامح وجهها.

إن كانت والدة محمود فقدتْ بصيرتها بإقتراح سخيف، يجعل سارة زوجة ثانية لمحمود، فكيف بها هي أن تفعل؟

لقد عاقبتْ نفسها وصديقتها، ومؤكد زوجها على خطأٍ، لم يدركه ولم يقترفه أيّ منٍ ثلاثتهم، ولكن رؤية لهفة محمود على سارة فور إختفائها حين أعتقلتْ، كانت مدخلاً جهنميا لشيطان النفس، أن يوسوس ويعيث في صداقتهم فساداً، رغم أنّها أكثر من يعي الترابط الأخوي بينهما .

قطع محمود أفكارها بحديثهِ :-

-سأجري اتصالاً هاتفياً هاماً وأعود.

ღ ღ ღ

ها هو قرر أن يغلق صفحتها للأبد، وليكفيهِ ما جناهُ منها، أليس عندما يصاب عضو من جسدك بالمرض، ويصير تهديداً على باقي الجسد، ولا يوجد بديل للبتر، يتخلى الإنسان عن جزءٍ من جسدهِ، لينجو بالكامل.

لهذا قرر أن يبتر وجودها قبل أن تُشكّل تهديداً لحياته، يتنازل عنها كجزءٍ من روحه، لينجو بما تبقى منها، لا يوجد أهم وأغلى منه عنده، وعلى من تقترب أن تعي أنّه الأول دائمًا وأبدًا، ورُغم إنكاره لرغبته في الإستئثار بالأفضلية المُطلقة، كوّنه لا يُعاني من أيّ نقص ظاهري، فهو رمز من رموز المُجتمّع، والطبقة المخمّلية كفارسِ للأحلام، ورجُل كامِل الأوصَاف، إلا أنّه فى النهاية رجُل ولا أكثر.

رجل يرغب في تلك التي توافِق طمّوحاته وتوقعاتُه، لا تتفوق عَليها امرأة، يستمّد من نَقصّها البيّن اكتمّاله، ومِن نقاط ضعفها قوته، ومِن إنطفائها بجواره توهجه البديّع.

إنهِ قرر خسارة ما يريده بملىءِ إرادته، ليتلمس الراحة فيمّا يحتاجه، ورغم محاولاته الناجحة ظاهرياً في إقصائها عن تفكيره، إلا أنّه لا يقوى على منع نفسه من تقصّي أخبارها.

إنّها تُعاني، يُدرك هذا ولكنّه أبدًا لن يتعاطف معها، فالعدّاد الآن يعمل لصالحه.

أيّ مشاعر خبيثة تلك التي يكنّها لها، حتى أتى هاتف محمود، ليقاطع أفكاره ويُبدّلها في لحظة، فها هي الأقدار تمنحه فرصة ثانية.

جولة أخرى يلعبها كما يحلو له.

ღ ღ ღ

تتحدث بنبرةٍ أنثوية ناعمة..

إنّي أتنفس تحتَ الماءِ، إنّي أغرق.. أغرق.. أغرق.

شعرها بنيّ كثيف متموج كبحر، فستان أخضر متناغم مع بريق عينيها.

ها هو يراها لأول مرةٍ بشعرها، وفستان أنثوي أنيق، مٌعلّق على كتفيها الأبيضين الرقيقين بحمّالات رفيعة، ينحسر عند الخصر ليبرز نحوله، ويهبط على ساقيها في اتساع نسبي، ليقف على حدود ركبتيها.

-ألن تنقذني إذاً ؟

- بالطبع لا، فأقصى ما تمنيت هو غرقك فيّ كما أنتِ الآن.

- أجل، تحديداً في بحر عينيك.

- وأخيراً وجدنا مكاناً يجمعنا، أنتِ تنازلتِ عن سمائِك، وأنا تخليتُ عن أرضي، إنّها المساواة.

نظر لها متأملاً، فاقتربت منه هامسةً :-

- ولكن أين نحيى، عندما يتخلّى كلّ منّا عن عالمه ؟

ابتسم وعاطفته ترتسم في عينيه :-

- في بحر عيناي كما قلتي من قبل.

رآها تواجه نظرته، التي حاول أن يخترقها بها، أن ينتزّع منها الموافقة في عيونها التي تتحول للزمرد الأخضر، فقط عندما تشتعل بالعاطفه، أجابته بتفكرٍ طفولي :-

- أممم لا.

- لِمّ ؟

- أنا لا أجيد السباحة، أنت تودّ غرقي.

- مؤكد.

عبستْ، فأردف :-

- اطمئني، سأغرق برفقتك، لا أعدكِ أن أترككِ تنجين مني.

ابتسمتْ :

-حسناً موافقة.

مدّ يدهُ يلامس خصلة من شعرها، يعيدها خلف أذنها، كي لا تعيق رؤيته لسهام نظراتها العاشقة، هتفتْ بيأسٍ طفولي :-

-ولكن(لا حتى) فى البحار لن تتكافأ.

تحدّثَ بحنق :-

-لماذا بعد ؟

-إن تحولنا لكائناتٍ بحرية، ستكون أنت حوت متوحش كبيير، وأنا لؤلؤة صغيرة في صدفة.

ضحك بصدق :-

-ما أوسع خيالك، لا أعدك أن أكون دولفين مسالم.

صمتت وكأنّها تُفكر، فتحدّثَ بحماس :-

-لديّ حل.

رفعتْ وجهها نحوه مبتسمة، تستند بيديها على كتفِه :-

-ما هو ؟

-حبيبتي لِمّ علينا أن نتحول لكائنات بحرية، وأنا البحر ذاته ؟

ضحكت ابتهاجاً :-

-حسناً أيها المغرور، إن كنت البحر فمن أنا ؟

-أنتِ عروسة.

شهقت مبتهجةً :-

-ها أنا عروس البحر.

ضحك :-

-أجل أنتِ عروس البحر، عروسي سارة.

ضمّته حتّى شعر أنّه يتلاشى.

-آدم.

-آدم.

صرخت بأذنه، ليهبَّ جالسًا على سريره في فزع :-

-ماذا هناك ؟

-استيقظ وأخبرني هل حقًا ستتزوج ؟

ظلّ صامتاً ينظر للفراغ أمامه في شرود، هل كان يحلم، لقد رآها ! رآها كما لم يتصور من قبل، كانا مغرمين كانت تضمّه و..

صرخت به:

-آدم.

أخذ وسادة بجواره وقذفها بها :-

-نور اذهبي أفضل لكِ الآن.

-لن أذهب حتى تخبرني.

دلفَ زياد للغرفة :-

-أجل نور أخينا الكبير هداه الله، وقرر أن يتوب عن كافة ما اقترفه في حقّ البشرية ويتزوج، ولكن ما يسعدني أنا شخصياً غير زواجه، هو اختياره، بصراحة خسارة فيك.

تحرّك ليمسك الوسادة، ويعاود قذف زياد بها :-

-أغربا عن وجهي، حالاً .

ღ ღ ღ

تنظر لنفسها في المِرآة أمامها، مشاعر مختلطة لا تعيها بعد .

فستان أبيض رقيق احتوى جسدها، مزين بحبّات من اللؤلؤ أعلى الصدر حتى الخصّر، ليتهادى في اتساعٍ مبهج إلى كاحليها .

لا زال شعرها منتشر على كتفيها، ووجهها خال من مساحيق التجميل التي لا ترغبها، تبحث عن نفسها في انعكاس صورتها عبر المِرآة، ما الذي حدث في الأيام الماضية ؟

نجتْ أمها ومرّتْ عملية زرع كِلية بسلام، رغم عدم تطابق كليتها مع كلية والدتها، حيث قررت أنّها وحدها من ستمنحها كليتها، إلا أنّ الأمور ببساطة تم تسويتها،

ووجد المتبرع وتمّتْ العملية، بإشراف أمهر الأطباء، وها هي والدتها بصحةٍ ومعافاة،كيف تمّ الأمر لا تدري صدقاً ؟

فمنذ أن تكلّف به، والأمور تسير بشكل لم تتخيله، أهي قوة المال وسطوة النفوذ ؟ حيّث تتذلل الصِعاب، آلمها، آلمها إلى حدّ تعجز عن وصفه، ولا تدري ما الخطأ الذي اقترفته، ليكافِئها بكل هذا الوجع .

تذكر حديث مريم وهي تلعنه، عن كونه يودّ إذلالها وإخضاعها، هزّتْ رأسها برفضٍ يائس .

تدافع عنه بدوافع واهية تختلقها، لتُقنع نفسها أولاً، لا تفهم كيف تركها تعاني وحدها طوال الفترة الماضية، ليّهبّ كبطلٍ هُمام، عندما أخبره محمود بطبيعة مرض والدتها، ليتدخل بشكلٍ جارح أكثر منه نبيل .

حيث أخبرها محمود بعبارةٍ أشبه بالهذر :-

-عملية والدتك أفضل مهر قد تحصلين عليه، أليس كذلك ؟

عبست بوضوح :-

-لا أفهم.

تحدّثَ بحرجٍ، وكأنّه مجبر :-

-سارة لقد أثير عنكِ وآدم الكثير، ولا زالت الأقاويل مستمرة، كلما هدأتْ الأوضاع تعود للإشتعال من جديد، لا أدري حقاً من الذي يشعل النار في الرماد كلما انطفأ ؟ والأهم، كونك لن تستطيعين مزاولة مهنتك، كصحفية في تلك الظروف.

-ماذا تعني ؟

-لقد هاتفتُ رئيس التحرير بشأن عودتك للعمل.

هزّتْ رأسها برفض :-

-محمود لا تتدخل ثانية، أرجوك..

قاطعها :-

-سارة الأمر أكبر مما تتخيلين، اسمعي رجاءً، الآن أنتِ رهن الإعتقال في أىّ لحظة، تحتاجين لمن يمنحك الأمان والحماية، هناك من يتربص بكِ، بإنتظار أن يرفع آدم درع الحماية عنكِ، أو أن تعودي أنتِ لنشاطك كفخٍ جديد.

-محمود ! هناك العشرات من الصحفيين، حيث يتم إعتقالهم والإفراج عنهم..

قاطعها مجدداً :-

-ربما الوضع لديكِ مختلف، خاصة بعد ظهورك برفقةِ أكبر رموز المعارضة، والإعلام الحرّ عالية الزهار، عالية الزهار رمز أكبر من أن يعتقلونه، دون أن تتحول قضيتها لقضية رأي عام. أما أنتِ فكونك الطرف الأضعف..

–ما الذي تودّ الوصول إليه محمود .

–كونك زوجة فعلية، أو محتملة لآدم نور الدين، حل أكثر من فعّال، لممارسة حريتكٍ فى التعبير، أوعلى الأقل العيش بسلامٍ دون القلق كلّ لحظة، من احتمالية إعتقالك مجددا .

صمت . . صمت تام تودّ أن تعي ما يقول ولا تقوى، ازدردتْ ريقها، حيث شعرتْ بحلقها يجفّ، والكلمات تتبخر، آدم نور الدين، وكأنّه فجّر ذلك البركان الخامد بمجرد ذكره.

–ألا تدري ماذا فعل ؟ كيف تصرف ؟ لقد تركني للجميع، الجميع بلا إستثناء الحق للعبث معي، رغم قدرته على وقف تلك المهزلة. تركني أفقد عملي، وأرحل من عالمه ببساطة، تركني في أقسى لحظات ضعفي وألمي، والآن تخبرني أنّه هو مصدر الحماية ! أىّ سخريةٍ تلك محمود .

–سارة، مؤكد آدم لم يكن يقصد، ربما تصور أن الصحافة ستصمت يوماً ما، ولكن . .

–ولكن عندما تفاقم الوضع قرر أن يضحي بنفسه لأجلي! بربّك محمود، هل تصدق ما تتفوه به حقاً ؟

–سارة.

ارتعشتْ نبرتها، وترقرقتْ الدموع بعينيها، الآن فقط تستوعب روحها مقدار ما ألحق بها آدم من ضرر.

–أشكره محمود . . شكراً جزيلاً لخدماته.

استطردتْ بنبرةٍ حازمة :–

–ورجاءً لا تلجأ إليه في أىّ أمرٍ يخصني، أرجوك .

–ولكن هو وحده من يستطيع التدخل، لإتمام عملية والدتك سارة، وهذا أساس حديثي من البداية.

–لا زلت لا أفهم.

تحدث بسلاسة، وكأنه أقنعها بما لا تدركه بعد .

-لقد سافر آدم اليوم لإتمام عمل ما بالخارج، عند عودته يتم عقد القران، ننشر الأمر بالصحف لتهدئة وتعديل الأوضاع القائمة، تعودين للكتابة بكل ثقةٍ وشجاعة، فلا توجد سلطة في البلاد، قادرة على المساس بزوجة آدم نور الدين، وحتى يحين موعد عودة آدم، تكون والدتك قد أتّمتْ عمليتها على خير، لقد تحدثت مع الطبيب بشأن تحديد موعد العملية، فور إيجاد الكِلية الملائمة، وحضور أمهر الأطباء للعملية، مهما تكلف الأمر وتلك أوامر آدم بالطبع .

أنهي حديثه بإبتسامة:

-ألمْ أقل لكِ أفضل مهر على الإطلاق، هو سلامة والدتك أليس كذلك ؟

-وأنا ؟

-ماذا عنكِ ؟

ابتسمتْ بمرارة :-

-أليس لي رأي ؟

-وهل آدم عريس من الممكن رفضه ؟

-وهل تُركِ لي الخيّار ؟ إنّه حتى لم يُكلف نفسه عناء مهاتفتي ليخبرني بنفسه رغبته في الإقتران بي.

-سارة، ما يهمّ الآن هو مصلحتك ومصلحة عائلتك .

-أنا وعائلتي لسنا مثار اهتمام للسيد آدم، لست ساذجة كما السابق لأُصدق.

تجمدت ملامح محمود، لإدراكه لصحة حديثها .

-لماذا يفعل هذا محمود ؟ لماذا بتلك الطريقة ؟ أرجوك أخبرني.

ليته يدري، هو أيضاً لا يفهم، قبل إخباره بأمر صحة والدتها . . .

قاطعه آدم كونه أنهى كل ما يتعلق بسارة، سواء فى الشركه أو حياته، ورغم هذا أراد معرفة أخبارها، ليترك الأمر مُعلق ليومان ثم يهاتفه، ليخبره بكل تلك القرارات، التي لا يدري أي دافع حرّك صديقه ليتخذها، ليجمع التناقضات ببساطةٍ وبمنطقية فى نظره، ودون تبريرٍ لأحد .

دلفتْ مريم إلى غرفتها، تراها بثوبها الأبيض، تغزو الدموع عيناها دون إرادةٍ منها . سارة بالأبيض، سارة عروس.

-ما شاء الله يا قلبي، اللهم احفظها، جميلة يا سارة، جميلة.

ضمّتها سارة في صمت :-

-تتزوجين ليتني أصدق، أنا لا أصدق بعد .

مسحت مريم دموعها المخترقة لوجنتيها :-

-سارة، أنتِ بخير ؟

-أجل الحمد لله .

ماذا تقول ؟ كيف تبارك لها زواجها، وهي لا تدري بأىّ رجلٍ قد تورطت، لطالما كانت متوجسة منه نحو صديقتها ،إلا أنّ سارة كانت عادة تتحدث عنه بالخيرٍ والصلاح !

إن كان بينهما تقارب فعليّ، لِمّ قرر زواجها بتلك الطريقة المهينة ؟ وكأنّها صفقة قرر أن ينهيها غيره، أو عقار وكلّ محمود بإنهاء معاملات شرائه، هل يحبها ؟

بالطبع يحبّها، أي رجل هذا الذي يقترب منها ولا يُفتّن بها ؟!

ولكن هل هو رجل بالأصل، يحمل من صفات الرجولة ما يؤهله لتقديرها حق قدرها، غير راضية هي أبدًا، لقد تشاجرت مع محمود مُتهمة إياه بالسلبية، وإتباعه لصديقه دون تفكير، مما زاد الجفاء والخصام القائم بينهما أصلاً.

ولكنها لم تتحمل، لم تتحمل أن تجد صديقتها الوحيدة تتزوج من هذا الشخص بتلك الطريقة، وكأنه يُصر على إسقاطها من سمائه كعصفورٍ شارد، يؤرقه بطلقةٍ نارية صائبة حتى وإن سقطت قتيلة !

توجهتْ نحوها تُتمم على مظهرها النهائي، جمعت شعرها ووضعت وشاح الرأس الأبيض، مثبتة طرحة الدانتيّل الأبيض المزينة بورودٍ بيضاء صغيرة، خلف تاجٍ رقيق من اللؤلؤ الأبيض، والألماس البّراق.

عيناها لا تحتمل التجميل الخارجي، تشوهياً لجمال أبدعه الله، فقط ماسكارا أكسبت أهدابها حدّة، مما جعل خُضرة عينيها، تتوهج حيث يسقط عين الناظر إليها، إلى عينيها بتوجيّه فطريّ.

نثرتْ لوناً وردياً خفيفاً على شفتيها المكتنزة في مثالية، كوردةٍ يفوح شذاها، كلما حركت شفتيها في حديثٍ عابر، كانت مُبهرة في بساطة.

-هيا خالتي تفضلي.

الآن اسمح لكما بمشاهدة العروس.

هرولتْ سالي من غرفتها، بعد ما تجهزت بفستان ذهبيّ براق، تضم أختها وتبكي، ووقفت والدتها بنهاية الغرفة، تنهمر دموعها بلا توقف لا تقوىً على التعبير، أو الحركة.

تحدثتْ مريم :-

-سارة لا تبكي أرجوكِ.

أومأتْ بصمتٍ وتوجهتْ لوالدتها تضمّها، وكل منهما تبكيان على ما وصلت إليه الأمور.

-آدم شخص جيد تمامًا، غريب الأطوار ربما، لكنه جيد بصدق، ورائع أيضاً بيننا تقارب كبير و...

قاطعتها :-

-تطمئنيني، أم تطمئني نفسك.

-الأمران معاً.

-ليتني أطمئن فعلاً.

تحدثتْ مريم :-

-فات وقت هذا الحديث خالتي، لا تصعّبي عليها الأمر.

-كفاكم جميعاً، أنا أدرى الناس به، آدم ليس شخصاً سيئاً على الإطلاق، إنه على خُلق، ولديه مباديء، مجتهد في عمله، يدعمني.. يفهمني.. يخاف عليّ، أنا راضيه تمامًا عن هذا الإرتباط، ومستعدة لتحمّل تبعاته.

ღ ღ ღ

-أين كنت ؟

-بالخارج .

-أجبني دون مراوغة محمود .

نظر نحوها ينظر لوجهها الجامد، لأسلوبها المُتبع منذ أشهر، ألم يخبّر أحد النساء أن أسوأ ما قد يقمن به هو إشعار أزواجهن، بالملاحقة والمراقبة بأسلوبٍ فجّ.

-مريم أنا متعب وأحتاج للنوم.

-تهرب كالعادة.

-مرييييم لا تختبري صبري، لم أفعل ما يجبرني على الهرب منك، فلا تدفعيني.

-تهددني محمود !

صرخ بها :-

-اتركيني لحالي ممكن، لا أودّ أن أسمع أو أتحدث، فقط أتركيني وحدي.

-منذ متى وراحتك بالبعد عني ؟

أغمض عينيه في حنقٍ يتمتم بكلماتٍ مبهمة :-

-لا تزيدي الفجوة مريم، لم أعد أحتمل.

-لتلك الدرجة.

-وأسوأ، أتحمل منذ زمن، أرى ولا أتكلم، أسمع ولا أُعلّق، أتجاهل وأتجاهل، وأُمرر الموقف تلو الآخر، لكن طفح الكيل، فهمتِ.

توجّه للخارج مرةٍ ثانية وصفع الباب خلفه، أخذ يهيم بسيارته بشرودٍ دون وجهة محددة، فقط اختنق.

حتى رنّ هاتفه باسمها :-

-ما بكِ رانيا ؟

-أتألم محمود، يبدو أنّي على وشك الولادة، تعالى أرجوك فى الحال.

-حالاً رانيا، استعدي أنا فى الطريق إليكِ.

توجه مسرعاً، فهو يدري أنّها وحدها، وأخيها يلزمه خمس ساعات على الأقل ليصل من مسكنه.

♡ ♡ ♡

ربما يتعجب زياد من طريقة ارتباطه بها، ولا يجد تفسير، ومحمود كذلك، حتى هو يتعجب من نفسه، هل يصدق أياً منهما، أنه أحياناً لا يدرك بصدق دوافع أفعاله، يظهر بمظهر الواثق من نفسه، المُدرك لكلّ خطواته كونه الإمبراطور الأكثر تميّزاً على الإطلاق في مجال الأعمال، وخلف تِلك الواجهة الغامضة بقوتها، يكمُن رجل خائِف.

خائِف منها من مثاليتها المُفرطة التي تمناها، وتوقع استحالتها، وعندما وجدها تتجسد أمامه فيها، لم يرغب بقربها بل بإفسادها، دون أن يشعر.

هو الذي غايته الأولى ليست سوى الكمّال، ليجدَ أنّ كُل ما يقترب للكمال أكثر منه، يكشف عن نقصه لنفسه، ولم يجد في محيطه من هو أفضل.

صدقاً لم يجد، هو الأفضل والأنبل، والأصدق والأقوى، والأكثر تميزاً، فَلِمّ تنافسه فيما يخصه وحده، أنه لا يغار منها بالطبع، ولكن لا يغفر رجل مثله، لفتاة أقوى منه لم تخضع له بعد.

هو المُدافع الأكبر عن استقلالية المرأة وقوتها، وإثبات ذاتها ونجاحها وعملها، يظنون أنه أراد إذلالها، أغبياء، إنه يحترّمها ويقدسها كما لم يفعل مع أي فتاةٍ من قبل، ولكن ربما هو لا يؤذي إلا من يحب، ولا يكره إلا من جذبه ولم يقع في حبه.

أليستْ الكراهية أحياناً أعمق أنواعِ الحُب عند نكرانه، يُفضّل أن تراه كمختلٍ غريب الأطوار على أن تدري أنه لم يجدٍ سبيلاً طبيعيا للتقرب منها، كُل الطُرق إليها تمُر بكبريائه.

هي من جعلت من نفسها صعبة المنال، فلتنال ما تستحق، يُدرك أنها لا تحبه، أغمض عينيه في ألم، الأحمق الغبي فعل قبل أن تفعل هي، هل كان عليه أن يخسر آخر ما تبقى من غروره الرجولي المتألم، لأكثر من عامٍ جراء ضغطه عليه، ليتحمل كل حماقتها الساذجة في حقه، أن يكشف لها قبل أي أحدٍ آخرٍ، ما الذي توصّل إليه.

أرهقته، مُتعب بحق ولا مأوى له يريحه إلّاها، يُدرك أنها ما كانت لتتلهفَ للإقتران به كما غيرها، نظرتها له كانت مختلفة، نظرة لروحه، تقييم لكيانه، لن تتأثر بسحر وسامة، ولا سطوة نفوذ، ولا إغداق مادي، لن يُجازف كان من المستحيلٍ عليه أن يجازف بنفسه لأجلها. أن يقف في محل إختبارٍ، بين أن توافق أو ترفض، هبّ واقفاً من على كرسيه، نحو صندوق اللعبة التي يحياها.

ليمسك إحدى أوراق مذكرات والده رضوان نور الدين:

"عندما تبلغ المرأة مُنتهى توقعات وأحلام الرجل، عندما تكشف له آفاق جديدة، ترفع سقف المشاغبة والشغف بينهما، إلى حدٍ يُجبّره على الوثبِ الدائم، عندما يتأكد أنه لن تصل

إلى تلك النُقطة بداخله امرأة سواها ، فتكشفه لذاته، مُحققة له سعادة حادّة قصوى، ولكن لفترةٍ قصيرة.

فى الواقع قصيرة جدًا ، مُخلفة شعور بالضعف، لسقوط قناع غموضه، الذي استعصى على الجميع، إما أن يكن طوّع لها ليّن خاضع، وإما العكس تمامًا ، فالرجل الذكي البادئ باللعبة المسيطر، الواضع لقوانينها لن يستسلم، فإما أن يكسرها مُنتقماً لخروجها عن نطاق سيطرته. وصولها إلى ما لم ينبغ عليها الوصول إليه، تلك المنطقة المظلمة المحرمة بداخله.

ألا يتخلص الساحر ممن يتجرأ، ويكشف سر ألاعيبه السحرية، حيث ما عاد قادراً على إبهاره، باحثاً عن مُتفرجٍ جديد، يصفق له وينظر نحوه بإنبهار وكأنه معجزة.

لهذا يضطر مرغماً، لكسر سقف التحدي فوق رأسها ويرحل، كطفلٍ مُدلل أرهقته لعبته، ولمّ يُدرك كيف تعمل، كيف تسليّه.

أين زر التشغيل والإيقاف والتحكم، تستنفذ طاقته كميكانو مُعقد لا سبيل لحلّه، كلما انتصر على وجه هُزم على آخر، يصرخ غاضباً محطماً لعبته التي تاق لإمتلاكها، وحرّم نفسه من ملذاتٍ عدّة، كطفلٍ متحمسٍ شغوف.

أخذ يجمع نقوده يوماً بعد يومٍ، لتدفعه إلى التخلي عن كل ما بذله للوصول إليها، ما دام تحطيمها يترك شعوراً خبيثاً لذيذاً، لإنتصاره المؤقت، وما لا يدركه حينها، أنه يتبعه شعور عميق بالخواء والفراغ، وفي النهاية شعور متقطّع، على فتراتٍ من الندم يمحوه بكلٍ غطرسة، في لذةٍ عابرةٍ وقتية، ولكن ها أنا بعد أعوام، أدرك أنّ المريض بمرضٍ مزمن لن تشفيه المسكنات، وعالية كانت مرضي المزمن، وسائر النساء بما فيهم شهيرة مسكناتٍ مهما كانت فعّالة، لا تمنحني سوى القدرة على متابعة الحياةِ دون ألم، ولكن هذا لا يمنع أنّ المرض يتخلل بالروح، ليفتكَ بي على حين غفلة".

وضعه بالصندوق وأغلقه مجدداً، سحب سيجاراً وأخذ ينفث دخانه في هدوء. دلفتْ لمكتبه بعد الطرق بخفة، توجهت نحوه لم يرفع وجهه نحوها.

يُدرك أنها هي.

جلستْ أمامه في صمت، أنهى سيجاره وسحب آخر. صمتتْ وتحمّلتْ، وكأنّ البقاء للأكثر صبراً وصمتاً، نظر نحوها يتأملها في تفحص دون أن تُعبر نظراته عن شيء، كما تخيلها كما حَلِم بها، شعرها شلال بُنيّ طويل متموّج تجاوز خِصرها، كموجاتِ بحرٍ من الشوكولا الذائبة.

لم يتوقعه بهذا الطول المُبهر، يُشكل مع قصر قامتها لوحة بديعة، فهو يفترش ظهرها بأكمله، عيناها البليّغة التعبير، التي تدور كما الآن في أي اتجاهٍ بعيد عن عينيه، ترى هل عندما تتقافز فيهما المشاعر ستكونان ساحرتان كما في حِلمه، وهي مستسلمة له تمامًا، وجنتاها المُخضبتان بالحُمرة الطبيعية، نتيجة لخجلها الذي يُمتعه ويستفزه في آنٍ واحد.

يُفكر عليها أن تتخلص كُلياً من سذاجتها، وجزئياً من براءتها، ولكنها ليست طفلة جاهلة، بها وهج أنثوي واضح، تتباهى به رغم عملها على مداراته وإخماده، يدري الآن أحد أسباب تورطه فيها، أنها الوحيدة التي جمعت بين الضّدين في النساء، الذكاء والبراءة.

في سائر النساء جزء ماكر خبيث، إذا أردت التمتع بفنون ذكائهن، فأنت تتعامل مع سلاح ذو حدين، لتنال نصيبك من كيّدهن العظيم.

إذا ما قررن أنك تستحق، إلا هي يعترف لنفسه أنها تمتلك من طيبة القلب ونقاء الروح ما يجعلها تترفع عن تلك الأفعال، بل تبغضها، متى تتحرر من الفقاعة التي تحيا فيها منعزلة عن العالم.

يتعمد أن يسخر منها، يسخر من كل ما يميزها ويعجبه فيها، ربما ليحدّ من تأثره بها، ولى زمن مدح كل ما هو جميل فيها، ليضع نفسه في حيّز اهتمامها، شفتيها الشهيّة، التي تعض السفلى منها كما رآها لأول مرة، لتدعهما يا للحماقة ستؤذيها.

يبدو عليها التوتر ربما من جراء تفحصه، حسناً مثير له أن يثير ارتباكها ويزعزع ثباتها، إنها ترتدي كنزة صوفية خضراء، ابتسم إبتسامة جانبية هل كانت معه بأحلامه تقرأ أفكاره؟

اتسعت ابتسامته وهو يفكر " ياريت "، مع الفارق طبعاً، ولكن تطابق اللون الأخضر مؤشر جيد، ربما تتحول الكنزة ذات الأكمام الطويلة، لفستان بلا أكمامٍ من يدري ؟

تنظر له بتعجب، أنه يبتسم في شروده دون أن يتفوه بكلمة، منذ أن جلست أمامه " المجنون" رأته يسحب سيجاره ثالثة، مدّتْ يدها وسحبتها منه دون وعي، نظر نحوها بتعجبٍ وتحدث بسخرية :-

-تودين التجربة، ممتاز.

رفعت حاجبيها في ذهول :-

-أتودّ إفسادي ؟

ضحك بصدق :-

-قولي إن شاء الله.

-أتحدث بجدّية آدم.

-وأنا أيضاً.

-رجاءً حاول التقليل من التدخين.

-ألم تدركى بعد أنّ الرجال عند سن الثلاثين، لا يُغيرون عادة، ولا يستمعون لنصحية.

-أظنك لا تستمع لنصيحة منذ كنت فى المهد، عامل السن لا يُشكل فارق.

ابتسم :-

-هذا حقيقي.

-ما سر زيارتك العزيزة لمكتبي ؟

-ماذا تعرف عن محمود ؟

اضطجع في كرسيه نافثاً دخان سيجارته :-

-صديقي منذ أعوامٍ وزوج صديقتك و . . .

قاطعته :-

-آدم لو سمحت، أنت تفهم ما أعني فلا داعي للمراوغة.

-لِمّ ؟ مع أنها من أهم تخصصاتِك.

-أدفع ثمن وضوحي وصراحتي غالياً في كل مرة.

-إلا معي.

-لأنك لم تفعل، تُطالبني بما لم أجده فيك. تطالبني بما لم تمنحني إياه.

-ماذا تعنين ؟

-تفهمني جيدًا آدم، لا ينقصك الذكاء.

-لِم تسألين عن محمود ؟

-أنت تدري، محمود بالنهاية بمثابة زوج أختي وأخ لي.

يُفكر.. لا يستطيع أن يواجه نفسه، أن محمود كان مثار غيرة حارقة له، خاصة وهي تنبسط معه وتهتم لأمره، وكأنّ محمود يعنيها أكثر منه، كاد أن يجنّ ومحمود يخبره بإقتراح والدته لمريم، بالزواج من سارة، منذ أن تقدم صلاح إسماعيل لخطبتها ورفضت.

لقد أخفى عنه الأمر كُلياً، ولم يُصرح إلا في تلك المُكالمة الهاتفية، التي بدلت الموازين عندما تم حجز والدتها في المشفى، لا زالت هي الوحيدة الجاهلة، يودّ إخبارها علّها تُصعق، وتسقط من سحابة عالمها الخيالي المثالي.

-محمود مُشتت ولا يجد راحته في بيته، لا ألومه أياً كان تصرفه،عندما لا يجد الرجل راحته في المكان، الذي خُلق ليكن سَكنه وسعادته وقوته، ليقوى على مواجهة العالم الخارجي، يحقّ له أن يتحرر، ليبحث عن مكانٍ آخر يجد فيه ملاذه.

عبست تُفكر . . أي مكان وأي تحرر، من أين أتى بهذا الاستنتاج ؟

في نفس الوقت الذي يُفكر فيه هو برضوان نورالدين، الذي ورث جرأته في الكلام ولم يرثها فى الفعل، أباه الذي خدع ذاته، والجميع بحياةٍ أسرية، لم تكن كما يتمنى أبدًا .

واستمر حفاظاً على شكله الاجتماعي، ونكاية بمن يظن أنهم يتربصن لفشله، وأولهم عالية الزهار .استمر ولم يتجرأ على إنهاء تلك الزيجة، التي كانت أصل تعاسته في الحياة، وكأنها عقابه أو إبتلاؤه. نحن لاناأخد من الحياة ما نريد ، بل ما تودّ هي أن تمنحنا إياه، ومنحته كل شيء إلا الحب، ولم يتفاخر إلا بما ينقصه وهو الحب.

يُكثر من الحديث عنه، ويتفلسف فيه وكأنه عاشق بارع، ولا يدري أحد أننا لا ندور إلا حول نقاط ضعفنا ، لنعمل على تضليل الجميع بنكران أننا نعاني منها .

-هل تظن أنه من الممكن أن يسيء لمريم ؟

-مستحيل محمود لا يفعلها .

قطعت أفكاره وابتسم بسخرية :-

-تثقين به كثيراً .

-محمود ليس محل شك، إنه رجل نبيل.

يُفكر هل كانت تتمنى رجلاً كمحمود ؟ هل تراه أفضل بمقاييسها الخاصة ؟

-يا عزيزتي نحن الرجال نقمع الوغد بداخلنا ، لكن عندما تحين له فرصة، ليطفو على السطح ليس بيدنا حيلة.

أردف بعد صمتٍ قصير :-

-تأكدي جميعنا أوغاد بشكلٍ أو بآخر.

-إلى أي حدٍ تمادى .

-أعتقد إلى حد اللا رجوع.

بهتت ملامح وجهها بحزن. همست ومريم :

-إن فعلها وتزوج ، لن يكون من أجل الأطفال فقط للعلم.

-محمود يحب مريم آدم.

-أحياناً نترك من نُحبهم، لنغرق في بحور من يحبنا ، علّنا نشفى من جرح، أنهم لم يبادلونا ذلك الحب.

نظر نحوها وكأنّ الكلام مّوجه لها ، أبعدت بصرها عنه.

-ليس مبرر.

مؤكد لن تشعر به فعذراء القلب، لم يذق قلبها الحب بعد .

أجاب بسخرية مريرة :-

-ربما إن أحببتِ يوماً تشعرين .

لِمّ يتعامل على هذا النحو! لِمّ تشعر به يتهمها ويلومها على شيء، لا تدري ما هو ؟

أخبرتها مريم يوماً بأنه. .

-ربما يحبك ويكابر.

بهتت ملامح وجهها من الصدمة، أي حبّ ؟ من آدم ! لتجيبها في حزم :-

-إنه لو فعل وأحبها لأخبرها .

وكأنّ الأمر بتلك البساطة لديه.

طرقت نور الباب بخفة، ودلفت تتحدث بمرح :-

-إحم إحم عذراً لقطع خلوتكم في هذا الجو الشاعري.

عبس ناظراً نحوها :-

-ماذا تريد الآنسة إزعاج ؟

ضحكت بخفة ليبتسم لها :-

-إزعاج لذيذ، أليس كذلك سارة ؟

ابتسمت لها :-

-بالطبع حبيبتي.

نقل بصره بينهما .

-أرى أنكما تتوافقان بسرعة مذهلة.

تحدثتا في صوتٍ واحد :-

-أجل.

أتبع موافقتهما ضحكة منهما، وإبتسامة منه :-

-كنت أدري كان الله فى عوني منكما .

-وكان الله فى عوننا منك.

نظر نحوها بتوعد مرح :-

-هكذا إذن.

-طبعاً .

-لَم تصمتين نور ؟

-إنه أمر خاص.

رفعت يدها باستسلام، وكأنها تنفض يدها من الأمر :-

-لا شأن لي بكما .

-فتاة ذكية نور، أتركيها ستنال عقاباً مناسباً لاندفاعها .

-لم أقل شيئًا بعد .

-اثبتي على تلك الجرأة للنهاية .

ضحكت نور بخفة :-

-حسناً حسناً، سأنسى ما جئت بشأنه، دكتورأحمد عمران ينتظرك بالأسفل .

تحرك من كرسيه ليذهب حيث دكتور أحمد، الدكتور المباشر لحالة جدته الصحية .

-بعض الوقت وسأعود .

ابتسمت :-

-بانتظارك .

غادرتا مكتبه وتوجهتا نحوالشرفة الخاصة بجناح نور، يتحدثان بأحاديثٍ عادية، كشأن سائر الفتيات، حيث وجدت كل منهما في الأخرى، صديقة مُحِبّة ودودة .

خرج دكتور أحمد، وهي تتابعه ببصرها من الشرّفة، لتجده يلتفت يرفع رأسه للأعلى، يسترق نظره في خجلٍ ويمضي .

تحدثت هي تقطع على الشاردة أفكارها :-

-مساء الخير .

-نعم ؟

-وجدتك شاردة، فتحدثت أذكرك بوجودي .

-لا لا لست شاردة أنا معك .

-أي شاردة، لا يوجد سبب أصلاً، أنا فقط أتأمل أعني . .

ضحكت ساره بصدق، ووضعت يدها على يد نور :-

-اهدأي.

أشاحتْ نور وجهها في إحباط، تحدثت بعد لحظات من الصمت :-

-لا يوجد بيننا شيء، أبدًا .

أحمل له في قلبي الكثير من المشاعر، وهو في عالم آخر.

-لا يبدو عليه أنه غير مهتم.

-كل اهتمامه نظرات خجولة، وحديث عابر منذ سنوات.

-سنوات ! أي سنوات نور أنك بعمر التاسعة عشر فقط.

-إنه ابن طبيب العائلة، صديق أبي رحمه الله. أعرفه منذ كنا فى الثالثة عشر، ولكنه لم يكن يأتي لمنزلنا إلا مراتٍ قليلة، أشعر وكأنه يكره الأثرياء، لا أدري لطالما كان متحفظاً ونحن صغار، لم يتقرب من العائلة إلا بعد وفاة والده هو الآخر، وأصبح يباشر صحة جدتي منذ ثلاثة أعوام.

صمتت وشدّدت من ضمها ليدها، لتجد الدموع غشت عينيها، ضمتها إليها في حب :-

-أتألم سارة، أعوام وأنا على هذا الحال، أكتم في قلبي حتى أوجعني الكتمان، حاولت أن أصرفه عن تفكيري كثيراً ولم أستطع، وجوده الدائم في محيط عائلتي يشتتني، ويذهب بقراري أدراج الرياح، أخبرت نفسي أنها مراهقة وستمضي، دخلت الجامعة، وحاول أكثر من شاب التودد لي، ولكن لم يثرن في نفسي أي شيء، لا أدري عنه شيء، أنا حمقاء غبية، أدري ربما كان مرتبط بفتاةٍ أخرى، ربما كان يحب إحداهن بالفعل، بكت في رثاءٍ لحالها على أعوامها الماضية.

استطردت :-

-أخبرتني لينا ذات يوم، أن من تريد شيء عليها السعي نحوه، والمحاولة بشتى الطرق للحصول عليه، ولكني لم أقوَ على التقرب منه، لم أستطع أن أفعل، لا أدري هل هو جبن مني، أم خجل.

-هل آدم يدري ؟

-بالطبع لا، لا أحد على الإطلاق يعلم، حتى لينا كانت نصحيتها في حديثٍ عابر لا يخصني تحديداً.

رفعت نحوها عينين مغرورقتين بالدموع :-

-ماذا أفعل ؟ هل حقاً الغاية تُبرر الوسيلة ؟

-ربما أنتِ تتحدثين إلى شخصية مُنقرضة، تصر على أن تكون الوسيلة في نقاء الغاية، ولا تجد مبرر لأي طريق ملتو، وإن كان الطريق الوحيد لِما أصبو إليه، ثم ما أدراكِ إن بلغتِ هدفك، سيمنحك حينها الشعور المنشود، والحاله التي تصورتيها في مُخيلتك، ربما جَلّ ما بغيّته في النهاية هو سعادة وهمية مؤقتة، تأكدي كلما كان توغله في روحك أقل، كلما كان تجاوزه أسهل، لهذا لا تورطي نفسك بنفسك، لنعتبره إبتلاء، علينا شَغل أنفسنا إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا.

-ماذا تعنين ؟

-ربما ينتظر وقتاً مناسباً، ليبوح بمشاعره تجاهك، ربما يقتحم أحدهم حياتك، ليقلبها رأساً على عقب.، تذكري أنّ شعورك نحو أحمد، لم يتخط مرحلة الإعجاب، حتى وإن كنتِ ترين غير ذلك الآن، ستضعين الأمور في نصابها الصحيح، عندما تختلف رؤيتك للحياة بعد أعوام.

-إذاً لا سبيل له ؟

-الله هو السبيل فاتركيه لله، واطلبيه من الله، الله لا يكسِر قلباً يحبه.

-ولكن قلبي يؤلمني.

-الله سيداوي قلبك سواء به، أو بغيره، كوني على ثقة.

-هل من الممكن حقاً ؟

ابتسمت :-

-وما ذلك على الله بعزيز.

-سارة أنا أحبك .

ضحكا في طفولةٍ تجمعهما.

-وأنا حبيبتي.

ღ ღ ღ

رجل بدهائه يُدرك أنه لتكشف المرأة عن حُبها رُغماً عنها، يجب أن تميّز غيظاً، ويشتعل فتيل قلبها بنار الغيرة، وهذا ماعمل عليه بكل جَهد، لكنه لم يكن يُدرك أن قلبها الرقيق لن يتحمل هذا اللهيب، الذي يحرقه ليخمد هذا الشعور بكُل مكابرة عوضاً عن الصُراخ، والمُجاهرة به تحت وطأة التعذيب "كفى أنا أحبك".

بل قالتها بصمتٍ باكي " إرحل.. لا تستحق الحب ".

هبطت الدّرج مُتألقة كأميرة، أنها تليق به بشكلٍ مثالي، يراها تتهادى بفستان أظهرها كعاشقةٍ مُتمنعة. ما كانت تودّ أن تتفوق عليهن، يدري في قرارة نفسه أسِفاً، أنها الأفضل.

تثبت ببساطة أنها بتّفردها، لا تُشبهن في شيء، بفستانها الأرجواني هذا اللون الساحر بغموض مصنوع من الشيفون المُبطن بالحرير اللامع، مما يمنحها رقة وأنوثة، تعلن عن نفسها برقي دون ابتذال، على عكس اللواتي حشرن أجسادهن، باختلافاتها المُمتلِئة والنحيلة، بداخل أثوابٍ كاشفة وإن كانت مستترة، فهي ضيقة حد عُسر الحركة، تظهر الجسد بتفاصيله للعِيّان.

كانت سوزان تضع طبقات كافية، من تلك الأصباغ التجميلية المتقنة المثيرة، ربما هذا هو الطبيعي، ولكنها على عكس النساء في الإحتفالات لم تضعْ أطناناً من مساحيق التجميل. فهي ترى أن التجميل تغيير في تركيبة الجمال الحقيقي، وربما إفساده.

اقتربت سوزان بثوبها الأحمر العاري الكتفين، والمشقوق من الصدر بوقاحة، كانت مُثيرة بابتذال، تبادلا سلاماً بارداً، لتتحرك بعد لحظاتٍ نحو لينا، التي جاءت الحفل ببرودٍ مُصطنع، وعين جائعة مُتلهفة، تدري أنها ما تريد سوى أن تشبع به.

بأناقاتها، بثوبها الأسود القصير، الذي كاد أن يتفتق من علىٍ جسدها لضيقه الزائد، ومساحيق التجميل الواضح أثرها، ونظرتها السوداء الحادّة، التي لم تكُن سوى نافِذةٍ لسوّاد أعمق مُتأصِل بداخلها.

ابتسمت سارة في تعجب الآن اجتمعتا سوزان ولينا سوياً، رغم نفورهما الدائم من بعضهما البعض، كما أخبرتها نور من قبل ، صحيح عدو عدوي صديقي. ها هي تتوجه نحوه، يتبادلان الحديث والنظرات والإبتسامات! لم تتوقع يوماً أن يضعها القدر، كزوجةٍ في علاقةٍ واهية، مالها من قرار.

تُراقب بتغاب مُتعمد رجل، من المفترض أنه زوجها، مع حبيبة سابقة تسعى أن تكون زوجة مستقبلية، شرد زياد ينظر نحوهما ويفكر، كم يتشابهان !

تغار وتصمت، ويغار وينكر، هكذا هي غيرة العُقلاء، والمُكابرين تحرق أرواحهم دون رماد. كي لا يستدل به عليهم.

نقر أحمد على كتفه ليلتفت نحوه، متبادلين سلام رجولي ودود.

ينظر نحوها.. نحو نور.. نوّره الشارد، الذي لا يرجو سوى أن تتحول لنور يخصه وحده. شعرها الأسود اللامع، معقود بشكلٍ يبدو معقد ولكنه جميل، وتلك الخصلات الشاردة تمنحها مظهر أكثر حيوية.

فستان أزرق طويل، يُظهر قامتها المتوسطة، وجسدها الرشيق في مثالية، ولكنه مكشوف الذراعين، يدرك اختلاف نشأتهما، وأنّ مظهرها يبدو عادياً، ولكنه يغار، ماذا يفعل ؟ لا يتصور أن هذا الجمع الغفير يراها هكذا !

يُدرك زياد بحدسه القوي تلك النظرات المتُبادلة على استحياء، ولكن ها هي أخته تتحرك نحو سارة، وكأنها تحتمي بها .

ابتسم في نفسه " نور المزعجة تتحول لأنثى خجول "، سبحان الله ! كاد أن يضحك، ولكنه تحدث بشكلٍ مفاجيء، ليسبب الإرتباك لهذا الهائم بأخته، وهو بجواره يظنه لا يرى أنه يتتبع خطواتها . ضًرب على كتفه بمزاح رجولي :-

-نوّرت يا أحمد .

ليزدرد ريقه وينفض رأسه بخفة، وكأنه عاد للواقع :-

-نوّرك زياد .

كاد أن يضحك، متمتماً في نفسه:

" إنه نور نور أختي، فى الواقع يبدو أن الأيام القادمة تحمل بعضاً من التسلية " .

توجهت نحو محمود الواقف بجوار رانيا، تبادلت سلام ودود مع رانيا، واطمئنت على ابنها وصحته، ثم التفتت لمحمود بجدّة عفوية :-

-أين مريم ؟

أشاحت رانيا بوجهها، وكأنها لا تود السماع :-

-لم ترغب في المجيء .

-هل لي بدقيقةٍ من فضلك ؟

-مؤكد .

ابتعدا قليلاً عن رانيا، ليظهرا في حيز رؤيته.

-ماذا هنالك سارة ؟

-ما سر تقربك الغريب لرانيا ؟

ارتبك قليلاً مما فاجأها، فرغم سؤالها كانت تُنكر الأمر ذاتياً.

-لا شيء.

إنه لا يقوى على الكذب ليس خائناً مُحنكاً ليفعل.

-إن لم يكن لأجل مريم، فلأجل رانيا نفسها بعد وفاة زوجها، هي ضعيفة بشكلٍ لا يتصوره بشر، تحيا برفقة ابنها وحدهما، رجاءً محمود لا تفسد الأمور، وتجرح قلبين مَريم ورانيا، كما أنك تُسيء لسُمعتها بزياراتك المُتّكررة أيها الأخ الفاضل.

-إنها وحيدة، ولا تجد من يرعاها.

-هذا ليس من شأنك، ها قد وضعت مولودها بسلام، إن لم تتحمل المدينة وحدها، عليها العودة لبلدها، والعيش برفقة والدها، كلاهما بحاجةٍ للآخر.

تفكر .. ما طبيعة ذلك الحنان الذي يتفجر ينبوعه عند الرجال، لأي غريبةٍ في الجوار، عدا تلك التي تحمّل همومه أصلاً، وكأنها لا مرئية، ما بال هذا الحسّ المرهف، الذي يتوجه نحو أي فتاة سوى التي تنتظر منه، ولو قليلاً من الإحساس.

هل هو خطأ النساء اللواتي يتحمّلن المسئولية كاملة، فيسحبن البساط دون أن يدرين، من تحت أقدام رجولة الرجال ؟

تلك الرجولة التي يستيقظون على حين غفلةٍ، يودون ممارستها، فيتناسون تلك التي تحملتهم طويلاً، كونها قادرة على التحمل.

ويبحثون عن تلك الضعيفة المحتاجة اليائسة إلى اهتمامٍ وحب، فتتفجر فيهم ينابيع المسئولية والشهامة والنُّبل، ويبذلون أنفسهم من أجل من قد لا تستحقُ أصلاً.

الرجال حمقى على أية حال.

تدخل في حديثهم مقاطعاً، لم يتحمل رؤيتها تتحدث معه بذلك القُرب، وتلك الحيوية وهي بتلك الهيئة، رغم أنه يدري جيدًا عمّا تتحدث.

ولكن لم يستطع أن يمحي بعد كون والدة محمود أثارت في نفسه، كون سارة زوجة محتملة، زفر بشدة وكأنّ جوفه يخرج منه لهب، وضع يده على خصرها في حركةٍ تبدو عفوية، ولكنها أربكتها، حيث وجد جسدها يختضّ تحت يده، قبل استرخائه ثانية :-

-دعيه سارة، محمود رجل ناضج قادر على إتخاذ قرارات حياته.

-ولكن..

-سارة لو سمحتي لا تتدخلي.

صمتت بشعورٍ عاجز :-

-حسناً.

التفت نحوها في تعجب لم يظن أنها ستطيعه وتصمت، إنه يدري أنها مُجادلة من الدرجة الأولى، كونها تستجيب بشكلٍ فوري لأمره البسيط ذلك، منحه شعور بالرضا فاق تخيله.

اقترب هامساً :-

-منذ متى تلك الطاعة ؟

رفعت وجهها نحوه، تحاول النظر دون خجلٍ في عينيه :-

-أنا مطيعة أصلاً.

نظر لها بتعبير مرح " وكأنّي أُصدق ".

-لن تفلتي من عقابك على أية حال.

أشاحت بوجهها بعيداً عنه، لتجد أن محمود توجه نحو رانيا، وأخذها ليغادرا الحفل.

اقتربت منه تحدثه رفعت نظرها للأعلى.

-انخفض قليلاً.

ضحك بعفوية :-

-هل تخليتي عن كعب حذائِك العالي ؟

تحدثتْ بيأس طفولي :-

-أبدًا والله أرتديه، انظر.

نظر لحذائها الأنثوي الأنيق بكعبه العالي في تساوٍ :-

-كل هذا ولم تطالي كتفي بعد يا للمسكينة !

-أنت الطويل كبُرّج، لا تلومني.

أخفض رأسه قليلاً، من أجل أن تهمس بأذنه :-

-حسناً صغيرتي ماذا هناك ؟

-هل دعوت عالية الزهار كما طلبت منك ؟

تغيرت ملامح وجهه المرحة، وكانت تدري ولكن رغماً عنها، كان يجب أن تفتح الحوار.

جاءها جوابه قاطعاً :-

-لا.

-لماذا آدم ؟

-أخبرتك إن رغبتي بدعوتها، فافعلي.

-الدعوة منك، لأن الإحتفال يخصّ عملك.

-وأنا لم أفعل.

لتجد إحداهن تنظر نحوه، وتلوح بيدها ليبتسم ويلوح هو الآخر :-

-أنزل يدك الجميلة، كي لا تدفعني لمحاولة كسرها .

وتركته في غضبٍ من نفسها، وهو يبتسم في نفسه، مرتْ بلينا التي تجاور السيدة شهيرة سيدة المنزل .

يتبادلان حديث حميمي، لم تسمح لها السيدة شهيرة بإجرائه معها، منذ أول يوم لها بالقصر رغم محاولاتها ، توجهت نحو الداخل لتطمئِن على الجدة.

فمؤكد السيدة شهيرة، التي ببساطة لا تطيق وجودها، لن تُعلِق على الأمر الآن فهي تنزعج من تدخلها، الذي تظنه متعمد في كل ما يخص القصر، مع أنها لم تفعل، كل ما في الأمر أن علاقتها بزياد طيبة، وبنور أكثر من رائعة، والجدة تُرحب بها منذ أن دلفت للقصر، لا أحد لا يرغب بها سواها .

دلفت إلى غرفتها بالطابق السُفلي، لسهولة تنقلها بكرسيها المُتحرك .

-جدتي لِمَّ ذهبتِ إلى غرفتك باكراً ؟

-هذا أفضل من رؤيتهم يلتهمون العديد من أنواع الحلوى، ببساطة حمقى .

كادت أن تضحك من أسلوب الجدة الطفولي الحانق .

-وما المُشكلة جدتي هل أُحضِر لكِ الحلوى ؟

-حمقاء أنتِ أيضاً .

ضحكتْ بخفوت :-

-أعلم جدتي .

-نسيتِ كوني مريضة بالسُكر، آه هذا الدّاء اللعين، يمنعني من أحبّ الأشياء لي في الحياة، تلك الحلويات اللذيذة .

-امم، ولكن هل يُمكن أن تتناولي قطعة واحدة ؟

نظرت لها الجده بلمعة أعين كالأطفال :-

-أه طبعاً ممكن، تعلمين شهيرة عنيدة ومتسلطّة، تمنعني عن كل ما أشتهي، تخبرني أنّي عجوز، حمقاء هي أيضاً .

كانت ساره تضحك على مرح الجدّة، وهي تهتف بحماس :-

-أنا بصحة أفضل منكم جميعاً .

-أجل انتظريني .

ذهبت سارة لتعد طبقاً من الحلوى، وقامت بتغطيته وعادت إلى غرفتها، انفرجت أسارير الجدة، وابتسمت ابتسامة مبتهجة :-

-مستحيل هل أحضرتِ صحناً كاملاً من الحلوى ؟

ضحكت :-

-بالطبع، والآن لنكشف الغطاء .

كشفت الغطاء وإذابقطعةٍ واحدة تتوسط الصحن، نظرت بخيبة أمل، ولكن لم تمحْ ابتسامتها :

-ظننتُ أنّ الصحن مُمتليء .

-بالطبع لا، أنا معك في ألا تحرمي نفسك مما تشتهين، ولكن لا تؤذي نفسك، لهذا هي قطعة واحدة فقط، أم أرحل بها ؟

تمتمت بكلام غير مفهوم :-

-تهددينني يا فتاة، أه من الزمن الجائِر، اقتربي بالصحن .

ابتسمت سارة، وهي تراها تلتهم قطعة الحلوى كالأطفال بحق :-

-تشبهينه كثيراً .

-من ؟

-آدم حبيبي.

ابتسمت :-

-كيف ؟

-هو الوحيد في تلك العائلة، من كان يهتم بحبّي للحلوى، ويزودني بها سراً من وقتٍ لآخر،

-ألم يخبرك ؟

-لا، لم يفعل.

أجابتها بابتسامة :-

-أجل إنه سرنا الخاص، لا تخبريه أنني أخبرتك ها .

-لا أبدًا، لن أفعل.

-هو أيضاً كان يجعلني أكتفي بقطعةٍ واحدة، داهم وجهها تعابير حزن مفاجيء .

-لقد تبدلنا كثيراً بعد وفاة ولدي رضوان، وحفيدي البكري.

كادت تسألها أي حفيد تعني، حتى وجدته بالغرفة يتحدث بابتهاج، ينظر نحوها رغم أنه من المفترض يحادث جدته :-

-حبيبتي.

بادلته بنظرةٍ ذاهلة ووجه عابس، ابتسم من إرتباكها ونجاح خطواته الواثقة، المتُلاحقة نحو بئر الحيرة. قبّل وجنتى جدته :-

-كيف حالك جميلتي، كنت أودّ إحضار شيء لأجلك.

نظر نحو سارة، وكأنها تحول بينه وبين إحضاره هذا الشيء، فأردف :-

-ولكن فيما بعد .

فهمت ما يرمي إليه، لتتحدث بمشاكسة :-

-ولِمَ ليس الآن ؟

-ليس وقتاً مناسباً .

-لِمّ ؟

-منذ متى وأنتِ فضولية ؟

-هيا اعترف كونك تسرب لجدتك الممنوعات .

-وكأنّي أحمل مواد مخدرة .

-بل مواد سامة، إن حدث شيء لتلك المسكينة سيكون بسببك .

صمت وكأنّه طفل يتم توبيخه :-

-هل أحرمها من جميع ما ترغب، كونها مريضة، تتحدثين وكأنكِ الطبيبة هنا .

لتتحدث الجدة أخيراً :-

-كفى أنت وهي .

-وماذا فعلت أنا جدتي، أهذا جزائي ؟ كل شيء آدم آدم .

-اطمئن لقد أمدتني سارة بالحلوى قبل قليل، إنها تشاكسك فقط، لكنها تعلم بالسر .

نظر إليها بإندهاشٍ حقيقي، وتحدث بمرح :-

-حقاً، ثم توبخيني ! حسابك عسير، انتظريني، وأنتِ جدتي تُفشين أسرارنا ، لا حلوى لكِ بعد اليوم .

ثم التفت نحوها مجدداً :-

-سارة، رئيس تحرير الجريدة التي تعملين بها بالخارج، يودّ رؤيتك هيا لا تختبئي، إنه أول ظهور لنا كزوجين.

تُفكر. . زوجين أي زوجين، أليس الأمر أشبه بالمزحة منذ البداية ؟

تحدثت بجزم :-

-لم أعد أعمل بتلك الجريدة، ولن أعود. ولكني آتية معك.

-حسناً هيا .

تحركت للخروج مرة ثانية، وكأنها ستواجه العالم فعلياً، فها كل المدعوين قد حضروا، وبدأ الحفل الحقيقي.

تقدم مُمسِكاً بكف يدها مؤازِراً، رفعت وجهها نحوه والتفت ناظراً إليها :-

-أنا هنا من أجل تدفِئة تلك اليد الباردة بالطبع.

أشرق وجهها بإبتسامة ثغرها وعينيها، وتركت يدها تستريح بين كفه، تستمد دفء مادي، ودعم معنوي.

انتهى الحفل، كان مُمتليء بالمُشاحنات، والأحاديث والنظرات، ولكنه مّر، صعدا الدرج إلى جناحهما الخاص.

-كانت ليلة طويلة مرهقة.

-أجل.

-ولكنك كنتِ أجمل ما فيها .

رفعت وجهها بنظرة تعجب، لقد مرت ساعات الحفل دون أي تعليق من هذا النوع، همست:

-أشكرك.

ثم أردفت :-

-آدم هل دومًا ما تتواجد بالحفلات خمور .

قضب جبينه عابسًا :-

-ليس بالضرورة، ولكنها أجل تتواجد غالبًا ، تُقدّم كباقي المشروبات .

-أنت الحمد لله لا تحتسيها ، فلِمّ تبتاعها للآخرين .

-حبيبتي إنها أشبه ببروتوكول متفق عليه فى الحفلات، خاصة كحفلة الليلة .

-أي حبيبتي وأي برتوكول !

ما باله ينطقها ببساطة، ليس من عادته التحدث بذلك اللفظ لها ، أوغيرها على حد علمها ، لتمرره مرور الكِرام، ولكنه مؤكد لا يعنيه، ماذا تريد يا ابن نور الدين ؟

-ولكنه بروتوكول، لسنا مُضطرين إليه ، ولا يعود بمنفعة، و سيجتر علينا ذنوب نحن في غنى عنها ، لِمّ تود محاصرة نفسك بفِتن تستطيع تلافيها بسهولة ؟

-اطمئني لقد أمضيت عمري أتمرن على مجاهدتها طوال الوقت .

-ولكنّي لا أودّ أن تُرهق نفسك، وتجازف بها بتلك الطريقة، أياً كان الموقف أتحدث فى المٌطلق .

-تخافين عليّ ؟

-أكيد .

أجل تخاف عليه، تخاف من ذنب لا يقصده، قد يحول بين اجتماعهما في دار الخُلد ، صمت لا يقطع نظراتهما ، سوى حدّة نظراته التي أجبرت عينيها على الهرب في اتجاهٍ آخر، عليها أن تتحدث، تودّ أن تترجم الكثير مما تمتليء به روحها ، ولكنها لا تجد في لغة الكلمات ما يُعبر .

همست :-

-شكراً آدم . شكراً على . .على كل شيء .

اقترب يرفع وجهها نحوه، ينظر نحوها باهتمام، وكأنها تتفوه بما يتوقف عليه الكثير :-

-وماذا أيضاً، تحدثي سارة.

شعرت بجفاف حلقها وتوتر الهواء، الذي يُعبأ المكان من حولهما، وجهها يتورد مُشعاً بدفء خجلها، ستتحول الآن مثار لسخريته، وهذه الَحرارة منبعثة من وجنتيها.

-أنت تحملت مني الكثير.

كاد يضحك بسخرية :-

-أي كثير الذي تعنيه، إنها جاهلة تمامًا عما تحمّله بالفعل.

تضغط شفتها السفلى بقوة توتر ورهبة :-

-يكفي ستؤذين نفسك.

-هل هذا يعني أنك غفرتِ لي ما مضى.

أومأت برأسها إيجاباً :-

-لقد أخبرتك منذ. . منذ ليلة الزفاف.

-وأي زفاف.

-تصبح على خير.

تسربت من بين يديه، رحلت بسرعة البرق، ولم يقوْ على إيقافها، تحركت إلى غرفتها الخاصة بها منذ ليلة زفافهما، تتذكرها جيدًا، بل تتذكر كل ما مرّ قبلها وما بعدها، تتذكر كمّ آلمها وأوجعها بأفعاله غير المبررة، وتركها وحدها في مواجهة تيار، كاد أن يقضي عليها، هل تعمّد أن يخلق المشكلة، ليأتي ويحلّها كمّا اتهمته مريم ؟

بل الأسوأ، أنه حقاً كان قد قرر التخلي عنها ببساطة، عليها أن تتأكد منه قبل أي خطوة تخطوها تجاهه، هي لا تتحمل تسببه في لكمة جديدة منه، تستهدف قلبها تلك المرة.

وكان أمر ثوبها الأبيض أمر بديهي، لكي تُنشر الصور بالصحف.

صباح اليوم التالي دلف، ووجدها كأنها عروسة مزينه له بحق، يدري أنه خدش كبريائها الذي يبلغ عنان السماء، سعيد بنفسه ومتألِم لأجلها.

لم يتمنى أبدًا أن تسير الأمور بينهما على هذا النحو، اقترب بصمتٍ يُفرق بين يديها المعقودين في توتر، فارتجفت وابتعدت، وكأنّ لمسته العابرة سلك كهرباء.

كان يتصور أن الليلة ستكون تتويجاً لنصره الداخلي عليها، ولكن ضعفها وخوفها، الذي تسبب به لها رغم سعيه له، لم يروقه، وكأن بداخله رجلين يتصارعين، أحدهما يرغب بكسرها، والآخر بضمّها، أحدهما سعيد بضعفها، والآخر يشعر بنفسه وغد حقيقي لِمّا ألحقه بها. لم يشعر يوماً أنه لا يعرف نفسه إلا معها، طوال الوقت يحارب نفسه لأجلها. تطيّح اتزانه وسلامه الداخلي أرضاً، وكم يكره ذلك.

-سارة.

-نعم.

-مبروك.

تحاول كتم الفوران الداخلي المتضارب، ولكن مجرد سماع صوته الخشِن يخترق سمعها حطّم ما بقى بها من صمود، رفعت وجهها نحوه بدأت الدموع تغزو عينيها "أيتها الغبية إياكِ أن تبكي.. إياكِ".

-لماذا ؟

تقدم نحوها يتساءل وهو مقطب الجبين :-

-ماذا تعنين ؟

-من طلب منك أن تحاول مساعدتي ؟ كيف تصورت أنني سوف ألجأ إليك؟ مهما تحدث الناس عني، مهما كنت وحيدة واحتجت أحدهم بجواري، من الذي صوّر لك أنه أنت لتفعل بي ما فعلت.

بهتت ملامح وجهه، وزمام الأمور تفلت من يده، تصور أنها ستثور، ستغضب بل توقع ما اشتهاه، ستبكي ! ويكفكف دمعها، يضمّها، تخبره كم تحتاجه وتشتاقه، كم تألمت في غيابه، وكم يعني لها الكثير، ليخبرها حينها بالمثل، وتُسدل الستار على العروسين .

كيف في قوتها ثبات، وفي ضعفها هجوم! هجوم ضاري لروح تُشبهه، تُشبهه حد الدهشة! روح لا تسمح أن تهان أو يُمس كبرياؤها ، وإن كان على يد من تحب وترغب، فما باله وهو يشعر أنه تسرع، وأنها رغم ما مضى لم تحمل نحوه مشاعر خاصة كما تخيل.

ألا تُدرك أنه الآن هو المهزوم في عزّ نصره، كيف تفعل به هذا !كيف تُقلب شتى الموازين في لحظة ؟

اقترب هامساً :-

-لم أقصد ، أرجوكِ لا تبكي .

أجابت بشراسة واهية :-

-لن أبكي .

فاستطرد :-

-أنتِ تعنين لي الكثير، لقد تصورت فى البداية أن ابتعادنا هو الأفضل لنا ، ولكِ بالأخص، ولكن هاهو القدر قدّر لنا أن نجتمع من جديد ، ربما أخطأت التصرف في نظرك، ولكنك تؤمنين أنّ الأعمال بالنيّات، أليس كذلك ؟ أنا آسف . . آسف سارة.

أومأت في إيجاب، ثم تحدثت بصوتٍ متحشرج بفعل البكاءِ المكتوم :-

-حسناً .

-لستِ غاضبة ؟

أومأت بالإيجاب :-

-لن أُقيدك سارة، هذا الزواج ينتهي عندما يدفعنا القدرالذي جمعنا للتفرقة، لذلك. . أعني لن يُفرض على أي منّا شيء لا يرغبه ، مدّ أنامله يمررها على وجنتها الناعمة الشِبه رطبة.

ارتجفتْ وأشاحت بوجهها ، وكأنّ تيار كهربي امتد من أنامله نحوها . تحدث بجفوت :-

-تصبحين على خير.

لتمر ليلتها مُتبدل شعورها نحوه كُلياً، ليكن هو الاسم الأول لها في دعاء السجود فجرًا .

في الصباحٍ تهاتفها والدتها ومريم، لتطمئنهم كونها في أفضل حال، وليأتي من بعدهم هاتف عالية الزهار، لتبارك لها وتخبرها عن استعدادها، للعودة للبلاد مرة ثانية، لتأسيس عمل خاص بها، وتود أن تشاركها فيه والتفاصيل عند عودتها .

ღ ღ ღ

تجلس على طاولة الإجتماعات الخاصة، تجمع بينهما وزياد ومحمود وسوزان وثلاثة آخرين.إنه الاجتماع الرابع الذي تحضره برفقته، منذ زواجهم بعد إصرارٍ منه.

كانت تدري أنّ أوضاع العمل، ليست مستقرة أبدًا بالفترة الأخيرة، ولكنه أخذ يشرح لها الوضع بشكلٍ يسير ومبسط، يجعلها تتوغل بشؤون عمله فى الواقع سائر شؤونه.

تنصت لهم باهتمام، تتابع بصمت، ثم تسأله فيما لم تستوعبه بعد، ولم يبخل يوماً بمعرفته، بل لطالما استرسل في إطلاعها على كل ما يخصّ العمل، وها هو يأخذ رأيها وها هي تعترض.

-هل من الضروري إنشاء night clubs

أجاب زياد :-

-إنها جزء من الكُل.

-ولكنها مباني خاصة بأرباحٍ خاصة.

فهم وجه اعتراضها، فأردف :-

-سارة إنها خطة عمل لمشروعٍ متكامل، وهذا لا يمنع إنشاء بعض المشروعات الخيرية على الجانب الآخر.

تدخلت سوزان قائلة باستنكار :-

-أي مشروعات خيرية ؟ لِمّ نخرج عن سياق دراسة سير العمل.

-حسناً تفضلا بالمتابعة، ولي تعقيب بالنهاية إذا سمحتم لي.

-بالطبع.

خرجت من أفواه ثلاثتهم آدم وزياد ومحمود، لتزفر سوزان بحنق، وينتهي الإجتماع بعد ساعتين، لينصرف الجميع عدا آل الدين (آدم . . زياد . . سوزان)

ليتحدث :-

-ما هو تعقيبك سارة ؟

-ما حجم المشروعات الخيرية التي تُقام ؟ وهل هي متجددة بشكلٍ سنوي ؟

تحدثت سوزان :-

-ماذا تعنين ؟ وما دخل حديثك بالعمل ؟

-أعني أنّ هناك زكاة المال، للمال الذي بلغ النصاب وحال عليه الحَوّل.

برقت عينيها بدهشةٍ واضحة :-

-أي لُغةٍ تتحدث ِتلك ؟ لا أفهمك.

-والذين في أموالهم حقٌّ معلوم للسائِل والمحروم، أي قبل أن تتحدث عن المشاريع الخيرية، وكأنها أمور تطوعية، لا ننسى أنّ للمحتاجين حق مشروع في تلك الأموال، وهو حق زكاة المال على سبيل المثال، وهو سوزان للمال الذي بلغ النصاب، أي حد الزكاة، وحال عليه الحَوْل، أي مرّ على إدخاره عام هجري كامل.

تدخل زياد متحرجاً :-

-هذا غير الزكاة الخاصة بشهر رمضان ؟

-تقصد عيد الفطر.

-أجل.

-بالطبع.. إنها الزكاة بشكل قائم بذاته، سواء زكاة أموال، أو عقارات، أو ذهب، أو زروع وثمار، ولكن الزروع والثمارَ وقت الحصاد.

خيّم صمت على الجميع، فنظرت نحوه تسأله بعينيها :-

-هل أخطأتُ بشيء ؟

تحدث بهدوءٍ دون أي تعليق سابق :-

-وما قيمة الزكاة المقدّر إخراجها سنوياً.

ابتسمت دون شعور وأجابت ببهجة :-

-٢,٥ %.

صرخت سوزان :-

-جنون ! ما تتفوه به جنون. ٢,٥% سنوياً تُقدر بالملايين !

-خذ من أموالِهم صدقة تُطهرهم وتزكيهم بها *التوبة *

-وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين *سبأ *

سوزان أنا لا أتحدث بنية خسارة، أو إهدار المال بغير وجه حق، رجاءً حاولي أن تتفهميني.

-أي حق لهؤلاء البائسين المُعدمين في أموالنا، بما يقدر بملايين.

وجهت أنظارها نحوهم :-

-هل توافقان على هذا الجنون ؟

-حقهم شرعه الله، تخيّلي لو كُل من يمتلك ثروات طائلة، أخرج زكاة ماله، وامتثل لفرض الزكاة، لما وجدنا مُعدم أو بائس كما أُطلقتِ عليهم.

-هذا كونك منهم.

تحدث بصوتٍ جهوري حازم :-

-يكفي.

-زياد إدرس هذا الأمر، بمساعدة الشئون المالية والقانونية، وأخبرني بالتفصيل فى أقربِ وقت، بعد جرد دقيق للحسابات المصرفية والعقارات وما شابه.

انتهينا . .

ღ ღ ღ

رحل زياد وسوزان واستبقاها، جلس بمكتبه وهي أمامه كحالهم منذ أشهر مضت.

-اشتقت لرؤيتك على هذا الكرسي أمامي.

خفضتْ بصرها أرضاً وصمتتْ :-

-مؤكد لم تزعجك حماقة سوزان، لقد أصبحتِ تعرفينها جيدًا .

-لن أنكر كونها أزعجتني، ولكن لا بأس.

-صغيرتي الحبيبة العاقلة.

توّرد وجهها تلقائياً، لا تود أن يُراضيها، هي راضية لكن فقط، ليتوقف عن هذا الأسلوب.

-هل حقاً ستُخرج زكاة المال هذا العام ؟

ابتسم :-

-وكل عام .

ابتسمت فخورة به :-

-تذكري أنكِ تتهربين كالعادة.

-أبدًا .

-بل تفعلين.

-ربما هي طبيعتي، ألن تتحملني قليلاً ؟

-لقد تحملت الكثير. لا تختبري صبري سارة.

ازدردت ريقها، مُشتتة لم تعد تعي ماذا يريد !

-هل توقعتِ موافقتي بتلك السرعة ؟

ابتسمت :-

-فاجأتني أعترف، ولكن كنت موقِنة أنك ستفعل، مساحات النور بداخلك تتسع وتتسع، كلما سمحت لشمس الحياة أن تشرق عليك، مُنتصرة على سائر الظلام والآلام والمسئوليات، ربما أنت رجل صارم وحازم بعملك، الذي لا يحوي سوى الأرقام، وحجم المكاسب والخسارات، ولكنك تملك قلب حيّ ينبض نحو كلّ ما فيه خير، وتطهير للنفس،

لروحك حسابات أخرى تنتصر على هذا الهاجس الذي يدفعك للخلف، وأنا هنا معك من أجل هذا، من أجل روحك التي أشعر بها، وإن لم أتبين حقيقة وجودها.

صمتَ للحظات يوّد أن يعي ماتقول جيدًا، ألن تكف عما تفعله به.

تنظر صامتة تُفكر هل أزعجته ؟ رباه أيعقل لم يفهم ما تقصد ؟

–هل تؤمنين بروحي.

–أؤمن بنقائها وهذا يكفيني.

صمت مبهوتاً أي لغةٍ تتحدث، وأي صراع يحتدّ ويشتد بداخله ؟ رأسه سينفجر من التفكير، يود أن يمسك بها بين يديه، يسحقها، يهزّ روحها بشدة ربما تتخلى عن ثباتها، ينزع ثوب المثالية ويمحو مصطلحاتها العتيقة،يجردها من كل ما يميزها يسطو على روحها، وقلبها وعقلها، يحولها لفتاةٍ عاديةٍ بسيطة تحبه، يصبح هوساً لها لا تتمنى سواه ولا ترى لأبعد من نظراته، ولا تسير إلا بطريقه. يوجهها فتطيع بإبتسامة، تحارب من أجله بكُل مكرٍ وخبث، لتفوز به. تتمسح به كقطةٍ خاضعةٍ لسيدها، وتثور وتتمرد عليه لإثبات شخصية، هو أول من يدري أنها واهية، ويمّلك سائر مفاتيحها.

فتاة في الحدّ الأوسط، فتاة عادية، عادية جدًا، ومجنونة به كُلياً، فتاه ليست بمثاليتها، ولا قوتها، ولا تميزها، ولا عيناها، ولا برائتها، ولا مشاعرها، ولا حنانها، ولا صدّقها. لِمَ تمتلك وحدها تركيبة مُهلكة من الصفات، التي لو توزعت على فتيات الكون، لأصبحن جذابات رائعات بالقدر الكافي، لإثارة فتنة عقول الرجال قبل أعينهم. إنها تمتلك كل ماهو ساحر بإفراط، سحر مُفرط يكبّل روحه ويخنقها،يثير فيها أعاصير الخوف !

يختنق، ولهذا لم يتحمل، وترك لها المكتب وغادرٍ، ليختلي بنفسه أمام البحر، يشكو له حالهما، عليه إتلاف كيانها قبل أن يقتلعه من جذوره يوماً ما.

ღ ღ ღ

إلى الآن لا تدري من هي تلك ال " سارة محمد"، تحقد عليها، لا تطيق وجودها بحياته، لقد كانت أكثر من ملائمة، إنها تشبهه، تليق به، إنها سيدة لقصر آل نور الدين، تفوق عليها حدّ الألم، لم تكن كذلك ! لم تكن تتمزق لرؤية إحداهن من قبل ولا حتى سوزان. بل لم تكن تخشى رؤية أي فتاة، مهما رأت في أعينها رغبة في إمبراطورآل نورالدين.

تغار. . تثور. . لكن ثباتها لم يكن ليهتز بهذا الشكل، بها شيء لا تدري ما هو يستفزها، تكره وجودها، أو ذكر اسمها، ربما لأنها في كل مرة تفرض عليها في قرارة نفسها أن تحترمها.

ولكنها لم تكن لتعترف بذلك !

كما كانت تبالغ وتغالي في إثبات حضورها بأفعال صبيانية، وكأنها تصرخ بثقتها العالية فى نفسها، تتحدث عن أنها لا تبالي، لا تبالي بها أبدًا، عن كونها لا تقبل أي مقارنة مع أي فتاة، لأنها متفردة، رغم أنها تفعل في أعماقها، والنتيجة لم تكن لترضيها، لتزاداد هيسترية روحها وفوضاها.

إنها تحتاجه ! تحتاجه بشكل حارق ومؤلم، تحتاج أن تستعيد ثقتها بنفسها المهدورة أمام نفسها، إنها تعلم جيدًا مهما بحثت، ومهما انتظرت، ومهما فعلت، لن تتعثر برجل كآدم نور الدين مرة أخرى، لهذا تعود، لن تسمح لنفسها بهذا الخزي، أو أن ترضى بأقل منه، وسامة وسحرًا وثرءًا ونفوذا.

على تلك الصحف أن تحمّل اسميهما معاً، عليها أن تسير بنشوة طاووس، يتباهى بروعة تكتسبها منه.

تتحدث هامسة " مهما ابتعدنا ستجمعنا أنانيتنا يا حبيبي، أريدك إرضاءً لنفسي، وتريدني ضماناً لنفسك ". لن تمنحها من نفسك ولن تخضع لك، فهي تعلم رغم كل ما أثارته الصحف من أشهر، أنها ما كانت على علاقة به، فتلك السارة حمقاء، لديها كبرياء سيجعلها تخسره يوماً، وها هي تنتظر، ورغم هذا لن تعترف أبدًا بما يدور بخلدها. !

ليست غبية لتفعل، لهذا تحمل شعار (أحبّك وعليّ تحمّل نزواتك) .

فهل هناك أحقّ بك من امرأةٍ عاشقة تنتظرك باكية، وتتحملك بصبر !

لا يعلم أحد أنه زائف، ولكن شهوة التمّلك أحياناً تكفي، ما دامت تمتلكها امرأة، تحسب خطواتها جيدًا، إنها تتملكه لن تكون لينا عزام إن لم تفعل.

ღ ღ ღ

أنه يهتم بها بما فاق تصورها يوماً، يخترق مجالها الخاص، ويحطّم دفاعاتها بإستماته وصبر. عليها أن تقاومه، وتقاوم نفسها في كل لحظة، يا الله أين كان يختبيء لي كل هذا الشقاء ؟ هل بدأ يحرر مشاعرها ؟ يتحرش بعُذرية قلبها بطريقةٍ مشروعة. أحياناً بلطفٍ يجعلها تبتسم حالمة، ومؤخرًا بوقاحة تجعلها ترتد للخلفِ خطوات، وينطلق ضاحكاً مبتهجًا، إنه يستمتع! وكأنني مهرج عليه اللعنة، لا لا لا، يارب لا لن أتحمل.

-تتحدثين مع نفسك !

شهقت في فزع :-

-متى وصلت ! لم أشعر بك .

غمز قائلاً :-

- ما الذي يشغل عقلك؟

نظرت نحوه عابسة :-

-لا شيء.

-ما بكِ ؟

-دلفت لغرفتي دون أن تطرق الباب.

اقترب نحوها هامساً ببراءة :-

-طرقته !

-امم سأصُدق.

-اجلس هنا كنت آتية إليك.

تبدلت فجأة للمرح والإبتسامة، كطفلةٍ تفتخر أمام أبيها بما أنجزته:

-أنظر.

نظر نحوها مبتسماً، قربتّ الكنزة من وجهه، فصاحت ببهجة :-

-إنها لون عينيك تمامًا.

مدّ يده يتلمس الكنزة سعيداً متفاجئًا :-

-رائعة، لم تنس !

-إنها أول طلب تطلبه مني، كيف لي أن أنسى ؟

جلس على حافة الفراش، فاتجهت نحو المقعد الهزاز المحبب إليها، لتجلس مقابلة له، قطع الصمت قائلاً :-

-إنها نفس لون فستانِك الذي رأيتك به أول مرة.

رفعت وجهها نحوه بدهشةٍ حقيقية :-

-ألا زلت تذكر!

ابتسم وكأنه يتذكر بحنين :-

-كنتِ صغيرة مرتبكة، عيناكِ تدور في المكان، خجولة، نظرتي أرضاً كلامك تمتمة خافتة تسألين عن مكتب السيد محمود.

ضحكت قائلة :-

-بعد كل هذا الوقت يسعدني أنك تتذكر تلك التفاصيل.

-تفاصيلك لا تُنسى لولا موعد طائرتي، لكان لنا حديث آخر.

-لم أكن لأقف وأتحدث معك.

-بلى كنتِ ستفعلين.

--أبدًا.

-واثقة بنفسك إذاً.

-تمامًا كثقتِك بنفسك.

وقفت فجأة مبهوتة :-

-ماذا تفعل !

-ماذا ؟

أومأت برأسها نحوه، وهو يحِلّ أزرار قميصه.

-سأجرب كنزتك الصوفية الزرقاء.

-ألا تخجل من نفسك !

ضحك قائلاً :-

-لا.. تركته كله لكِ.

وقفت تضع يدها بخصرها، في وقفةٍ متحفزة، وهي تشير بيدها الأخرى نحو الباب :-

-إلى الخارج بدّل ملابسك بغرفتك.

أومأ برأسه يُمنة ويسرة في رفضٍ صامت :-

-آدم لا تكن طفلاً.

-الرجال جميعهم أطفال.

ثم استطرد :-

-حبيبتي.

أغمضت عينيها في غضب:

-أي حبيبتي مجدداً !

-يا سلام !

ابتسم في ابتهاجٍ ماكر .

زفرت ببطء :-

-أستغفر الله العظيم.

تعالت ضحكاته :-

-لن أخرج فلا تحاولي.

-حسناً سأخرج أنا .

مرت بجواره، فقبض على معصمها :-

-سأبدل ملابسي وألحق بكِ.

-إياكِ أن تنامي بسريري

وضعت يدها على مقبض الباب قبل غلقه متمتمة :-

-أصبحت وقحًا للغاية، اطمئن لن أفعلها .

-وأنت إياك أن تعبث بغرفتي.

-سأفعل ما يحلو لي، إن لم يعجبك فحاولي أن تمنعيني.

همست بحنق :-

-شرير.

وصفقت الباب خلفها .

ღ ღ ღ

دلف إلى غرفته بعد لحظات :-

-ما رأيك ؟

أجابته بمشاكسة :-

-سلمت يدايّ.

-وأنا ؟

-تبدو أصغر سناً من ملابسك الرسمية.

-فقط ؟

-آدم لا تراوغني، تدري أنك وسيم.

ضحك بصدق، إنها تقرأه جيدًا، لن ينكر أنه يودّ أن يسمع كلمة إعجاب منها نحوه.

-تقرأين الأفكار إذن.

-الأمر لا يحتاج الكثير من الذكاء .

-ولكنك ذكية.

-حمداً لله، رغم أنه يحدث أن أكون غبية تمامًا، ولكن بصدق الكنزة رائعة عليك ما شاء الله.

-أعجبِّك إذاً ؟

همست بتأنيب :-

-آدم !

ثم الفتت نحو طاولة الزينة :-

-من أين تبتاع عطرك ؟

نظر لها بتركيز، وإبتسامته الجذابة تتسع وتتسع، إنها أول مرة تُبدي فيها تعليقاً لشيءٍ يخصه تمتم بهدوء :-

-لِمّ ؟

-لِمّ مؤخراً تكون إجابتك على سؤالي سؤال ؟!

تنهدت تشرح له :-

-حسناً إنه يروق لي، وأردت أن أبتاع لك منه كهدية، ولم أجده فى أي من. . .

قطعت حديثها شاهقة وهي تراه أمامها، لا يفصل بينهما سوى سنتيمترات، ارتدت للخلف فطوّقها بذراعٍ واحدة، كحزامٍ حول خصرها وهو يفكر. .

"إنها مثالية، وكأنها خلقت لأجله فى التكوين الجسدي، ذراعه تصنع دائرة محكمة حول خصرها، يبدو أنها تخسر وزناً عليها أن تتوقف".

إن ضمّها الآن لحضنه، ستسقط أذنها على موضع قلبه تمامًا، وسيفترش شعرها البني كتفه أن وقفت على أطراف أقدامها، إنها تحاول أن تفكّ أسر يده، ولكنها لا تقوى.

-ما الذي تفعله ؟

-أعطيكِ جرُعة مكثفة من عطري، ألم تقولي منذ لحظاتٍ أنه يروقك !

-أرجوك دعني.

أفلتها لأجله، وليس لأجلها لن تعلم أن لها تأثير عليه، عليه أن يُلملم مشاعره قبل أن تنكشف لها.

-ما بكِ أخجلتي ! ألم تحبين عطري !

كتفت ذراعيها، وكأنها تحمي نفسها منه، تخفي إرتجافها الطفيف، سيسخر منها. لن يصدق أنها قد ترتجف، لتلامس عابر قد يظنه مثار تسلية.

-إن أردت استنشاقه، سأستعير قارورة عطرك.

وأومأت برأسها نحو القارورة الموضوعة على طاولة الزينة، بغرفة نومه القاتمة اللون على عكس غرفتها الأنثوية بجدارة.

-ولكن اختلاط رائحتي الخاصة بالعِطر، هي ما يمنحه تميزه إن كنتِ لا تعلمين.

صمتت تمامًا، مجاراته في هذا المضمار محدودة، ولهذا يتلاعب بحرفية كونه الأكثر جرأة، بل وقاحة في نظرها، إنها لا تستوعب كل ما يقوله أو يفعله، إنها فقط تكرّس جهودها، لتنهي الموقف بأقل الخسائر!

شعر أنه أربكها بحق، انكمشت الآن كقطةٍ وديعة، أين تلك الفتاة الشرسة المتمردة ؟ ها هي تتورد خجلاً، تكاد تذوب واقفة دون أن يمسّها بعد، متوّهجة يجزم أن وجنتيها مشتعلتين بدفء، تخفي وجهها خلف ستار شعرها الحريري المنسدل.

هل زادت جرعته لتلك الليلة؟ تجيب نفسه أبدًا لم تفعل، إنها حساسيتها المفرطة كالعادة.

بدّل مسار الحديث بسلاسة :-

-بداية تعرفي على هذا العطر كان هدية، أهدته إليّ صديقة فرنسية، عندما كنت بباريس.

اتسعت ابتسامته وتلونت بمكره المميز.

كان يراقبها بنظراته يرى شعلة الغيرة، التي تخمدها بإرادةٍ حديدية، وتنهدها العميق في خفوت، وشفتيها المزمومة في شكلٍ طفولي شهي حانق.

صمت فرفعت وجهها نحوه، إنها ابتسامة مستمتعة ماكرة، فكرت. . هل إذا لكمتّه في فكة المبتسم هذا سيحدث شيء ؟

-تصبح على خير.

تركت له الغرفة وخرجت، فيكفي كلاهما مناوشات لتلك الليلة.

ღ ღ ღ

غادرتها صديقتها منذ قليل لتزور والدتها، ولكن لم يغادر عقلها حديثها.

-لا تتصوري أن ما بينكما صغير وهشّ، إلى حدّ هلعك من مرور أيِ أنثى أمام ناظريه، ولا تتصوري أن ما بينكما كبير ومتيّن بما يكفي، لتأمني مكر الأيام وتّقلب القلوب، كوني واثقة ويقظة في آنٍ واحد.

إنها إلى الآن لا تدري، ما سر تلك الكلمات الغامضة رغم وضوحها، فهي أدرى الناس بصديقتها فهي تمرر لها رسالة ما، ولكن ما مفاداها؟! لطالما أخبرتها أن تحدّ من افتعال المشاكل، والغيرة غير المبررة، وكأنه بيدها !

لايفهمها أحد، حتى هي لم تعد تفهم نفسها، بل لم تعد تجدها، أين هي؟ أين مريم التي تعرفها، إنها ضائعة تمامًا، لا تدري كيف تحيا حياتها ؟

يمرّ اليوم تلو الآخر في هاجسٍ مقيت، يفسد عليها أي لحظة، كان من الممكن أن تتحول للحظة سعيدة، نسيت نفسها وزوجها، بل حتى عائلتها وأصدقائها بما فيهم سارة.

تضع يدها على قلبها كل ليلة، حمداً لله لم يفعلها لم يهرب بعيدًا!

تتجنب والدته بل أصبحا كغريبين، خصوصًا كُلما اقترب موعد ولادة دلال، التي تصر والدتها على أن تأتْ من الخارج لتلد هنا، مخبرة إياها أنها أولى أحفادها، وربما لا ترى سواها !

تنظر لنفسها في المِرآه باهتة شاحبة شبح امرأة، أين مرحها . . أنوثتها . . ضحكاتها . . وحبها ، لقد استسلمت، استسلمت فى الوقت الذي كان هو بأمسّ الحاجة إليها .

لا تستطيع أن تلومه وحده، فحتى هو تعامله كغريب، خائن مع وقف التنفيذ ، سيفعل حالما تجد له والدته فتاة مناسبة، عليها أن توقف التفكير في المُستقبل، أن تحيّا اللحظة إلى مُنتهاها ، فهي لا تضمن في حياتها سواها .

إنها فلسفة ما دام سارة نورالدين، التي تشعر بها تحيا مع هذا المجنون على كفّ عفريت، ولكنها قررت ألا تفكر سوى فى الحاضر، والحاضر هو آدم نور الدين.

نفضت رأسها من شتى الأفكار، إنها تشتاق لنفسها ، وتشتاق له، إنها مريم رغم كل شيء ، تزينت، تعطّرت، وأخذت تُطالع صورتها في المِرآة، هناك شيء ما يشبهها ، مريم التي تعرفها لا زالت حية.

دلف إلى المنزل، ليجدها تُطالعه بابتسامة، زفر بشدة. . ياااااه لقد نسي كيف تكون ابتسامتها ، أدرك الآن كمّ جفائها وغفلتها .

ركضت نحوه بلهفةٍ تشبه شيء فى الماضي . ، ضمته وتعلقت بعنقه .

–اشتقت إليك محمود .

لم يقوْ على رفع يده، ليضمها هو الآخر، تجمد كتمثال، وتركها تهذر بالحديث بجوار أذنه:

–محمود ! هل أنت غاضب مني؟ تعالى

أخذته من يده، لتُجلسه أمام طاولة متوسطة تحوي أحبّ الأطعمة إليه .

–محمود لنبدأ من جديد ، لننسى ما مضى أنا مُتعبة جدًا ، وأحتاجك جدًا ، وأنت أيضاً حبيبي، أدري أني أرهقتك، أنت لا تتحمل أعرف.سامحني محمود لا ذنب لك، ولكني. . .

لم تتحمل أن تكبت إنفعالاتها أكثر، فأخذت الدموع تشقّ الطريق إلى وجنتيها :

– خائفة محمود لا حياه لي بدونك، أنت تغنيني عن العالم، وليس فقط الأطفال، لكن ربما أنا لا أغنيك، ولا أغني والدتك، ألقت نفسها على صدره تبكي، أحبك محمود .

رفع يداً تُشدد من ضمتها لصدره، وأنامل يده الأخرى تمسح دموعها بخفة، ونار تشتعل بصدره رغم صمته المميت، إنه يحترق يودّ عقابها، إيلامها، ولكنه لا يقوى. متى يرتاح ؟ هل هناك عذاب وحيرة تفوق ما يحياه ؟ لا يدري ماذا يفعل ؟

ربما . . ربما لو بوقتٍ سابق لرقصت روحه فرحًا، ولكن الآن لا يطيق كل هذا . كلمة الحبّ منها تصيبه في مقتل، إنه يحتاج أن يكن بمفرده، هو وفقط .

هبّ واقفًا تمتم بخفوت :–

–أنا متعب وأودّ النوم، مريم لنا حديث بوقتٍ آخر، تصبحين على خير .

وكأنه سكب دلواً من الماء البارد فوق رأسها، مستحيل أن يكون هذا محمود! عادت دموعها تسيل بحُرقة وخذلان تلك المرة، وكأن ما تخشاه قد وقع. ولم يكن هو هنا ليكفف دمعها ثانية.

استلقى على سريره وهو يفكر، تأخرتي مريم ! تأخرتي كثيراً .

ღ ღ ღ

يجلس بمكتبه الخاص بشركته، يُهاتفها ولا تجيب، ما الذي يمكن أن يكون أهم منه ! عالية الزهار، أم مريم صديقتها، ربما كانت لا زالت عند والدتها، هل كل هؤلاء يأتون قبله؟ تعصف بأفكاره شحنة غضب، لا يدري سوى أنه يودّ التخلص منها !

لطالما كان يفوق سائر النساء اللواتي مررن بحياته، سواء في الذكاء أو العاطفة، أو السحر والجاذبية، وقوة الشخصية.

دوماً ما يحتفظ لنفسه بتلك الإبتسامة الواثقة، عند رؤية الإنبهار في عيونهن، لم تتفوق عليه أشدهن مكراً، وأكثرهن جمالاً وجنوناً، ولكن ذلك الشعور الذي يتعاظم بداخله الآن.

التورط مع امرأة تضاهيك في كبريائك وقوتك، قد يكون دافع مبدأي للتسلية، ولكنه مُهلك على المدى البعيد . إن سحرها شمّل كلٌ ما يخصه، نور تحبها، والجدة تراها أفضل إنجاز قام به في حياته، بل تنتظر حفيداً !

أي حفيد ! أتلك أحلام يقظة كالتي يحياها، أحلامه مؤخراً تتلخص حولها، تلك الدوامة التي تبتلعه، ولا يجد لها مَخّرج، لا ينسى حِلم بل كابوس الأمس وهو يراها تبتسم له، تضم أنامله بين يديها، توصيّه على نفسه وترحل.

هكذا ببساطة تركته ورحلت، لقد شعر ببرودة تسري بجسده، هزته في نومه حتى استيقظ، جسده بارد ومتعرّق فعلاً، هل يمكن أن تفعلها ؟ بل عليه أن يسأل متى ستفعلها ؟ وهل خطوة استباقية في التخلي عنها، تحفّظ له كيانه دون أن يُمس، ما دّام في كل الأحوال سيخسرها، فليكسب نفسه إذن.

يتذكر حديثه مع الساحِر الساحِر أخيه زياد.

-أحييّك أخي الكبير، قدراتك في ترويض واجتذاب سارة واضحة، فهي رغم روعتها، فتاة لا تصلح للزواج ، أي رجل هذا الذي من المُمكن أن يتحمل ذلك الكيّان الفريد،دون أن يثير جنونه أو يسيطر عليه ! لقد تعلقت بِها من أجل الأولى " أثارت جنونك"، وأخشى أن تفقدها عند شعورك بالثانية "تسيطرعليك"، وليس هو بالرجل الذي تسيطر عليه فتاة.

-لا تقلق لن يحدث

-هل تحبها ؟

شعر وكأنّ ارتجاج مرّ بروحه، أبدًا إنه لم يفعل، من المستحيل أن يكن بهذا الضعف كما أشار أخيه.

تحدث بثقة وهدوء يحسد نفسه عليه :-

-هذا ليس من شأنك زياد.

-تحبها .

-الوضع بيني وبين سارة لا يسير على هذا النحو، أنا أبدًا لا أحبها ، أتفهم لم أحبها يوماً ، ولن يكون أبدًا .

إنه لا يدري ما الذي يتفوه به حقًا ، ولكنه وجد لسانه يُنكر، وإنكاره يُسعده يثير في نفسه شعور من الثبات، والإعتزاز بالنفس، إنه لم يتأثر، ولم يهزم، ولم يحبها .

يود أن يصرخ لا أحبها ، أنا سليم مُعافي، لم تتمكن مني، لم تُضعفني، لم تؤلمني، لا أحتاج إليها ، ولا أنتظر أن نجتمع يوماً كما في أحلامي . إنها خيال، خيال من المُحال أن يتحول لواقع .

نظر نحوه زياد مبهوتاً ، وأخيه يكاد يصرخ بإنكاره المُستميت :-

-الأمر لا يستدعي آدم كل هذا الإنكار والرفض والإنفعال، لم أرك يوماً فاقداً لثباتك على هذا النحو.

ضرب طاولة مكتبه بيده.

-أي فقدان ثبات أنت الآخر، أنا فقط أخبرك، أنا لا أحبها .

زفر بعمقٍ وشعر بمرارةٍ بحلقه، وكأنه كان يركض لمسافات طويلة لايدري منتهاها ، ولا الهدف منها ، إنه يكاد يضيع نفسه في رحلة القبض على حقيقتها .

نظر نحوه زياد بأسفٍ حقيقي :-

-تكرار إنكارك بإستماتةٍ شرسة، قد يكون بحدّ ذاته إثبات خفي، تنجح في كبّته، فلا تزد من إصرارك أخي، إنه يكشفك أكثر، يكشفكَ بضعف، إنكارك ضعف، وأنا لم أعتدك ضعيفاً .

-ارحل زياد، اتركني بمفردي.

ورحل ويهاتفها ولا تجيب.

ღ ღ ღ

عندما عاد إلى القصر، وجدها باسمة هادئة، إنها لا تشعر به أصلاً، تخرج من غرفة جدته، وعندما رأته اتسعت ابتسامتها.

-هل لا زالت مستيقظة.

-بل نامت، سألتني عنك. لا تنسى أن تمر بها في الصباح، أخذت عيناه تُدقق النظر فيها.

-ماذا هناك ؟

-تعالي معي.

دلفا إلى غرفته، وقفت بالباب :-

-هل أنت بخير ؟

-أين كنتِ ؟

-كما أخبرتك صباحًا، زرت والدتي، ومريم، والسيدة عالية الزهار.

-وهاتفك ؟

-كنت بإجتماع مع السيدة عالية أعذرني، ولكني كنت على وشك المغادرة فـ . . .

قطع ذلك الهذر الذي لا يعنيه، وهو يتمسك بكتفيها بقوه تؤلمها :-

-إياكِ أن تكريها. آدم نور الدين أهم من كل هذا أتفهمين، كيف جرؤتي أن أهاتفك ولا تجيبين، كيف !

همست بخوف :-

-آدم ما بك ؟

زفر بشدة حتى أن أنفاسه الحارقة قد لامست وجهها، وكأنّ جوفه منبع لبركانٍ مُتّقد. مدتْ يدها بتردد، تلمس جبهته عند ملاحظتها إحمرار عينيه.

-أصابتك حُمّى، يا الله آدم أنت مريض.

وأي مريض، إن قدماه لم تعد قادرة على حمله، يشعر بقوته تخور، تلك الضربات المتلاحقة القاصمة تتبعه أينما حلّ وذهب. أين الخلاص ؟ بل متى الخلاص ؟

إنه متعب، متعب منذ أعوام، يتقلب في لظى المسئوليات، والآلآم والوحدة وضريبة القوة، والدعم للغير، ومتطلبات مكانته. أعوام في دأب ولهاث، وركض متواصل بلا راحة، والأسوأ بلا وجهة، كسفينةٍ تصارع تلاطم الأمواج بلا مرسىً ، خرج صوته مختنق :-

-متعب.. تعبت.

-استند عليّ.

وضعته بالفراش، وأخبرت نور أن تستدعي الطبيب فزياد كالعادة بإحدي سفرياته.

لم تُصدق بعد، أنها تراه ساكنًا أمام عينيّها في استرخَاء، لا يُناور ولا تّهرب مِنه، لا تعلثَم ولا يتعمّد استفزَازها. كل شيء هَاديء ومُريح استرخَاء تَام بعد ركضٍ طويّل.

الغُرفه بتنَاسق ألوانها البديع الستَائر المّسدلة، لتضيّف حميميّة وخصوصيّة ما عهدتَها بينهمُا، ولكن هَا هو الضوء يتسرب ليضفي إضاءة خَافتة. وكأنه شموع موقدّة دون إرادة مِنها الأهمّ هو...

هو في وسط فِراشه يتنفَس بهدوء، ولكن هذا لا يخفي تقطيّبة جبينه، إنه مُنزعج حتي في نومه، كمّ تود أن تمحْ كل هذا رُغم أنه نائمًا، وجفونه مُسبلة تواري جاذبيّة عينَاه، إلا أنها لمّ تره يوماً وسيماً كمّا هو الآن، رُبما لأنه مُسالمًا ؟

ابتسَامة هادئة ارتسمت على شفاهها، دون وعيّ صوت داخلي يُخبرها. أه لو يتوقف الزمّن على هذا النحو ؟!

لا يّوجد عَالم خارج حدودهمّا، لا زالت فى غمّرة تعجبها من هذا الهدوء، الذي جعل غضبّها يندثر وكأنه لمّ يَكن هل أحبتّه إلى تلك الدرجة ؟!

هل منِ المًمكن أن رؤيته ورؤيته فقط، تُشيع فى أركان روحها دفء الأمان، الذي يتغلّب على كُل ما تعانيه معه، وما توقن جيداً أُنه ينتظرها برفقتَه خارج حدود عالمهم الصغيّر.

زفرت أنفاسها وهي تتأمل قسمّات وجهه بهدوء، تُريد حفرّها داخل روحها، أيعقَل أنها حتَى الآن لم تقو على تأمّل وجهه، على النظر إليّه بحرية، لتتشّرب تفاصيّله على مّهَل، عبسَت وهي تفكِر إنه لا يُساعِدها على الإطلاق، إن تحررت من خجّلها الفطّري، أين تهرب من عينيه التي تلاحقهَا بنظراته الساخرة تارة، والمُستفزة تارة اخرى.

إنها تستنفذ كُل طاقتها في حضوره، لتقوى على مجابهته في مبارازتهم الكلاميّة التي لا تنتهي أبدًا.

إنها بشوقّ حقيقي إليه، وهذا شعور غريب ما عهدتُه من قَبّل،إنها تتّعَرف على مشاعرها بحذر وترَقب كطفّلةٍ تحبو، في حين أنه ينتظر مِنهَا أن تركض إليّه، حتماً ستسقط لم لم يسانِدها ؟

لماذا لا يمدّ يديه إليها ؟ هَل يُكابر، أم ينتظر مِنها أن تكون متأكدة من رغبتّهَا، في أن تخطو نحوه ، نحوه فقط، دون رجل سِواه، لهذا هل عليّها الآن الخطُوة الأولى ؟

ولكن ماذا إن تعثرت في طريقها إليّه، تّراه يتلقفّهَا قبل أن تسقط، لتجد ذراعيه كحزام أمان لا يُفلتّها أبدًا.

عليّها أن تتوقف عن التفكير، كُل ما يجب عليها الآن أن تَعلم كيّف تُبسط كفيّها إلى رجّل. ليس أي رجُل بل الرجُل الذي تحبّ

ولأن لليّدين لُغة خاصة كمّا للعيّون، أجل هي تؤمِن أن لليدين لغة خاصة ، فالأقلام تنقّش بهما خطاً لا يُشابه آخر، وتحمل الأنامل بصمة تميز فرد عن غيّره، تُدرِك أن لليدين لغة مُختلفة لا يتحدثها سوى صاحبها، ولا يفهمّهَا سوى العَاشق المُتلقي لها، وحده القادر على فكّ شفرات تلك اللغة، وقراءة السطور التي تنقش بها والبصمّات التي تحملها.

وبمّا أنّ عينَاه مُغلقة، عليّها أن تبدأ بلغة أناملها الخاصة أليس كذلك ؟

تركت أناملها تحبو على إستحيّاء فوق صفحة وجهه، إنها تراه الآن بوضوحٍ أكبر، وهي تلمس تفاصيّل وجهه.

ملمّس بشرته الذي ما اختبرته يوماً، عظام وجنتيه الشِبه بارزة، مرورها على تقوس حاجبيّه وكأنها ترسمهم، تخشى أن تجفّل أن تتراجع، ولكنها تتنفس بعمق لتغلق عينَيها هي الأخرى، لتكون شبيّه به هي تكتب على صفحات وجهه، دون أن تر أين تضع أحرفها، بل يقودها إحساسها، إحساسها فقط.

أناملها الباردة تحولت دافئة، إنها حرارة ترجمة المشَاعِر، وفك الشفرات، أه لو يطيّل نومه حتى انسحابها بهدوء.

إنها لا تلمس وجهه، بل تحفُّره، تنحته لتضّعه في متحف قلبَها، لتتمتع برؤيته كلما غاب. لم تَكُن تدري أن أهدابه طويلة وكثيفة، ربمّا إن كانت عيناها على اتساعهما لن تلاحظ.

نحن أحيانا نحتاًج أن نُغيّر طريقتنا المُعتَادة في الرؤيّة، حتماً سنكتشِف بالطُرق الأخرى أموراً صغيّرة، ولكنها جديّدة مفاجئة لنا.

اتسعت ابتسامتها وهي تُفكِر أنها الآن كالضريّرة، لا ترى مِن الكُون سِواه، لهذا أنامِلها تفوقت في بثها الشعور به.

تركت عينَيه على مهل، كي لا توقظه، صعدت على حدود أنفه الشَامخ أنفاسُه الحارة، تلامس أنامِلها برفق.

ها هي تتلكأ على حدود شفتيّه، لن تفعَلها إنها فقط تُلامسها من بُعد، تقف على حافة شفتيّه القاسية، أهكذا تكون شفتي رجُل ؟

لن تتمادى عليّها أن تقف قبل منطقة الخطر بخطوة، إنها تُجيّد الهرب على الدوام في اللحظة الحاسمّة.

لم تقترب حتماً أناملها سترتجف، وربما يستيقظ عادت برفق إلى جانب فمه، تستشعر خشونته الرجولية المّحببّة، تمتمت بخفوت.. أه يبدو أن ذقنه سوف تنمو.

وجدت أن صفحة وجهه تتحرك ببطء تحت أناملها في حركه تبدو..! ماذا

فتحت عينَيها بإرتباك، ولكنها لا زالت تحت سطوة رحلة وجهه، تنهدت وهي مطمئّنة أنه مغمض العينين مؤكد نائم.

يبتسم ولكنه هل هذا يعني أنه..؟

سحبت يداها على غفلة، في حين صوته الهامس يخبّرها :-

-لا تتوقفي

رفعت وجهها نحوه، ليهمس :-

-تلك الدموع لأجلي ؟

أومأت بصمت، ليضم نفسه إليها فتمّد يدها تطوق كتفه، ليستقر بحضنها و أناملها تمسح على رأسه في حركةٍ رتيبة.

همست :-

-ستكون بخير اطمئِن.

حنان أمومي خالص افتقده طويلًا، بل لم يشعر أنه أفتقده إلا عندما عثر عليه بين أحضانها، ليشعر أن نعيم الحياة ها هو قُربه، وأنه ما تألم قط وما أنتظرها قط، وأن روحه سليمة مُعافاة، وما مرّ به كان لشخص آخر لا يعرفه، فقد وُلِدّ بين يديها شخص آخر، شخص لم يشعر سوى بالسعادة الخالصة.

أدرك حينها جملة قرأها بمذكرات والده.

" ليست كُل أحضان النساء احتواء وارتواء، وتشعُر خلالها بالإكتفاء"

ما يحيّاه معها ويسلبه ذاته، لا لن يُفكر. أنه يحتاج هذا الاحتواء، وتلك الأنامل التي تسحب برد روحه بخفة، ها هو وكأنه مُغترب أنهكته رحلة الحياة، ليعود لوطنه.

ظلا هكذا طويلاً كلاهما، لم يجدا كلمات في بهاء ورونق اللحظة، شقّ الصمت الساحر، وأخذ يتحدث كم هو بحاجةٍ للبوح، أن يُلقي بحقائب همومه التي تعيق حركته وتحني ظهره، وأسقطته في منتصف الطريق.

يتحدث ويتحدث وتسمع وتجيبه بهمهمات خافتة، دون استنكار أو توجيه أو إبداء رأي. حتى غفا لينام براحة لم يمر بها من أعوام، ينام وشفاهه ووجهه يبتسم كطفلٍ رضيع لا يفقه من الدنيا شيء.

قبّلت جبينه وتحركت تعد له إفطار ملائم قبل تناول دواءه.

ღ ღ ღ

زعلي طول أنا ويّاك وسنين بقيت

جَرب فيهم أنا إنساك ما قدرت نسيت

تستمع في شجن، وهي ترتشف قهوتها ها هو صوت فيروز، يعيدها إلى خزائن روحها المدفون لتتأملها وتعاود إغلاقها بسلام.

دلفت إليها وصوتها يستمر فى الشدو

" وأكتبلك عَ ورقة حتى ما أقول

ما بِقدر قول. .ياريتك مِش رايح

ياريت بتبقى. . بتبقى عَلى طول "

تتذكره وتبتسم لتهمهم بخفوت

ما بِقدر قول !

ياريتك مش رايح. . ياريت بتبقى. .بتبقى على طول

نظرت نحوها، تبدأ أغنية الفيروزة بها هي عالية، لتُحاكي فيما بعد واقع سارة وكلتاهما تشدو لهما الفيروزة، وهما عالقتان مع آل نورالدين.

لا تدري أتبتهج لكون تلك الزهرة الخجولة تتّفتح على مهل بفضّل ابنها! أم تتألم لأنها تدري أن قلبها العذري لن يعد كما كان، وأنه أتلف بقلبها ما لا تدري. إن كانت قادرة على إصلاحه فيما بعد، أم لا ؟

وصلتها رسالة على هاتفها منه بالطبع، يشاكسها كالعادة ويتهمها أنها تنساه ! تدري أنه يرغب في سماع العكس ولن تبخل عليه..

" بعدك على بالي.. يا حِلو يا مغرور "

ليجيبها برسالة ضاحكاً

" الله الله.. حلو ومغرور..تطور مذهل "

-سارة.

رفعت وجهها من هاتفها :-

-نعم.

-كيف حالك مع آدم ؟

-بخير الحمد لله.

-إذن هو كما تمنيتِ ؟

-ربما ظاهرياً، لا ولكن آدم يحمل روح من أروع ما رأيت في حياتي.

-إذن علينا أن نتحدث.

-تفضلي.

-هل أخبرك أن شهيرة بدر ليست والدته.

رغم دهشتها كونها تدري، ولكنها أجابت ببساطة :-

-أجل أخبرني.

أخبرها فى الليلة الأولى وإلى الآن الأخيرة التي قضياها معًا، ليلة مرضه حيث استعاد تباعده الروحي، واسترد مشاكسته وكأنها تحميه من شيء لا تدركه. ليتباعد الآن نهائياً ويغادر البلاد في رحلة عمل.

-هل تعلمين من هي والدته ؟

نظرت نحوها باهتمام وأومأتْ بـ لا :-

-أخبرني سيخبرني فى الوقت المناسب، لم أصرّ عليه فهو لم يرغب بالتحدث.

-وأنا أجد الآن وقت مناسب.

-ماذا تعنين سيدة عالية ؟

-أنا والدة آدم نور الدين، وزوجة سابقة لوالده رضوان نورالدين.

ذهلت صامتة ثم همست بعدم تصديق :-

-ماذا ! كيف ؟

-سأحكي لكِ.

انتهت جلسة العمل بينهما، التي تحولت لجلسة شخصية بحتة، تود أن تسأله.. تفهم منه.. ولكنه ها هو في أقسى لحظات احتياجها إليه يمنعه عنها القدر، لا تزال لا تعي بعد ليدق هاتفها مٌعلنًا عن صدمة، لا تقل عن ما سمعته لتوها بل أقسى .

-سارة.

-ما بكِ مريم.. لِمّ تبكين ؟

-محمود.. محمود وشهقت في البكاء، وكأن الروح تفارقها.

-اهدأي مريم، لا أفهم حديثك ما به محمود ؟

-لقد تزوج.

ღ ღ ღ

هو ما عاد يدري أي عقل يتصرف به معها، وأي عاطفة صادقة أم حاقدة يدفنها تجاهها. كل ما يعلمه أن رجولته تأبى أن تمر من تحت يدّاه، صفحة أُنثوية متوهجّة البيّاض. ما نُقش عليها ولو حرفٍ لرجل قبله، إلا وهي مُذيّلة بختم رجولته. صفحة بيضاء سحبها برفق وضعها أمامه متحدياً نفسه، أنه مؤهل لينقش عليها ما شاء. يخدش حياء صفحة لم يطأها قلمٍ من قبل، يفضّ تلك السذاجة البيضاء الشاسعة، بسوّاد حبره الحاد. فإذا بها تمنحه قلماً أبيضاً مُمّاثل للون تلك البراءة، والمباديء العتيقة يشعر أنها ستظل ذاكرة له.

أنه أسود لا يماثلها، صفحته البيضاء تحمل نقاط سوداء عداه، كان عليها أن تتقبل سوّاد حبري. إختلافه. .حدّته. . وربما وقاحته، وهو يلهو على رقعتها البيضاء كيفما شاء.

ولكنها جردته من محبّرته، رفضت أن يتمادى أن يتطاول إلى ما حرمته عليه، رفضت سواد حبري ولا حبر أبيض يملأ محبرتي، لم أقوْ على تبديلك رغم مُحاولاتي. ولن تتقبلي سوادي رُغم محاولاتِك، ولكن يترك لمن أعماقها الخفيّة مشاعرها العاشقة التي يستشعرها عن بُعد عنفوان، وصخب أنوثتها الموقوتة.

رجل مثله يستحق أن يُكتبِ في تاريخه أنه من أسقط حصونها، ليس بعد كل هذا الصبر تسلبه نفسه وتبدّل قناعاته. وتحرم على النساء من بعدها إبهاره، وتقف كمتفرجة بريئة. إنها تثير فيه فوضى عارمة، لم يعد بقدر ته السيطرة عليها، هل نبوءة أخيه ستتحقق؟ لقد رحل ليفكر بعيداً عن تأثيرها، ولكن يجب أن يجد سبيل للتحرر .

ღ ღ ღ

تمرّ الأيام بطيئة طويلة، رغم شعورنا كونها تنهب أعمارنا نهباً، تناقض مقبول لتلك اللعبة المسماة حياة. تتذكر حديث عالية الزهار والدة زوجها !

أي أقدار تلك يا ربي.

-تعرفت على والده خارج البلاد، كان قد طلق شهيرة بدر، وسافر تاركًا خلفه حياة يود نسيانها والبدء من جديد، أسس شركته الخاصة وأكمل دراساته العُليا، كان زميل لي لم أكن بتحفظك ولم يكن بنرجسية آدم.

قطبت جبينها عابسة :-

-حتى أنتِ ترينه مغرور. . آدم ليس. .

-قبل أن تدافعي عن ابني اسمعيني جيدًا

-عفوًا لم أقصد.

-بالعكس اندفاعك في الدفاع عنه، ورسمه في أذهان من حولك بأبهى صورة، يدل على أنك تحملين له أطهر وأنقى أنواع الحب.

-ماذا ؟ أي حبّ لا أنا . .

قاطعتها :-

-أتمنى أن تكوني لم تفعلي فعلاً، لا أن تكوني غافلة فقط !

-لا أفهم شيئاً.

-إذن اسمعيني.

-تعرفنا، نشأت بيننا علاقة لا هي بالصداقة الخالصة، ولا هي بالحب الخالص إنها علاقة من تلك العلاقات، التي لا يجيد أصحابها تصنيفها ويترفعون عن وضع مسمى لها، فيتركون الأمر للزمن، ولكننا في وقت ما أصابتنا نوبة تعقل وجرأة. بل أصابت رضوان فى الواقع، كنا نتحدث حديث عادي عابر، ليصمت فجأة :-

-رضوان ! رضوان تسمعني ؟

-أحبك عالية.

صمت وأنا أشعر بأنفاسه عبر الهاتف كأنها تمر على وجهي.

أخبرني فيما بعد أنه في تلك اللحظات، لم يكن فخورًا كونه حرر مشاعره، وامتلك الجرأة للتعبير بل كان يود أن يلعن نفسه، خشية ردي أن أخبره أنه صديق لا أكثر أو كوني لا أحبه.

ولكني رغم ما حدث أحترم شجاعته، وكونه قام بتلك المجازفة، أخبرته حينها :-

-وأنا رضوان.

ولم يصدق وأصر أن يسمعها مني صريحة، لأكتشف لأول مرة أن قلمي الطويل ولساني الأطول تبخرا وأني فتاة خجولة !

ابتسمت بجنين :-

-وأنتِ ماذا ؟

-بقلبي ما يماثل قلبك تمامًا .

-عالياا لاتبدأي.

-أحبك رضوان .

استمر عمله في مجال الأعمال، خصوصًا بعدما تواصل مجددًا مع أبيه لرعاية فروع شركات آل نورالدين بالخارج .

تزوجنا وكانت حياتنا كما يجب أن تكون الحياة، أنهيت دراساتي العُليا وكان اسمي فى الصحافة قد بدأ يسطع بالخارج.

عاد إلى البلاد ليجد أن طليقته وضعت مولودًا لم يكن يعلم بوجوده، وعليّه أن يردها لعصمته مجدداً من أجل الطفل على الأقل، فهو الوريث الأول ل آل نورالدين.

عاد ولم يخبرني، ولكني لاحظت تغيره وأنكر، لتقع تحت يدي عن طريق صديق لنا كان صديقه ولكنه يعمل بالصحافة، فتعرفنا وتوطدت صلتي به، جاء بمستندات تثبت تورط امبراطورية نورالدين بأعمال غير مشروعة وعلى رأسها غسيل الأموال، أنكرت فى البداية، ورفضت النشر وثورت على الجميع، كونها إشاعات مُغرضة.

ولكن عند مواجهتي لرضوان أقر بالأمر، حاول التبرير كونها خفقات طفيفة وأنه تورط مُرغم أخبرته أن يعود، ليبتسم بمرارة :-

" من السهل أن نُسقط من أعلى منحدر، ليتكفل هو بالأمر ويدفعنا نحو الهبوط والتدني، دون بذل أي مجهود، ولكن أن نعود المنحدر صعودا هو تمامًا، كونك تسبحين عكس التيار النهاية هلاكك ".

لم أتحمل ولم يتحمل هو أيضاً، بعد ما انكشفت عورات روحه لي، عورات الروح أخطر من عورات الجسد، لم يكن رضوان نو الدين، بالرجل الذي يتحمل أن يكون صاغراً أمام زوجته خاصة إن كان يحبها، تحول إلى هامش بحياتي دون أن أدري، لم أعد ألجأ إليه أبدًا رغم حبي له.

وتحول نجاحي وترديد اسمي من مصدر فخر له، إلى أشواك تنغرز بروحه واحد تلو الآخر. أعتقد قاعدة أن الرجل يجب أن يكون أطول من المرأة كزوجين مثلاً، ليست عادات مُتعارف عليها فقط، بل الرجل لا يتحمل أن ينظر لامرأته من تدني من أسفل وهي عالية تتفوق عليه ! ولو ببضع سنتيمترات.

بل نظره نحوها من علو يشبع فيه كونها الطرف الأصغر والأضعف، ورغم ضعفي معه إلا أن الموازين اختلت باختلال نظرتنا للحياة.

طلبت منه الطلاق كي لا نخسر ما بيننا من احترام، وفعل ببساطة، ورحل عائداً إلى بلاده متزوجاً شهيرة مرة أخرى، وترك لي أهم تخليد لحياتنا معًا، دون أن يدري ولا أدري كنت أحمل آدم نطفه برحمي عند الطلاق.

قطعت مريم عليها سيل أفكارها المتدفق وهي تجلس بجوارها بغرفتها حيث منزل والدتها .

-ألن تخبريه بمكانك مريم ؟

-لا .

-وأهلك ؟

-لقد هاتفت ماما فى الصباح، وأخبرتها أني بمنزل والدتك لبضعة أيام.لا أود العوده إلى منزل أهلي، سأضطر لملاقاته وللحديث وأنا أود أن اظل وحدي لبعض الوقت.

-لا أدري كيف أقنعتي سالي أن تكذب على محمود، بكونك لستِ هنا .

-سمعنا صوت سيارته ، نظرت سالي حينها ووجدته هو فانطلقت نحو السطح، ولهذا سالي لم تكن تكذب كما أنها يبدو بدأت تنضج، ورأفت بحالي ووالدتك رغم معارضتها لعدم إخباره، إلا أنها احترمت رغبتي، والآن هيا إلى قصرك يا سيدة القصر واتركي غرفتي.

-مهما سكنت تظل غرفتي هي الأقرب لقلبي فلا تحاولي أن تطرديني منها .

-انها لي منذ الآن.

-مريم مرت أيام عدة شئنا أم أبينا ، عليكِ أن تتخذي خطوات واضحة وأولها الحديث معه والوصول لقرارٍ ما .

-أود أن أعمل.

-رغبة فى العمل، أم كون عملك الفعل الأكثر استفزازاً لمحمود .

-تنازلت عن العمل لأجله بكُل الحب، الآن لِم علي أن أفعل ؟

-حسناً ما رأيك تعملين معنا بالجريدة ؟

-وما دخلي أنا بعملكم ؟

–سأخبر السيدة عالية، عن إمكانية توفر عمل إداري يلائمك، ولو بصورة مؤقتة.

ابتسمت مريم بحزن :–

–حسناً.

–والآن اخبريني ما بكِ ؟

–أنا ! لا شيء.

–ماذا فعل معك ابن نورالدين ؟

ضحكت :–

–لا تظلميه آدم رجل رائع، كما أنني قوية جدًا، كما تعلمين أتغلب على همومي الخاصة، لا تقلقي حبيبتي.

–أنتِ قوية بحق، ولكنك لا تتغلبين عليها أنتِ تتجاهلينها، وهذا سيطرحك أرضاً ذات يوم.

–انظروا من يتحدث، لقد كدت أموت قلقاً عليكِ الأيام الماضية.

–الحمد لله. . والآن هل ستمكثين معنا الليلة ؟

–أجل وسأعود بالغد.

ليعلو صوت التِلفاز .

أيظُن أني لُعبّةُ بيديّه. . أنا لا أُفكِر بالرجوع إليه.

صاحت :–

–شكراً خالتي. .لتُدندن. أنا لا أُفكر بالرجوع إليه.

لتقف والدة سارة بباب الغرفة مبتسمة :–

بالنهاية تقول، ونسيت حقدي كله في لحظة.

من قال أني قد حقدت عليه؟

كما قلت أني غير عائدة له.

ورجعت.. ما أحلى الرجوع إليه

-لتدوي ضحكات سارة وسالي.

وكزتها مريم وصرخت بسالي القابعة أمام التلفاز .

-غيّري المحطّة.

ღ ღ ღ

حياتها معه كانت تسير بعفوية، حتى وهي خائفة من المجهول، حتى وهي تراوغه. لم تكن لتنظر لما بينهما بصورة كاملة.

عالية الزهار التي بعدما وضعت طفلها وتربى معها لمدة عامين، ليتم اعتقالها وينتهز رضوان نورالدين الفرصة ليأخذ منها الطفل ! الطفل الذي تربى حاقداً عليها، هل هناك وجه شبه فعلاً، لهذا تحذرها والدته ؟ لا، آدم ليس رضوان نورالدين، آدم مختلف إنها تثق به.

رغم تصنيف عالية له كونه من أصحاب الشخصية النرجسية، ولهذا ردود أفعاله ستظل مُبهمة إلا لمن أدرك حقيقته ولكن من يدركها يقصيه تمامًا .

فأصحاب الشخصية النرجسية من الأكثر حباً للظهور، حيث ينتابهم شعور بالعظمة والصدارة يتطلبون تقدير مفرط. ورغم هذا هم من أكثر الأشخاص عرضة للإكتئاب، شعور بالخواء يسيطر عليهم، مما يسبب في تقلبات مزاجيتهم في كثير من الأوقات، لا يشعر بسعادة حقيقية، سوى لحظات ويظل في شرود شبه دائم يهيم في الحياة.

يظهر كونه من أكثر الأشخاص ثقة بأنفسهم على الإطلاق، في حين أنهم يعانون من العكس تمامًا يتحدثون عن الطموح والتفوق والإنجازات، وهم بالأصل مستغرقين بخيالاتهم الخاصة حول كل ماهو مثالي.

فما بالك بآدم الذي أصبحت الإمبراطورية في عهده، ضِعف ماكانت في عهد والده من سلطة ونفوذ وثراء فاحش وجاه، بالإضافة لوسامة رجولية خاصة.

هؤلاء يظلون متخبطين لأعوام خلف قناع الغموض، المُحبب إليهم ليديرون اللعبة كيفما شاؤوا. كما أنهم مع الوقت يدركون أن الساقطين في دائرة الحب والوله بهم، لم يجتازوا سوى خطوات قليلة بعمق شخصيتهم وأرواحهم.

ولِمَ عليهم الغوص حيث يمكن أن ننجني شتى المكاسب على البر. لا تقدمي نفسك هِبة، لتكتشفي ذاته وتكشفيها لنفسه، فإن تقبلتيه أنتِ عند انطفاء الهالة البراقة المحيطة به، لن يتحمل هو أن يتجرد مما يميزه أمامك. جبروت الرجل لا يتعايش مع كبرياء امرأة، دائماً ماتفسد بينهما معادلة الحب رغم صدّقه وتميزه. لقد اختبرت هذا من قبل مع رضوان، أتمنى ألا يحدث مع آدم.

وإن كانت أمنية حياتي أن أراه انتصر على نفسه.

ღ ღ ღ

منذ هذا اليوم وعَمّ الهدوء التام في علاقتهم انعدمت الحياة فعليًا وحل التجاهل والبرود القاتل ماعادت تهتم لأمره تلك التصرفات الطفولية التي كان يُقاومها مُكابراً، ويختلس منها بهجته وأمله في أن يتحولا يوماً لأي زوجين طبيعين اهتمامها الذي تاق له وسعى خلفه طويلا يقاومه الآن بكل قوة عليه أن يقاوم عليه أن ينتصر بالنهاية أو ربما شعور أنه لا يستحق ذلك، الاهتمام يخنقه يقيده لا يدري أين الخلل ؟

لقد انخرطت ببساطة في أبسط تفاصيل حياته فلتات غيرتها.. دعواتها.. طعامه.. صحته. اتصالاتها الهاتفية المتكررة على غير عادتها للإطمئنان عليه.

انتظاره كل ليلة ساهرة حتى عودته، فتنام بهدوء وإن لم تخاطبه بكلمة، المهم أنه عاد .كانت غريبة تحيا حياته ولا تحيا برفقته. قريبة حد الإنغماس بطيّات روحه، وبعيدة حد غفلتها عن ما يدور حولها بسببها !

هل كان انهياره تلك الليلة سبيل فعّال لتدفق نحوه تلك العاطفة. عاطفة ؟! أم عطف!

يُود أن يُنكر أنه يتعمد السهر بالخارج لتنتظره، يُحكي لها عن فتيات عابرات لتغار، يقسو أحيانًا لتشعر به، يحنو عليها لتضعف معه ولو مرة كامرأته، أبسط الأشياء منها كانت تعني له الكثير بل الكثير جدًا. جُملة واحدة من حديثها كفيلة برسم ابتسامة على ثغره وانطلاق. ضحكاته الرنانة. جُمّلة واحدة منها كفيلة بتضميد جراحه، وبث الآمان وهدهدته كطفل ينام على شدو أمه !

عالية الزهار يالها من أم يشعر أنه يسير معها كما قضبان سكة حديدية متوازيان متساويان مُكابران مُتحابان يدرك أنهما مُختلفان. . أجل مُختلفان حدّ التطابق المُدهش.

أيعقل أنه أنهى كُل شيء في لحظة جنون. .لحظة عبثية، بلغ غضبه المدفون تجاهها منذ زمن ذروته.

دلف يترنح إلى غرفتها أضاء مصباح الغرفة، تمطت في فراشها من الإضاءة، نظرت نحوه لقد عاد ورغم تفاجأها من رؤيته أمامها هكذا، إلا أن سعادتها بعودته دفعتها من الفراش بقميصها القطني المحتشم الذي يحوي رسومات كرتونية، حيث اعتاد السخرية منها وبالفعل حدث.

-لا زلتِ ترتدين تلك الرسومات المضحكة

-حمداً لله على سلامتك أولاً .

اقترب منها مد أنامله يلمس جديلتها ، التي تشعثت قليلا بفعل نومها ولكنها رائعة

-متى جدلتي شعرك هكذا ؟

-اليوم وأنا عند أمي.

اقترب أكثر تتحرك أنامله على جديلتها، من منبت الشعر إلى ما يقارب خصرها

-آدم ما بك ؟

-ما بي. . مُتعب وأحبك.

نظرت إليه، عيناه جامدة لا تعبر عن شيء اقترب يود انتهاك عذرية شفتيها، لتشيح بوجهها بعيداً، فيقع وجهه على عنقها وأنفاسه تحوم على وجهها، دفعته بقوه ودموعها تتحجر بعينيها فى لحظة :-

-أنتَ مخمور !

أخذ يفتح عينيه بتثاقل :-

-ليس من شأنك.

حطت يداه على كتفيها، وكأنه يود اتزان ولكنها لم تستوعب بعد تلك الصدمة، نزعت يده من على كتفيها

-ابتعد. . لمستك بهذا الشكل تثير اشمئزازي. ابتعد أنا لا أعرف من تكون.

هتف بها صارخًا

-أثير اشمئزازك. . أنا ، ماذا تظنين نفسك ؟لا شيء أنتِ لا شيء ألا ترين نفسك حقاً. إنسانة جبانة هاربة، خوفك يقيد روحك. تعبت بحق وأنا أحاول أن أحررك منه ولكن لا فائدة، ستظلين حبيسة حزنك ودموعك ومثاليتك البالية.لن تُشفي أبدًا، لن تُحبيني أو تحبي غيري، لأنك رغم نقاء وحنان قلبك الذي يسع الكون، عاجز عن أن يتسع لرجل، وحب الرجل لفتاة مثلك هو الحياة، لهذا لن تشعرين ما حييّتِ أنك حية بحق. ولا تدرين مقدار سعادتي بهذا.

تحجرت دموعها التي كانت بدأت في الهطول وكأنها أمرتها يا عيني ابلعي مائِك، ألم حارق بصدرها.

جلست على حافة الفراش بوهن، وكأنها تسقط جريحة حرب همست :-

-وماذا عنك ؟ أجبني أنت من هو آدم نور الدين الإنسان؟ كيف حال روحك ؟ لست سوى شخص مُكابر عنيد يُصر على العبث بكل ما هو جميل، حد إفساده تزيد من هالة الغموض من حولك بقسوتك على ذاتك أولا، تُدخلها صراعات لست مُضطرا لها، لتخرجها مُنتصرة حيث أصبحت عادة أن تجمع كل ماترغب حولك، ثم تحاول إفساده أو الإنتصار لنفسك بحرمانها منه والتخلي عنها. ليس بالضرورة أنك تمتنع عن أي فتنة تعفف ربما كان تردد، وربما انتصار أجوف لنفسك، بعيدا عن كوني أستودعك الله ليرعاك تلك قصة أخرى، تضع القناع الاجتماعي المبهر، فيراك الرجال الذكي اللامع المسيطر الذي يتحكم بمصائر من حوله، وتراك النساء الرجل الوحيد على هذه الأرض، أليس هذا ما تشعر به المرغوب دائما وأبدًا. فمن أنا كي لا أخضع لك بسعادة، وأحمد ربي كون اختيارك وقع عليّ.

-حديثك غير صحيح.

-حقًا ؟ هل تفهم نفسك بصدق.. تُخبأ تيهك وتخبطّك الروحاني، خلف صخب اللهو والسخرية الجذابة، لتخفي تشوه روحك وصراعاتك الداخلية. لست سوى شخص وحيد، رغم كل ما تملّك ورغم كل هؤلاء الذين تعج بهم حياتك. وحيد بقسوة مؤلمة وظلام يملأ أركان روحك لتتقلب كل ليلة على فراش من الجمر تتسائل متى الخلاص ولا تأتي الإجابة، شخص يتمنى البكاء ولم يعد يقوى عليه ، طغيانك المادي والرجولي لن يخلقوا الإحساس لمن حولك ليشعروا بك انتهت وكانت كطائر يرفرف أرضا يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أمسك رأسه بقوة الألم الذي يجتاحه. توجهت نحوه أمدته بدوائه لحظات ونام، لا يشعر بشيء. نام بسريرها نزعت حذاءه وساوت الغطاء، وأطلقت العنان لدموعها لتتركه وتمضي الليلة بغرفته تدعو الله حيث لا ملجأ لها سواه.

ღ ღ ღ

لم تحبه . .

تلك الحقيقة القاتلة التي يرفضها

كل الدلائل كم مره تغاضى عن مواقف يؤجل بها عقابها، ولا تتوانى عن التمادي، لقد استنزفته لايصدق أنه هذر بكلمة أحبك صريحة وسقط آخر ثباته. يلعنها ويلعن نفسه، ماذا نال منها ؟ لا شيء ألا تدري كيف كان يُعاملها ؟ كيف توّجها على جنس النساء من حوله مَلِكة. ألا تدري كم مرة ترك لها أبواب روحه مُشرعة، تتوسلها بصمت الولوج. كم مرة هدهد قلبها وتهرب قبل أن تقع في فخ الغواية، ولا يمّل من الصبرعليها، بل كم مرة عرّى روحه وباحّ لها بخلجات نفسه تلك، التي لم يشاركها مع أحد . يمنحها من روحه وتّتعزز عليه الحمقاء الجاهلة.

يغمض عينيه بألم ، الحبيبة المُستترة كجُرم غير مشهود، ولن تُشرق عليه شمس، إنها إلى الآن لا تعي ما منحها، ولكنها ستُدرك، آه لو أدركت لتمنى خنقها بيده، أنه يحتاج أن يسترد نفسه، يحتاج أن يسد رمق جوعه الذي يقضّ مضجعه، يحتاج لمن تراه كنز سقط من السماء بين يديها، من تشعره بقيمة أن تمتلكه، تلك التي لا يشعر بصِغر نفسه أمامها، التي لم ترى ضعفه، ولن تتعدى حدود روحه الظاهرية، وإن أمضت بجواره عمراً بأكمله.

تلك التي يقوى على النظرِ إليها من علّو وهي بين يديه، لتلك التي لا ينقصها سواه، وهي أبدًا لم تعد تنقصُه .يرغب بفتاةٍ لا تشبهها في شيء، كي لا تّذكره أنه لم يرغب سواها !

ليدق هاتفه وترتسم الابتسامة التي يحملها لسخرية القدر.

-تمامًا بوقتِك.

ღ ღ ღ

- ألن تذهبي لبيتك سارة ؟

- لا ماما لقد أخبرت آدم، أني سأمضي يومين هنا . هو لديه العديد من الأعمال، كما أنني منشغلة مع السيدة عالية في إجراءات إصدار الجريدة.

-بالتوفيق لكما حبيبتي، أتتما بخير ؟

-بالطبع ماما الحمد لله، اطمئني.

مالت عليها مريم هامسة :

-أنا لا أصدق.

-تناولي طعامك وأنتِ صامتة.

لتحرك سالي من جلستها :

-ماذا تقولان ؟

لتجيبها سارة :

-تتحدث عن العمل.

-حسنًا، ماذا قررتِ مريم ؟

ليرن الهاتف بالتزامن مع دق جرس الباب :

-مادام سارة محمد النجار.

-أجل.

-تفضلي وقعي بالإستلام.

فتحت المظروف، لتجد وثيقة طلاق غيابي! تجمدت للحظاتٍ تحاول أن تعي، سحبت منها مريم الوثيقة لتشهق من المفاجأة، هامسة :-

-الجبان !

وصوت سالي من خلفهم.

-مريم لقد توفت دلال وهي تلد !

ღ ღ ღ

كلما شعر بالحنين إليها آذاها، ليُذكر نفسه ويجدد جرحها، الضميّر ذاك الذي يؤلم على حين غفلة بوخزةٍ خاطفة في الروح، يؤلم كالعنُق الملتوي. ظل يضغط عليّه بقسوةٍ أكثر . . يُخطيء أكثر، يتمادى، كي ينتهي ألمه. كي يسقُط فى عين نفسه، ثم يتصالح معها بشكله الجديد، استمر بالضّغط على ضميره الملتوي حتى انكسر، وانتهى الأمر.

–السيد عزمي منصور بالخارج سيدتي

–دعيه يتفضل عُلا.

ها هو رئيس تحرير الجريدة التي كانت تعمل بها في مكتبها، أليس الأمر غريبًا ! بالطبع.

–أهلاً بحضرتك.

–مبروك الجريدة.

–الله يبارك فى حضرتك اتفضل.

تحركت عالية قاصدة مكتب سارة، لتزف إليها البُشرى لتجد عزمي منصور خارج من مكتبها متجهم الوجه، وكأنه تلقى لتوه لكمة ما.

–ماذا حدث ؟

وجدتها تجلس بوهن على كرسيها، وكأنها استنفذت طاقتها.

–أتى يعرض عليّ فضح آدم بالجريدة. الوغد لديه بعض الأدلة التي تورطه، ولكنه يبحث عن الضجة الإعلامية، حيث أكون أنا من تفعل.

تذكرت حديثه.

–دعينا لا ننُكر أنه أذكي كثيراً من قبل، إنها فرصة لردّ الحقوق إلى أصحابها بمنتهى العدل، لطالما كنتِ صحفية مجتهدة ذات مُثل عُليا.

تكاد تصيح به :–

-أيها المُنافق المُتلون كالحرباء .

ليتابع . .

-توجد بعض شائعات أن امبراطور آل نورالدينٍ، كان خلف عرقلة سير العمل والنشر بجريدتكم الوليدة، لنحارب الفساد ونتعاون معا . .كونه . .

-إلى الخارج .

-ماذا ؟

-إلى الخارج، ترغب مني التشهير برجل كنت أحمل اسمه ! أتعي ما تقول سيدي الفاضل صاحب المُثل العليا .آدم نورالدين خط أحمر، إن حاولت فقط حاولت تلويث اسمه بأخباركم، التي نعلم علم اليقين كون معظمها مُلفق تأكد ستضع جريدتنا حضرتك، والقائمين على جريدتك تحت الميكروسكوب، ومؤكد لا أنا ولا حضرتك نود ذلك. شرفت مكتبي أستاذ عزمي.

أعادها للواقع صوت عالية.

-لا زال الأمر يؤلمك صغيرتي ؟

ترقرقت الدموع بعينيها :-

-فقط كُفّي عن صغيرتي تِلك.

ابتسمت عالية لتتابع هي :

-كل ماهُنالك أن ألمه أصبح من مكونات حياتي مؤخراً، أنه كالهواء الذي يملأ الفضاء حولي. نحن نموت إذا امتنعنا عن الهواء رغم تلوثه.

تنظر لها بحنو :-

-كلما أراكِ أتذكره.

ضحكت :

-عليّ أنا أن أقول ذلك شاء أم أبى أنتِ والدته.

تنهدت كلتاهما :

-شاء أم أبى، أنتِ حب عمره الذي لن يتكرر.

تجاهلت الأمر.

-ماهي بشرتك لي.

تذكرت فابتهجت :-

-المهرجان الذي حضرتيه العام الماضي كضيفة، سوف يتم تكريمك فيه كأفضل صحفية شابة لهذاالعام.

قفزت من على كرسيها مبتهجة :-

-صدقاً . . اللهم لك الحمد . . اللهم لك الحمد .

ضمتها بحب :-

-لا أجد كلمة توفيكِ قدرك.

-أنتِ تستحقين كل هذا وأكثر، مستقبلك ينتظرك لا تتباطئين.

ღ ღ ღ

ها هو يوقع صفقة جديدة، سلسلة متتابعة من السقوط نحو اللا شيء. يتذكر حديثها :-

-لا مجال للتبرير، المباديء لا تُتجزأ، الصواب صواب، والخطأ خطأ.

-الفكرة في أنك لا تقاومين ارتكاب الأخطاء، أنتِ لا تعرفين طريقها وكيفية ارتكابها بالأصل، وهذا دوري على ما يبدو.

يضحكان !

-أبدًا لست ملاك لأفعل، ولكن اذا ما اكتشفنا خطأ ما علينا تصحيحه، أو التراجع عنه،

يهمس . .

-هناك بعض الأخطاء لا يمكن التراجع عنها، والتصحيح قد يُكلفك حياتك بأكملها . .كما فعل أخوه الأكبر، ليتم إغتياله على أيدي المافيا، ويموت والده بعده حزناً عليه إثر أزمة قلبية .

ღ ღ ღ

تهدهد الصغيرة دلال وتشدو لها بعض من أغنيات الأطفال،

-هيا لولو نامي أرجوكِ . . أرجوكِ .

-ماذا فعلت بكِ لولو الصغيرة ؟

تنظر نحوه .

-لا شيء، فقط أودّ أن تنام رجاءً أخرج كي تستسلم للنوم .

ظلت دقائق تحملها تهزها بين يديها، حتى غفت وضعتها بسريرها وخرجت :

-مريم .

-نعم .

-أود أن نتحدث .

-لدي عمل بالمطبخ محمود عذراً .

سحبها من معصمها لتجلس على الأريكة بجواره .

-مريم لقد تحدثنا مراراً .

-ليس باليسير عليّ محمود .

-أعلم. . والله أعلم. ولكن امنحينا فرصة، أنتِ تصدينني طوال الوقت.

-مجرد أن تقع عيناي عليك أتذكر ماذا أفعل ؟

-ارتدي قبعة الإخفاء . . .

-أجري عملية تجميلية في وجهي فتفشل، وتتبدل ملامحي فلا تتذكرين إذن.

-أنت تمزح !

-لقد مرت أشهر مريم.

-وأنا ها هو ببيتك، أتمنى أن يتم الله شفاء والدتك، فما تعرضت له ليس بالقليل وتملأ الصغيرة عليّ حياتي، وأحاول أن أجتهد بعملي.

قاطعها متأففًا :

-وهذا العمل أيضاً .

-أسفة يا سيد محمود إعتراضك مرفوض.

-سأقدم طلب استئناف.

-رفعت الجلسة.

ابتسما

-لم أر ابتسامتك منذ شهور مريم، ولهذا تكفيني تلك الابتسامة الآن. ولكن لن أتنازل عن عودتنا كما السابق، لن أنسى ما فعلتيه لأجل عائلتي، وجودك بجوار أمي وأنا بالخارج.

أختنق صوته بألم، أنهي معاملات عودة جثمان دلال لدفنها هنا . وأسترداد الصغيرة بتنازل أبيها عنها، رغم امتعاضي منه إلا إني كنت أرغب بها بشدة حمداً لله. قضاؤه كله خير

-عائلتك عائلتي محمود . . يعلم الله مقدار ألمي لوفاة دلال، ورؤية والدتك بهذا الحزن والوهن ومقدار سعادتي بدلال الصغيرة التي تشبه والدتها . عندما أخبرتني بعودتك بها ، شعرت وكأن الله يعوضني بالطفل الذي لطالما تمنيته، لن أنكر أني حاولت أن أبتعد وأقسو. ولكني لم أستطع يا محمود رؤية والدتك خلال أيام العزاء أذابت أي ألم تجاهها أو حقد بصدري، رغم أني لم أكن أطيق رؤياك، دعوت لك بقوة التحمل والصبر لأني اعلم أن كل شيء يقع على كاهلك .

-لو تدرين كم احتجت وجودك بجواري مريم.

-كان لديك ما يغنيك عني .

-لم يكن وتدرين. رانيا لم تكن قد خرجت كلياً من صدمة وفاة زوجها، كانت خائفة حيث بالفعل وصلها أن وفاة زوجها ربما تكون مدّبرة، كونه قدم شكاوي وبلاغات، عندما اكتشف الغش في مواد البناء، لن أنكر خطأي في تكرار زيارتها .

سحبت يدها من يده.

-كفى محمود .

-استمعي مريم أرجوكِ مرة واحدة للنهاية. عقد القران تمّ حماية لها ولطفلها من الناس، وبعض الجيران المميزين بالسماجة وسوء الظن لقد سمعت إهانتها من جارها السافل بأذني. وهي أولاً وأخيراً كانت سكرتيرتي، وليست امرأة غريبة لا أدري أخلاقها لأقف أسمع وأصمت، الخطأ كان من عندي وتصورت أني بهذا أفعل الصواب. خاصة وأنتِ. .

-أجل أجل خاصة ونحن في شجار وجدال وخصام طوال الوقت، فتتزوج الأرملة المحتاجة وتتبنى طفلها، وتضمن أطفال لك فى المستقبل، أليس كذلك محمود ؟

زفر بقوة :

-أجل لن أنكر.

هبت واقفة في غضب :

-مريم انتظري.

توجهت للمطبخ.

-لن أنكر كوني أتزوجها وأتبنى طفلها، لكن من أين لي أن أضمن اطفال مستقبليين، ثم الأمر كان بحيز التفكير وساوس لا أكثر.

التفتت نحوه وهي تحمل السكين الذي تقطع به الخضار.

-وساوس ! عقد قرانك وساوس. فى الواقع نفسي توسوس لي أن أغرز تلك بصدرك، ها هل أقتلك ثم أخبرك سامحني حبيبي إنها وساوس !

ضحك مبتهجاً :

-افعلي إن كان هذا ما يريحك.. كلي لكِ.

-منافق مُدعي !

همس بتأنيب :

-مريم !

نزع السكين من يدها وقربها منه :

-لقد أخبرتك أسباب تعجلنا بعقد القران.

انتفضت بين يديه فأحكم قبضته عليها :

-لم أكن أود أن أفعل بتلك السرعة، ولكني شعرت كأني مُسير، ثم ندم كلانا أنا وهي، ربما هي رأت فيّ أمان وأنا وجدت مهرب منك، ربما أود أن أنتقم منكِ.

-تنتقم مني.. أغرب عن وجهي محمود ابتعد.

-ألا تصافني.. فنتحدث بصراحة. وها نحن انفصلنا بهدوء، وعادت إلى بلدها برفقة والدها، ولا زلنا نحن هنا نتشاجر.

سمعت صوت بكاء الصغيرة. دفعته في صدره بقوة.

-ابتعد لولو تبكي.

حملتها وهي تجيب هاتفها، تزف لها بشرى تكريمها لتبارك لها بسعادة، وتروي لها جديدها هي ومحمود، لتضحك

-أحبك وأنتِ شريرة.. استمري. المهم أنكما معاً محمود يحبك مريم. كلاكما أخطأتما وكلاكما تعذبتما، والحمد لله أن الله دبر الأمر، بتلك الطريقة فلتكفي عن التمادي.

-من المميت أن تحبي رجلًا، تملكين تجاهه الكثير والكثير من الحب، والكثير من الغضب والألم في آنٍ واحد، كلما انغمستي في حبه، نغّص عليكِ ألمه الحياة، وكلما توجهتي إلى ألمه وتناسيتي حبه، ردّك شوقك الجارف إليه، ألا تدري هي هذا المميت وتحياه.

-منحك الله القدرة على النسيان والغفران حبيبتي.

لتسمع صوت محمود:

-متى سيردك شوقك الجارف ها متى؟ أنا أرى أشواك وليس أشواق.

ضحكتا لتتحدث سارة.

-هيا يا أم لولو يبدو الغفران وشيك.

♡ ♡ ♡

-ألست مدعو ضيف شرف للمهرجان هذا العام؟

-هات ما لديك زياد.

-ألن تذهب؟

-لا.

-تخشى رؤيتها .

هتف به :

-زياد !

-ماذا إنه مجرد سؤال. لا تود رؤيتها فتشيع الفوضى في روحك، بعد ما أخيراً نعمت بالهدوء، أم تخشى رؤية انعكاس صورتك الحالية في عينيها ، إنها قادرة على القتل بنظراتها وأنت تدري، كما تدري أنك ستنظر إليها مهما ادعيت التجاهل.

-لقد أصبحت لا تطاق.

-أقلعت عن السجائر.

-ليس من شأنك.

-فى الواقع لم أتفاجيء . ما دمت استطعت التخلي عنها فأنت جبار، تستطيع التخلي عن أي شيء وأي شخص، عليّ أن أخاف على نفسي ولكن ماذا ستفعل بهذا الجبروت المفرط يرضيك ؟

-أجل ولا تدفعني لأختبره عليك أنت الآخر.

-تغدر بي !

-زيااااد ما تلك الحماقات التي تتفوه بها ؟

-إنها حماقاتك لِمّ تستنكرها الآن ؟

هتف صارخاً :

-اصمت زياد اصمت.

-عذراً أخي. . الحقيقة دوماً مؤلمة ومكروهة.

نزع سترته من على ظهر كرسيه وخرج،

وكأن كلمات أخيه أسواط تجلد روحه دون نزيف مرئي.

ღ ღ ღ

تتأنق بفستان أخضر فاتح يضم جسدها في رقة كفراشة، صدره من الدانتيل الأسود المنقوش. يلتف حول خصرها شريط من الساتان الأسود معقود جانبياً بشكل "فيونكة " ليُسدل الفستان من الخصر إلى الأسفل باتساع، وشاح رأس أخضر فاتح بلون الفستان وعينيها، حذائها الأسود اللامع بأناقة.

أخذت نفساً عميقاً وتوجهت نحو أولى درجات سِلمّ مستقبلها.

-لطالما أبهرتني أناقتك البسيطة.

-نور!

-هل تظنين أني لن أحضر حفل تكريمك.

ضمتها بسعادة:

-أسعدتيني نور.. كيف حالك حبيبتي ؟

-بخير لدي الكثير والكثير.

-اطمئني لن أتركك حتى أسمع كُل شيء.

جائزة أفضل صحفية شابة الصحفية " سارة محمد النجار"، تقف على منصة التكريم، وهي تدرك أن " كُل انتصار مُعلن.. خَلفه هَزيمة مُستتِرة وكُل هَزيمة مُعلنَة، تبعها نَصر تألمنا عِند تحقِيقه " وكم تألمت لتحقيق نصرها، ولكن أراد الله لها ففعلت.

ღ ღ ღ

تخاص منها ولم يتخلص من داء تتبع أخبارها، يقنع ذاته أنه فضول لا أكثر، إنها مبتهجة سعيدة. . سعيدة من دونه ! لديها نجاحها وتألقها، لطالما كان يخشى تلك اللحظة، التي يشعر بصغيرته تكبّر، تنفلت من مداره دون أن تُكسر أو تتوه !

لّملمت نفسها بكبرياءٍ سريع، ظن أنه لا يملكه سواه.الكُل حولها . . هل أغنوها عنه ؟ أين مكانه ؟ ألم يكن هو من أخبرها . " مساحات روحك شاسعة وطلب منها ألا تتوقف أبدًا " .

هاهي تنطلق من دون ذِكر له أو أثر

ღღღ

-أتُحبّني ؟

خرجت مِن بين شفتيّها بارتباكٍ نابع عن يقيّن متوسِل، لا زال يحتاج لإثبات، تنهد وعلى شفتيّه ابتسامة الوَاثق مِن الإجابة المتمتع بالسؤال، لمّ يتحرك لينظُر إليّهَا، تحدّث وعيناه لا تحيد عن الفَراغ أمامه، وكأنه يُحدث نفسُه

قائلاً ::

-أترّين كَمّ الحيّاة بَاهتة وفَاقدة لشتى معَانيّها ؟ إن الجميع يتخبّطون في دروب لا يجدون مِنها جدوى، غالبًا يستنفذون الكثيّر مِن طاقاتهم، ومشَاعِرهُم وأرواحهم هباءً، في زمننا الحَالي لا أستبعدّ أبدًا أن الجميّع تمنَى الموت ولو لحظَة، لأنَهُ يوم بَعد آخر تفقدّ الحيّاة أسبابها لنحيّاها . لهذا الخلاص الوحيد هو الحُب يا نوّر .

التفت إليها تتشابك أعينهم. تغوص في عينيه بلهفة المُنتظر، ولا زالت تحيّط به تلك الابتسامة الرائعة المستفزة.

تابع قائِلاً :

الحٌب وحده هو القادر على بعث الحياة فى الأرواحِ المُنهكة. الحبّ هو الطريق عند الضَلال. وهو النٌور فى ظِل كُل الظلام الذي يحَاوطنا. بالحٌب نرى كُل ما هو جميّل فى تلك الحياة، أو ربما بالحٌب نخلِق نحنُ هذا الجمّال! لهذَا أنا لا أٌحبّك.!

عيناها تتسع وتتسع اقترب بصوت حنون يبث فيها الأمان، أنا بوجودك أقوى على الاستمرار فى الحيّاة، ببسَاطة أنا أحبّك لأعيّش.

دلف إلى الغرفة هاتفًا

-منور يا أحمد.

أجفل حيث وجده خلفه لا يدري من أين ظهر.

-أنت مجدداً ألا يوجد سواي.

-أنا متعمد يا دكتور.

-مبروك يا آنسة إزعاج .

-بربي لا يوجد مزعج بهذا الكون بقدرك زياد.

-هل قطعت عليكما تلك الأجواء الشاعرية.

تحدث أحمد :

-لا أبدًا، مجرد سؤال بسيط وقد أجبته.

همست :

-أجل لقد أجابه.

نظر نحوها باستنكار :

-يا رقيقة.

-طول عمري.

-كاذبة إنها همجية من آكلي لحوم البشر .

-أي أخ أنت .

التفت نحوه :

-صدقني يا أحمد لقد أطلقنا عليها لقب الآنسة إزعاج، لأنها تستحقه بجدارة .

دلف إلى الغرفة :

-مبروك آنسة إزعاج.

تعالت ضحكات زياد مُشدداً على كتف أحمد :

-هاهو كبير العائلة . . يضم صوته لصوتي .

تحركت مغادرة الغرفة بغضبها الطفولي :

-انسى لا توجد أي خطبة الأسبوع المقبل .

بهت أحمد قائلاً :

-وما ذنبي أنا ؟

ضحك زياد :

-دعكَ منها إنها عاشقة للنكد . . ستسهر برفقتي الليلة وتعود ناسياً أمر الخطبة تمامًا . يا رجُل هل هناك أجمل وأبهى من العزوبية .

نظر أحمد نحو زياد ليجده يتحدث بجدية . ضحك :

-أنت تفسد ارتباطي بأختك .

-أنا ؟ أبدًا . . لقد كنت أختبرك .

-ماذا تعني ؟

-لو وافقت على السهر برفقتي، لأفسدت الخطوبة بحق.

-أنت مجنون كلياً زياد.

-ربما ولكني مقتنع أنه لا توجد امرأة تستحق أن يقيد الرجل نفسه بها.

التفت أحمد نحو آدم الجالس بصمت، وكأنه شارد بأفكاره:

-وما رأيك آدم؟

لا يدري لِمّ هي التي اخترقت سماء أفكاره، ومضّت للحظة وانطفأت.

-بل توجد نساء تستحق، ولكن هذا لا يعني كونهن مناسبات لك.

أومأ زياد:

-صدقاًً.. لهذا علينا أن ندعهم للرجال المُناسبين..

واستطرد..

-أمثالي.

ضحك أحمد:

-حتى المميزات سترتبط بهن بدفعة جماعية.

-الشرع حلل أربع زوجات يا أحمد.

دلفت إلى الغرفة مجدداً ليخترق سمعها حديثه، عيناها تتسع لتشهق:

-إنك تفسد أخلاق خطيبي.

-أي فساد أنا أتحدث بالشرع. الفساد هو أن يسهر برفقتي الليلة مثلاً.

-أيرضيك هذا آدم؟

-إنه زياد وكفى.

-للعلم سأدعو سارة إلى الخطبة.

تحدث زياد قائلاً :

-طبعاً وهل تصورتِ غير ذلك ؟

-أنا فقط أردت إخباركم.

وجهت بصرها للشارد في ملكوته الخاص، تحدثت قائلة:

-المهم أن تأت.

تحرك من على كرسيه مُغادراً الغرفة هامساً :

-ستأتي.

ღ ღ ღ

تتذكر كلمات مريم :

- ماذا ستفعلين معه ؟

- لا شيء بالطبع ! أنا هناك لأجل نور.. ونور فقط. لن أختبأ خائفة مريم، أنا فخورة بنفسي.

- أجل معكِ حق.. هو من عليه الشعور بالخزي.

- لا يهم ما يشعر به.

الصمت بحر من الحيرة يتوه فيه بِلا مرسى. حتى وإن ظلّ طافياً بكبرياء..

أن تخسر الأشياء والأشخاص بإرادتك الحُرة. تسلب معها أحقيّتَك فى النَدم .. الألم مِن فقدانها إختيارك للخسارة يُسقط عنك تِلك الرفاهية، رفاهية الحُزن على ما كنت تمتلك يوماً، ولم تعد كذلك الآن.

تقف فى رُكن روحك الخاص، تعضّ أطراف أنامِل روحك وجعاً في صمت المهم أن يراك العَالم وأنت مُكابِر مُبتسم، تتمنى تلك اللحظة التيّ يغضّ عنك الطَرف بعضهم، لتشهق بتأوهٍ الألم المكتوم المتُحفظ، ثم تعاود الإبتسام وهذا ما كان يفعله وهو يراها تتهادى أمامه، ببلوزةٍ من الحرير الأحمر، وتنورة واسعة من الشيفون الأسود، أناقتها فطرية متجدده تظهر في رُقي جاذبية جسدها، شيء ما يختلج بصدره عيناه تسقط عليها لا إراديا، ودّ لو يشيح بصره عنها، ودّ بصدق ولكنه لم يقوْ إلا أن ينظر لها متفحصاً، حقّه ألم تمر أشهر طويلة !

رأت نور متوهجة في سعادة، بثوبها الفضي الذي يظهر رشاقتها، يضم جسدها في تصميم أنيق. أكمام من التّل الرمادي المشغول باللون الفضي متصلة بقماش الفستانِ المُناسب على الجسد بشكل مُحكم، ليزداد اتساعه فيما بعد الركبة، بطبقاتٍ كثيفة من التّل الرمادي المشغول بالفضي، ملائمة للأكمام، شعرها معقود بتسريحة مُلوكية مُزينة بفصوص ماسية برّاقة وزينة وجه رقيقة وعطر مميز.

كانت مُذهلة.

توجهت نحوها تُبارك لها سعيدة لأجلها.. سعيدة بصدق، تضمها لتهمس بأذنها العروس الجميلة :

-فرحتي لم تكن لتكتمل إلا بوجودك.

-مجنونة أنا لأترك فرح أختي.

باركت للعريس وتوجهت نحو الجدة، لقد اشتاقتها بحق.

-مبروك جدتي.

-لم أعد كذلك.

بهتت ملامحها بألم، ولكنها أجابت ببساطة :

-معكِ حق.. فقط أردت الاطمئنان.

-لِمّ رحلتي ؟

-جدتي أنا . . .

لا تدري من أين ظهر ليجلس على إحدى ركبتيه، أمامٍ كرسي جدته المتحرك لم تقوْ على رفع نظرها، توجه نحوها وها هو الآنٍ يخشى أن يرى نظرة كره، أو يُغض بعينيها تحركت لتقف ليتحرك هو الآخر، ليتبادلا نظرة عن قُربٍ كافٍ لتسري كالقشعريرة بالجسد .

استدارت وغادرت الحفل دون كلمة .

ღ ღ ღ

بعد أشهر

صرخت بخوف وجسدها متعرق يرتجف، توجهت نحوها والدتها، تُضيء مصباح غرفتها لتضمها بلهفة، تتكور كطفلة بحضن والدتها وهي تتلو عليها آيات من القرآن الكريم .

-ماذا هناك ؟

تُتمتم :

-كابوس . . كابوس مخيف .

تنتظر دقائق لتفيق ويسترخي جسدها، لتجد أنه تبقى على الفجر القليل تتوضأ، وتقف تناجي ربها تنحدر دمعه بألم ؟

" يارب استر . . يارب سَلِمّ . . أهده سواء السبيل " .

دلف إلى المنزل ببهجةٍ يصيح :

-ماما . . مريم .

-محمود كف عن إزعاجك، إن استيقظت لولو لن يجلس بها سواك .

حرك باطن يده إلى فمه في حركة تعني " صمت" .

تحدث هامساً :

-اتركي ما بيدك وتعالي أنتِ وماما لأمرٍ هام.

صاحت :

-ماذا تقول لا أسمعك.

-بأي عقل يفهم النساء !

جمعهما أمامه :

-حسناً تجهّزا لعُمرة رمضان هذا العام إن شاء الله، جميعنا نحتاج لبداية جديدة ولم أرْ أفضل من تلك بداية.

ترقرقت الدموع بعيني والدته، وقفزت مريم ببهجة وعينيها تلتمع بدموع الفرح هي الأخرى، ضمهما إليه.

-أنتما الحياة لي.

-وأنت حياتنا حبيبي .

-ليحفظك الله بني ويرعاك.

ابتسمت والدته :

-سأدعو لكما عند بيت الله الحرام، وكلي ثقة أنه سيستجيب دعائي.

ابتسمت هي الأخرى :

-أجل ماما كثفيّ الدعوات رجاءً، دعوات الأمهات مستجابة.

ღ ღ ღ

" إصابة امبراطور المال والأعمال بطلق ناري مساء الأمس"

" آدم نور الدين بالعنايه المُركزة "

"هل سينجو إمبراطور آل نور الدين "

كان خبر إصابته بطلق ناري يدوي فى البلاد،

هذا الشعور الخانق الذي يجثم على روحها منذ أيام وتلك الكوابيس المروعه التي تخصه، لا تدري ما هو الشعور الذي من المفترض أن تشعر به الآن، بل هل عليها أن تشعر به، أو يعنيها أيٍ شيء يخصه أصلاً ! ألم تدرك بعد أنها دفعت غالياً ثمن محاولته للتغيير، ولكن يبدو أنه هو أيضا فعل، وهذه الإصابة أولى خطوات التغيير الجذرية.

دلفت إلى مكتبها .

-ستذهبين إليه سارة.

التفتت نحوها :

-أنتِ والدته رغم رفضه، عليكِ أنتِ أن تفعلي.

-آخر مرة رأيته بها كانت قبل وفاة رضوان.

أذهب لزيارته فيقابلني ببرود أهلاً بالسيدة عالية، وددت يوماً أن يسمح لي بالتقرب منه كأمّ،

لقد عدت من الخارج، وأنشأت الجريدة لاعتقادي أني هكذا قريبة منه، وربما يوماً ما اكتسبه كابن فعلي. لم يكن معي ولكنه يحيا في أمان وهذا يطمئنني. لم أتخيل أن أفقده.. لايمكن الآن .

نشجت ببكاء مكتوم :

-اطمئني.. أنا واثقة من نجاة آدم.

رفعت وجهها نحوها :

-سامحيه سارة. . امنحيه الغفران بنيتي.

-سأعدك أن أدعو له.المهم أن تذهبي إليه. . علينا أن تدرب على فكرة الوداع جيدًا .

-ألن تأتي لرؤيته ؟

صمتت ووضعت رأسها بين كفيها .

ღ ღ ღ

البحر يُغرِق لا يَغرق !

خطتها على كارت أبيض صغير وأخذت الورود البيضاء، وتوجهت إلى المشفى.

لمحها زياد فتوجه نحوها :

-لا تدرين مقدار سعادتي بقدومك. لقد تصورتك لن تأتي، كون السيدة عالية أتت وحدها بالأمس.

أومأت بإيجاب :

-نعم أدري. .كيف حاله ؟

-لا زال بالغيبوبة، ننتظر أن يستفيق بأي وقت.

-أتمّ الله شفائه على خير.

تقدمت خطوات لترى نور :

-سارة. . آدم يا سارة آدم.

مسحت دموعها برفق :

-أخاكِ كالقط بسبعة أرواح. سينجو أدعي وأنتِ موقنة أن الله لن يخذلك أبدًا .

التفتت لزياد :

-هل من الممكن رؤيته.

صاحتا سوزان ولينا باعتراض :

-ابعدهما عن طريقي زياد الوضع لا يحتمل رجاءً.

أخذت إذن الطبيب ودلفت إليه وضعت بجواره الورورد البيضاء.

معتوهة أنا لا زلت أظن أن الورود البيضاء تليق بك. لم أشعر بمشاعر مختلطة بحياتي كما أشعر الآن. ولكن مؤكد أتمنى نجاتك وستفعل. لدي يقين بهذا، أتمّ الله شفائك على خير، رغم كُل شيء.. علينا أن نؤمن بنواة الخير، ربما لم أجدها بك لهذا أطعمتني المرار، والخذلان ببساطة، ولكن سأدعو الله لك أن تجدها بنفسك لنفسك. عليك أن تنجو، البحر يُغرِق لا يَغرق .

تحركت مغادرة غرفته ليهمس زياد إليها

-كان يهذي بإسمك بالأمس فى الغيبوبة

ابتسمت بوهن وهي تتذكر تلك الليلة المشؤومة وهو يعترف بحبه وهو مخمور

-هكذا هو أخيك لا يعترف بوجودي إلا وهو فاقد لوعيه.

تحركت تغادر المشفى. وأول موجه للبحر تشق طريقها للعودة يفتح عيناه بتثاقل ليعود بحر عيناه للحياة، ترتاد السياره الأجرة عائدة لمكتبها والصوت يصدح:

إغضب كما تشاء

واجرح أحاسيسي كما تشاء

حطم أواني الزهر والمرايا

هدد بحبّ امرأةٍ سوايا

فكل ما تفعله سواء

كل ما تقوله سواء
فأنت كالأطفال يا حبيبي
نحبهم.. مهما لنا أساؤوا
إغضب
فأنت رائعٌ حقاً متى تثور
إغضب
فلولا الموج ما تكونت بحور
كن عاصفاً.. كن ممطراً
فإن قلبي دائماً غفور
إغضب
فلن أجيب بالتحدي
فأنت طفلٌ عابثٌ
يملؤه الغرور
وكيف من صغارها
تنتقم الطيور؟
إذهب
إذا يوماً مللت مني
واتهم الأقدار واتهمني
أما أنا فإني
سأكتفي بدمعي وحزني
فالصمت كبرياء

والحزن كبرياء

إذهب

إذا أتعبك البقاء

فالأرض فيها العطر والنساء

والأعين الخضراء والسوداء

وعندما تريد أن تراني

وعندما تحتاج كالطفل إلى حناني

فعدْ إلى قلبي متى تشاء

فأنت في حياتي الهواء

وأنت.. عندي الأرض والسماء

إغضب كما تشاء

واذهب كما تشاء

واذهب.. متى تشاء

لا بد أن تعود ذات يومٍ

وقد عرفت ما هو الوفاء

*نزارقباني

تمت بحمد الله وتوفيقه